• - دار الحصاد للنشر والتوزيع - سورية - دمشق - برامكة ، جانب
وكالة سانا - ص. ب : ٤٤٩٠ هاتف ، فاكس : ٢١٢٦٣٢٦
 الطبعة الأولى ١٩٩٥

القرى الأولى في بلاد الشام

من الألف التاسع حتى الألف السابع ق .م

ترجمة : الياس مرقص

مقدّمة المترجم

— I —

«القرى الأولى في بلاد الشام من الألف التاسع إلى الألف السابع قبل الميلاد» . . .

منذ مطالعتي لهذا الكتاب قبل ست سنوات وأنا أفكر في نقله إلى القارئ العربي . الأسباب ؟ لنقرأ العنوان مرة ثانية .

«القرى الأولى» ، نشوء القرى . نحن اليوم نحبّ «المدن» . . .

«بلاد الشام» (أو في النص الفرنسي وبالمصطلح الفرنسي «سورية ـ فلسطين» Syrie – Palestine) حقيقةٌ ما ، واقعٌ ما . هذا حسب عنوان الكتاب ومتن الكتاب . بلاد الشام كينونة تاريخية ، تتكوّن وتطفو آنذاك ، اجتماعية ـ حضارية ، إنتاجية ـ عيشية ـ روحية ، قبل «اللغة» و«القومية» و«الدولة» و«الدول» و«السياسة» وكل هذا الذي يستهوينا ، عادةً . قضية كوفان وآخرين تقع في ما «قبل» هذا ، منطقياً وتاريخياً ، في ما قد يكون قاعه وقاعدته .

«من الألف التاسع حتى الألف السابع ق م» ، وأيضاً من الألف العاشر حتى الألف السادس أو الخامس . هذا ، تاريخياً ، قبل «الهجرات العربية السامية» ، وقبل الحضارات النهرية الكبرى ، مصر وبلاد الرافدين ، قبل الكتابة والأبجدية ، المدن والمدن الكبرى ، التجارة البرية والبحرية ، الدولة والدول . إنه في «ماقبل التاريخ» وفي «تمهيد التاريخ» أي في هذا الذي يقيم الأساس لكل تاريخ . إنه في الاجتماع البشري الذي ليس بدونه دولة ودول .

موضوع «الهجرات العربية ـ السامية» موضوعٌ يفتتح عادة ، في كتبنا المدرسية ،

تعليم التاريخ ، تاريخ الوطن . وقد يبدأ الكتاب المدرسي ، مثلاً في الصف الخامس الابتدائي (سورية) ، أو في صف أعلى منه ، بمقدمة ، سريعة ، عن «ماقبل التاريخ» ، عن «الانسان الأوّل» ، «العصور الحجرية» ، زمن الصيد والقطف مع صور عن بعض الأدوات . لكن الانتقال من هذه المقدمة ذات الطابع العمومي والعالمي إلى قضية «الهجرات العربية السامية» (المعززة بخريطة من أسهم) في وطننا العربي أو بالأصح في جزء محدّد منه ! ـ ليس انتقالاً بل هوّة . الكدح البشري يظهر في المقدمة تلك ، ويختفي أو تقريباً ، في الفصول التالية ، الفصول «التاريخية» و«الحضارية» والأمجادية ، لصالح «الهجرات العربية» و(أما !) «الشعوب الوافدة» غير العربية (مثل السومريين : فإنهم يقعون ، في تسلسل الكتاب المدرسي المذكور ، وبموجب «منطقه» ، بعد الأكاديين الخ) وربّما «الاستعمار المقدوني» . . .وصولاً إلى الفتح العربي الاسلامي أو التحرير العربي . . . هنا ، بعد أمجاد البداية (الأمويون والعباسيون الأوائل) وبروز الجوهر ، تأتي «الانفصالات» ، مفهومة أو غير مفهومة ، معترفاً بها أو غير معترف بها ، أي يأتي انقسام الجوهر ، الانقسام «المرفوض» : فكرة الجوهر والأصل أكلت فكرة التشكّل . ثم . . .يطغى النضال ضد العدوّ الخارجي ، الشعور الكارثي (البادئ مع البداية ، تحت السطح*) يشتدّ ، الحالة الاجتماعية والتاريخية غائبة ، وهناك فجوة طويلة (عصر المماليك ، العصر العثماني) ، الزراعة والديموغرافيا خارج حقل النظر ، «الانحطاط» غير مفهوم أو هو (عند أهل الردّة اللاقومية) منفيّ . التاريخ يُختزل أكثر فأكثر كمحتويات ، كمنطق ، كزمان وكمكان ، المغرب العربي غائب . . . هذه المادة الدراسية ، في وضعها الراهن ، بعيدة عن تحقيق مهمتها الطبيعية والمنشودة ، إنها بعيدة ، كموضوع قائم أمام الطلاب ، عن ثالوث المعقولية والموضوعية والاجتماعية ، إنها لاتسهم إسهاماً صحيحاً في تكوين الوعي العربي والوجدان العربي . . .

في هذه الحال ، بدا لي كتاب جاك كوفان ذا أهمية تتعدى كثيراً نطاق «المختصين» (إذا ما وُجدوا : فقد لايكون عندنا مختصون في «ماقبل التاريخ» و«تمهيد التاريخ») لتصيب قضية التربية وقضية الثقافة في أساساتهما .

وإن مطالعتي للائحة مواد «فرع التاريخ» في الجامعة تزيدني اقتناعاً بسوء الحال . هذا

(*) الجذر الروحي ـ الفكري البدهي ، الا وهو الاعتراف بالتاريخ كدراما وكتقدم ، مفقود ، رغم وضوحه في دين الاله الواحد ، عقيدة خلق (العالم) والانسان ، طبيعته وقدْره وقدَره (في القرآن ، أو في سفر التكوين ...)

المجموع ليس علماً ، إنه (في أحسن حال) مادّة لعلم ، وهو يتناسب كجهد يُبذل وكزمن جهد مع سنة واحد لا أكثر . فعلياً ، يدرس الطالب شهراً أو شهرين في السنة ، و«ينجح» . . . بالنسبة له ، إن الجامعة (في هذا الفرع وفروع أخرى) انعتاق من مشقّة التعليم الثانوي وصف البكالوريا . هنا أيضاً فائدة كتاب كوفان وكتب كثيرة من هذا «النوع» أو هذه «الطبيعة» .

يجب أن ندرس ، يجب أن **نعرف** قضية القرى في بلاد الشام بين الألف العاشر والألف الخامس قبل الميلاد ، إذن قبل ماري وإيبلا وأوغاريت وسيانو ، يجب أن نقرأ قصّة الانتقال من كهف إلى بيت ، من قطف وصيد إلى زرع ورعي ومكاثرة ، من الأخذ والقنص إلى الإنتاج بحصر المعنى ، إنتاج العيش ، يجب أن نقرأ قضية التملك والأنسنة في وطنها الأول ـ بمعنى ما ، وفي مستوى ما وحاسم ـ والذي هو وطننا . إنها «الثورة الريفية» ، «العتبة» الكبرى .

لنقل إن هذه المسألة القديمة راهنة قومياً وعالمياً : البشرية تنتكس اليوم إلى انسان القنص والإسراف والتخريب . . . على راهنية القضية ينتهي كتاب عالم الآثار الفرنسي ، الذي ـ على سبيل المثال ، ومن جهة أخرى إن صح القول ـ يدخل في «مناظرة» (أي في صلة ، في تماسّ أو احتكاك) مع كتاب عنوانه وموضوعه «**الماركسية ونظرية الشخصية**» (تأليف لوسيان سيف Seve) . لنقل إذاً إن هذا التخصص ـ اللاتّخصّص ، هذا العلم المحدّد والكلّي فعلاً ، هذا الانضباط الميداني discipline الذي **هو فكر** انساني ، باختصار إنّ هذا الموقف العلّمي ـ الفكريّ بعيد عن غالبية الوعي العربي الحاضر ، أو الحاضر الغائب ، المنقطع عن الواقع أو العالم ، الممتنع الآن عن الانسان وتاريخه ومصائره ، والذي . . يستخدم أخطر كلمات اللغة البشرية كأنها بديهيات معلومة .

بالنسبة لي ، إن كتاب هذا المستكشف الفرنسي لتل مريبط على الفرات يساعدني على فهم الكلمات الكبرى حقاً ، الشعبية ـ الفلسفية : بيت ، وطن ، عالم ، وعي ، إنسان ، طبيعة ، تاريخ ، مجتمع ، فكر ، زراعة ، ثقافة ، صناعة ، أغراض ، أشياء ، ملكية ، تملّك ، روح ، عمل ، قرية ، بلدة ، مدينة ، كومونة ، بلدّية ، قيمة ، تبادل ، أخلاق ، أمة ، شعب ، الخ ، وأيضاً : ثورة . هذه ليست قضية لغوية خاصة ، عربية أو فرنسية أو ألمانية ، ولاحتى لغوية عامة أو محض ألسنية (هذا ، إذا كان ثمة من يؤمن بهذه المحضية) ، بل هي قضية **فكر يسعى إلى واقع وتاريخ لهما منطق** . اللغة «تابعة» ، اختلاف اللغات ثانوي بالمقارنة مع القضية الآنفة ، ويمكن أن يخدم ـ إذا ما «جمعنا» لغات مختلفة ـ في فهمها وجلائها . إن «الاعتماد» على «سلالم» أو «سجلاّت» مفرادتية

مختلفة(*) يمكن أن يساعد على معرفة الموضوع الحقيقي بمساعدته على التحرّر من العادات والصنميّات التي تفرضها لغةٌ بعينها (كلّ لغة بلا استثناء ، فصحى أو عامية ، قومية أو محلية ، أدبية أو علمية أو شعبية أو إدارية الخ)

«وأيضاً : **ثورة**» ، انقلاب ، Revolution. يمكن القول إن موضوع هذا الكتاب هو «الثورة النيوليتية» ، أي «الحجرية ـ الجديدة» ـ مصطلح غوردون تشايلد (الماركسي غير «الأورثوذكسي» لحسن الحظ : سأعود إلى هذه النقطة) . . إنها «ثورة» استغرقت مئات السنين أو بالأصح ألوف السنين ، ويجب أن تؤخذ بمفردات أي : حدودها ، مفاهيم أوجملة أو مترابطة كل متنوع ، متباين (متخالف) ومتفاعل ، لا بمفردات السببية الميكانيكية (آ سبب ، ب نتيجة) التي توحي بها ماركسية مبسطة ، مبتذلة وماسحة : هذه «الماركسية» تُعزز بـ «التحسين» موقفاً بديهياً نابعاً من ضرورات العمل اليومي(**) والحياة اليومية ومن «الادراك السليم» بوجه عام ، اقتصادويتها وعلمويتها عطاء لسياسويّتها وإيديولوجيتها ، وهي ـ عندنا ـ تعزّز بحداثتها شيئاً قديماً في ذهننا وثقافتنا . . .

يجب أن تؤخذ الثورةُ الكبرى المعنية ، «العتبةُ» كما يردّد بريدوود Braidwood، بوصفها عملية طويلة ، غير مباشرة وغير مفاجئة ، متعددة الجوانب والعناصر ، مع انتكاسات عديدة ومتكررة لجوانب وعناصر ، سيرورة واقع وجهاد بشري ، في مسار يلقي عليه كتاب قرانا الأولى ضوءاً جديداً ، بالاستناد إلى «الوثائق» : الأدلة والشواهد من هذا البلد وهذه البلاد : فلسطين والفرات ، البلاد الدمشقية والتدمرية ، نهر الأُردن ولبنان والساحل الشمالي وطوروس الغربي . . . .

البداية معروفة ، والنهاية معروفة ، والكتاب يدرس مابينهما : المسار الشاق ، آليات التغيير ، مسيرة تكوّن الكائن الجديد : هذه مسألة نظرية في أعلى مستوى . «الثورة الريفيّة»

(*) في هذا الصدد ، يجد القارئ وجهات نظر متخالفة (عبد السلام بو منجل ، جان بول شارني ، محمد العلوي العبد اللاوي ، وكاتب هذه السطور) في ندوة «حوار الحضارات» ، مجلة الوحدة ، باريس، ديسمبر ١٩٨٤) .

(**) كل عمل إنساني ، بما أنه محدَّد ، هو عملية عزل وقَطع . بل إن العمل النظري والعلْمي يفرض هذه العمليّة (مفاهيم ! مقولات!) كمبدأ ، لكنه يجب أن يكون واعياً بالتمام . «التحسين» الذي نوّهنا عنه لا يتعدّى التأكيد على أنّ ب تردّ الفعل ، تؤثّر أو تفعل بدورها على آ . ما يلغى هو فكرة الجملة ، فكرة الدائرة ، فكرة الكائن الحيّ . حسب **كنط وهيغل** وانجلز ، في الكائن الحي ، إن كل الأشياء (العمليات ، الأعضاء الخ) هي ، بعضها لبعض ، وسيلة وغاية ! إن واحداً من أهم مفاهيم الديالكتيك هو مفهوم «الغاية الداخلية» .

تقيم الأسس النهائية لـ «الحضارة» ، لحياة الانسان ـ النوع («الانسان العاقل» «والعاقل العاقل» ؛ يمكن أيضاً «ترجمة» بـ «العالِم») ، ولتاريخه اللاحق .

أن يكون لسوريا هذا الدور الكبير ، الطليعي والريادي (وإن اختلف على حجمه بطبيعة الحال ، وعلى المسارات عبر المعمورة وإنْ كان هناك «اتفاق بين المختلفين» على عراقة العملية ذاتها في أصقاع مختلفة وتحت سماوات مختلفة . . .) الخ هذا يمكن ويجب أن يكون بالنسبة لنا ليس فقط مفخرة وطنية وقومية ، بل بالضبط **درساً** في الوطنية والقومية والعروبة والوحدة والتقدم والثورة ، أوّل الدروس . نحن نوعاً ما أوّل من بلغ سنّ الرشد . علينا الآن أن نبلغه من جديد ، في مستوى أعلى : سنّ الرشد ، ثالوث الاجتماعية والمعقولية والموضوعية ، ضد الطفولة والمراهقة ، ضدّ أنويّة أنا اللعب ولغة اللعب ، وضد البربرية والعجمية .

— II —

لهذه الأسباب ، من أجل مسألة التعليم وقضية الوعي والثقافة ، فكرّتُ بأنّ نقل هذا الكتاب ضروري وبأنْ أقوم شخصياً بهذا النقل . . . حالت دون ذلك أسباب كثيرة ، منها ـ عدا عن أحوال النشر العربي غير المشجعة للعمل الفكري والمرتبطة بالأحوال العامة . . ـ كثرة المصطلحات ، وخصوصية الميدان وتنوع الميادين الداخلة في القضية . بعد الدراسة والتجربة العملية ، يبدو لي الآن أن الصعوبة ليست متأتية من مسألة الاصطلاح العلمي مباشرة ، بل من قضية مصطلحات لغوية «عادية» تفتقد إلى مزيد من الضبط في لغتنا ، إلى الوحدة بين «الفصحى» و«العامية» ، إلى العمل الانساني ، كدح النجار والمعماري والزراع «مثقّف» الأرض . . . باختصار ، إنه غياب الوحدة : من وحدة سوق النشر إلى وحدة اللغة والمجتمع والعمل والحياة .

أما «باليوليتي» و«ميزوليتي» و«نيوليتي» ، مثلاً ، فيمكن (ويجب) أن تبقى كما هي ، مع الاشارة إلى أن :

باليو= قديم ، ميزو= وسيط ، نيو= جديد (أو حديث) ، وليتي من ليتوس= حجر ، حجريّ(*) . أما بروتو proto فهي تعني «تمهيد» أو «بداية» : «البروتو تاريخ» يقع «بين»

(*) والميكروليت : حجر صغير ، شظية ـ من الخطأ الهروب من المصطلحات الأجنبية . سابقاً ، قال العرب : فيزياء ، فلسفة ، ميتافيزياء ، جيولوجيا ، بيولوجيا ... بالطبع ، عدا ذلك ، لدينا منجم ←

ماقبل التاريخ préhistoire والتاريخ . والبروتو زراعة هي «تمهيد زراعة» ، زراعة أولى مبتدئة . وarchaique= عتيق ، سابق للكلاسيكي ، أو بالأصحّ : شيء فات أوانه ، مسبوق كلياً (كونياً ، عمومياً) في المنطقة أو في العالم (مع أنه قائم وموجود فعلياً) . . . هذه ليست «مشكلة» .

قد يكون هناك «مشكل» أمام Caprides , Caprinés الأوّل هو اسم الفصيلة (أو العائلة) ، الثاني اسم لجنس أو «تحت - فصيلة» . هذا المصطلحان الأوروبيان والعالميان يحيلان كليهما إلى الأصل Capra= العنزة ، التي تكون إذاً هي «المحور» لفظاً ، للفصيلة الكبيرة الجامعة وللجنس الذي تحتها («تحت - فصيلة») والجامع بدوره لأنواع أجد ، في القاموس الفرنسي - العربي ، وحسب ماصطلحه العرب أصحاب الميدان العلمي المعني ، «الماعزيات» عن الثانية و«الغنميات» عن الأولى . لا أفهم سبب هذه المخالفة للاتجاه في الاصطلاح التوسيعي . أتصور أن الاصطلاح العالمي له مبرراته ، وأنه كان يمكن بالتالي أن يصطلحوا بـ caprides «مواعزيات» مثلاً (أي مع واو بعد الميم) . هذا من جهة . من جهة ثانية ، جهة النص الفرنسي الذي يتعامل مع تاريخ بيئي - انساني معيّن ، أرى أن كوفان استعمل Caprides مرة واحدة وذلك في الفصل الثاني ، بين موقعي الحاشيتين ٤٥ و ٤٦ ، حيث ذُكرت بوصفها «حيوان الجبل» مقابل «حيوان السهب (غزلان ، أبقار ، خيليات)» . فيما بعد ، استعمل Caprinés (أي «تحت - الفصيلة») . هكذا مثلاً في الفصل الخامس . عند الحاشيتين ٦٨ و٧٣ ، حيث ضمّت ، وبشكل واضح ، العنزة والخروف ، الماعز والغنم (chèvre , mouton - Capra , ovis) ، والغلبة (في التأهيل) هي للطرف الأول . . . بعد تردّد ، وحدت المصطلحين (مخالفاً النص الفرنسي) ، لكن وراء العنزة ، استعملتُ في الحالتين «ماعزيات» أرجو أن أكون قد وُفقت في هذا «التصرف» .

سمحت لنفسي بمخالفة واعية ثانية . في نص الحاشيتين ٧٢و٧٣ من الفصل الرابع وجدتُ ، بدلاً من الرمزين PPNA و PPNB، «الكلاسيكيين» على امتداد الكتاب ، وجدتُ PNA و PNB - اعتبرت أننا أمام خطأ مطبعي وأن المقصود هو هنا أيضاً PPNA و PPNB (وهما اختزال بالأحرف الأولى لعبارة «Prepottery Neolithic» . . . .) ، إذن «النيوليتي السابق للفخار A» و «النيوليتي السابق للفخار B» .

← كبير في جدول مزيدات الفعل الثلاثي ومشتقاتها ... هذا المنجم يمكن ان تأخذ منه ما يلزم لشتى الميادين وأن نقيم مصطلحات العلم والعلوم ، نهائياً ، مع دفع الالتباس ، وأن نعتمد بشكل خاص الصيغ الطويلة ، وغير المألوفة . هذا عمل لأكاديمية كبيرة مدعومة بالعمل الطبيعي لعشرات الآلاف من المفكرين أو المثقفين ...

قضيةٌ من نوع آخر مسألةُ «المستطيل» :

عند بيت «rectangulaire» ، رأيت من الضروري ، إلى جانب كلمة «مستطيل» ، أن أقول «قائم الزاويا» . فمفهوم ومصطلح الـ rectangle لاعلاقة لهما بفكرة الاستطالة ، بل ينتسبان للزاوية القائمة ولمفهوم الاستقامة Rect. المستطيل ليس مستطيلاً إلاّ إزاء المربّع ، وصفياً ، وهذه الإزائية ملتبسة : و «المربع مستطيل ذو . . .» ، رياضياً ؛ وقد يكون معنا ، في نص كوفان ، بيت مستطيل بُعداه ٥ × ٥ - مازلنا ، في علمنا وتعليمنا ، ندعو ال Rectangle «مستطيلاً» ، وندعو الـ Rayon في الدائرة «نصف قطر» (بل أخيراً أدخلنا «نق» بدلاً من «ر» انسجاماً مع «نصف - قطر» !) . هذا عكس مبدأ العمل المفهومي ، الاستنتاجي ، إنه عكس التسلسل . وأشك في أن يكون الإلحاح - إذا وُجد - على أنّ نصف القطر «أهمّ» من القطر ، وأنّ «المربّع مستطيل ذو . .» ، وافياً وكافياً وشافياً . المستطيل المزعوم ليس إزاء المربع ، بل أبوه . وهو ، بوصفه مستقيمات وقوائم ، مقابل أو معارض الدائرة (الانحنائية !) ، مثلاً وبشكل خاص . هنا أيضاً فائدة قضايا جاك كوفان وقرانا الأولى ! أجدادنا ، في وقت ما وبموجب منطق ما ، انتقلوا من البيت الدائري في حفرة . . . إلى . . البيت «المستطيل» الذي يمكن من إضافة غرفة وغرف ، مع ما «يستتبعه» أمرٌ كهذا في مستوى الزمرة الاجتماعية ، العائلة الخ . . .

المقولات (المفاهيم) كينونية ، تاريخية ، مرتبطة بالعمل الانساني . الانسان يكتشفها - يخترعها . وأخيراً تكتشفها وتخترعها المعرفة النظرية في المستوى النظري - العلْمي . اللغة يخترعها . «بين المستويين ، معهما ، ومتأخرة حتماً عنهما (حتى اللغةُ الانكليزية متأخرةٌ اليوم ، كمفردات ومصطلحات ، عن سير تقدّم العلوم وثورتها) . . .

تلك مسائل يمكن أن تواجه المترجم وأن يعاني منها ليست الوحيدة ولا الأهم . بالنسبة لي ، الأصعب كان التعامل مع أسماء أدوات الشغل ومواده وأجزاء الأدوات . . . ثمة فرق واجب بين instrument و Outil . الأول ، حسب القاموس الفرنسي العادي ، أداة شغل أو آلة (ماكينة) أو جهاز يخدم في . . . ؛ الثاني «شيء مصنوع يُستخدم من أجل تنفيذ عمل **يدوي أو ميكانيكي** ، مثلاً أدوات النجار «outils» ، لنقل أداة شغل . outillage مجموع أدوات ، عدّة ، ولنقل «عتاد أدواتي» ، صوناً لطابعها المقولي المفرد ولكي نجمعها على أعتدة : جمع للمقولة outillage التي هي مجموع(*) . . . عدا ذلك ،

(*) المفرد اللغوي يؤكد الطابع المفهومي في كلمات فرنسية كـ population , outillage (= سكان شعب ، جماعة : مقولة علم الاحصاء وعلم الديموغرافيا) ، papysannerie (= الفلاحون) ، artisanart (= الحرفيون او الحرافة) الخ . هذا التصرف اللغوي يؤكد كيانية تتخطى الكائن الفرد (الجسم المفرد المرئي) ، وهي كيانية حقيقية وليست محض مجموع لكائنات (أشياء) مفردة .

ثمة وجود فعلي وعملي لهذه المفاهيم الهندسية الرياضية ، وجود يرتبط بصناعة الانسان ، شغله ، إنتاجه . يرى بعض الكتّاب : أن الانتقال من البيت المستدير إلى المستطيل ومن المنحني إلى المستقيم يرتبط بانتقال السلطة من المرأة إلى الرجل . . نظرياً : الدائرة مثالية الانحناء ، المنحني المثالي . وهذا يقابله (يعارضه) الخط المستقيم . إنهما على طرفي نقيض ، في المملكة المثالية الفكرية . السومريون اخترعوا الدولاب (أو «العجلة») : العجلات تدور ، السيارة تتقدّم . وهكذا الصناعة الحديثة، الثورة الصناعية: دوران ← تقدم . وهكذا ماركس مع الاقتصاد السياسي ، مثلاً دورة المال كرأسمال: مال ـ سلعة ـ مال أكبر (مع «فضل»)، دورة «المال ـ الرأسمال» ، هي نموّ ، ثمة نفي للنفي . في القرن الخامس عشر ، أعلن نقولا دوكوزا وحدة الانحناء والاستقامة . إذا رسمت خطاً «مستقيماً» لكن مع انحراف بدرجة صغيرة جداً وثابتة ولتكن ٠,٠١ درجة ستكمل في اللانهاية . هنا ، في الواقع ومنطقه ومنطق التقدّم (واللغة يجب أن تتبع ، بوعي ومسؤولية) ، مسألة تجريد ، عزل ، مسارٌ من عمومية وتحدُّد وتخصّص الخ بالنسبة لِ erminette (أو herminette) مثلاً ، تقول القواميس الفرنسية ـ العربية : قَاقمة . . . ، بُلَيْطة . . ، فأس النجار ، قدّوم . . اعتمدت مبدئياً المصطلح «الأبعد» عن استعمالنا : قاقمة . واعتمدت لِ hache: فأس ، لكنها أيضاً بلطة (لعل البلطة ، فكرة البلطة ، هي الواقع الأقدم) . في أدوات الأثاث «المنزلي»(*) ، «المشكلة» أكبر ربّما : قواميسنا الفرنسية ـ العربية تعتمد أكثر من «مرادفٍ» أو عدّة «موازيات» ، لمصطلح فرنسي واحد . . هناك قاموس مصطلحات آثارية قديم ولم يفدْني عملياً . . . اعتمدت «غضار» Argile، «طين» terre، «غضار مكمَّل» argile rapportée؛ «آجر» briques، «خزف» ceramique (الكلمة الفرنسية شاملة ، واسعة الدائرة) و«فخار» لِ poterie. . . اعتمدت «سهم» لِ flèche (مستبعداً سواها) و«رأس سهم» لِ pointe de flèche؛ و«تمثال شخصي» أو «شخص» و«شخوص» لِ figurine (كان يمكن أن أقول «دمية») . . . بذلت مجهوداً غير قليل ، وإني أتوجه بالشكر لجميع الذين ساعدوني فيه ، معلناً أن كل نقاط «عدم توفيقي» تقع مسؤوليتها عليّ وحدي بطبيعة الحال .

— III —

علماً بأن مشروعنا لم يكن ، بادئ بدء ، ترجمة الكتاب بل إعداد ندوة عنه : ففي

(*) mobilier (= متحرّك ، قابل للنقل ، مبدئياً) . وهو أثاث نافع ، وظيفيّ ، يلبّي حاجة عملية وحياتية . ليس زينة حضارية ملتبسة في أيامنا .

يوم من ربيع هذا العام ١٩٨٥ ، بلغني أن الكتاب قد تُرجم أخيراً ، وجدناه في إحدى المكتبات (طبعة جيّدة جداً ، عند النظرة الأولى على الأقل ، فاخرة ، غالية الثمن)(*) ، وقررنا عقد ندوة أو عدة ندوات من أجل دراسته وتناول بعض القضايا النظرية التي يثيرها : نفر من «الشباب» المهتمين ، اثنان من الآثاريين في مدينتنا (اللاذقية) ، وربّما ندعو الأستاذ المترجم (الأستاذ : قاسم طوير) الذي هو من المختصين . وبدأنا الدراسة الجادة تمهيداً للندوة . لكن ماإنْ بدأنا حتى دهشنا . كان الكتاب الفرنسي في يدي ، وأردت التأكد من فهمي لجملة وردت في مقدمة بريدوود الانكليزية أو من شيء ما كان بنظرنا مسألة وقضية ، فلجأت إلى صديقي حامل النسخة العربية ، وكان هو نفسه يريد التأكد من أشياء كثيرة . . . وأصابنا الذهول .

أغلقنا الكتاب . ونظرنا إلى الغلاف . العنوان العربي يقول : «**الوحدة الحضارية في بلاد الشام بين الألف التاسع والألف الثامن قبل الميلاد**» إذاً ، «من الألف التاسع إلى الألف **السابع** صارت «بين الألف التاسع والألف **الثامن**»(**) . وهذا غير ممكن ، منطقياً ورياضياً (**بين** «التاسع» و «الثامن» لايوجد سوى العدم) وبالتالي لغوياً وعربياً . أما «التعويض» المعاكس الذي جعل «الألف العاشر» «الألف التاسع» في السطر الأوّل من نص كوفان (ص ٧ ، في ترجمة قاسم طوير) **فهو** خطأ آخر . . . وتساءلت : ألا يستعمل الألمان الأرقام الرومانية ؟ (فالأستاذ طوير خريج جامعة همبولدت) هل من المعقول أن يجهل مثقف VII و VIII و IX ؟

هكذا انسقنا ، مجبرين ، إلى عملية مطابقة بين النصين العربي والفرنسي ، أي بين «التعريب» والأصل ، صفحة صفحة ، جملة جملة . صارت هذه العملية ، دونما إرادة ثم بوعي وإرادة ، ترجمة جديدة للكتاب .

في هذه الترجمة ، التي لاتدّعي الكمال ، السابع لايصير ثامناً ولاالعاشر تاسعاً : لاسيما وأننا في علم تاريخي ؛ والخنازير لاتصير قروداً (ص٣٠ في ترجمة طوير) ، فـ sanglier غير singe، رغم اشتراكهما في حروف كثيرة ، ـ حتى ولاسيما في «علم

(*) دار المجد ، دمشق ، ١٩٨٤ (١٨٢ صفحة ، السعر ٥٠ ل.س) .

(**) «الوحدة الحضارية» تعزيز نافل . يكفي أن أقول «بلاد الشام» أو (بالفرنسية) «سورية ـ فلسطين» حتى أكون أشرت الى وحدة ، الى كيان ، قبضت على مقولة ، أعطيتُ اسماً . تضييع «القرى الأولى» خسارة فادحة ، طيران «حضاري».

«بَيْن» = تَسيُّب الخ . أما الألف الثامن بدلاً من الألف السابع **فهو** ... محال .

الآثار» وفي بلادنا ؛ و«الارتفاعُ عن خط الاستواء» أي الدرجةُ على خطوط العرض (بالفرنسية latitude وهي غير altitude) لاتصير «ارتفاعاً عن مستوى سطح البحر» (ص ١٠٣، ترجمة طوير) ، فهذه النقطة ذات صلة وثيقة بمسألة النبات (سياق القضية) ، «الفقرات» ، «الفقرات المحصول عليها بواسطة الغربال أو المنخل» لاتصير عدداً من «الهياكل العظمية» للأسماك (ص ٩٨) ، فهذه النقطة تدخل في اختصاص البحث الآثاري ، ربّما (أنا خارج الميدان - لكن «لغوياً» هذا غير صحيح) ؛ الخ الخ .

هنا ، العالم الشهير لوروا - غورهان (أندره لوروا - غورهان) ، عالم الأنتنولوجيا والأنتروبولوجيا وماقبل التاريخ ، لايصير الباحثة الاثارية ، المعروفة في سورية ، «السيدة أرليت لوروا غورهان» (ص١١١) ، الفصل بين الاثنين يراعى في جميع الأماكن ، ولانستغني عن لائحة المراجع التي لها فائدة أنْ تدرأ التباسات كهذه : الأول اسمه يبدأ بحرف A، والثاني أو الثانية يبدأ اسمها بـ Arl، وهذا فرق يُفرق ، ولاشيء عبث ، وهما في اللائحة نوعان من التأليف مختلفان تماماً(*) . لكن فائدة اللائحة أكبر من ذلك ، وضرورة نقلها تنبع من الإحالات - الحواشي في متن الكتاب ، وعددها بالمئات (في كتاب طوير أيضاً) ، وهي جميعاً تكتفي بذكر اسم صاحب المؤلَّف - المرجع وسنة صدور مؤلَّفه ، تاركة عنوان الكتاب أو البحث والمعلومات الأخرى (دار النشر ، أو المجلة المختصة . . .) للائحة المراجع الماثلة في نهاية الطبعة الفرنسية لكتاب كوفان والغائبة عن طوير ! ! كذلك ، لانستغني ، من جهتنا ، عن جداول ضرورية(**) ، عن شروح الصور ، عن أقسام من الحواشي - الإحالات(***) . وهنا ، في بعض هذه الحواشي ، إذا قال الفرنسيّ إن التأريخ بالكربون ١٤ أعطى تاريخين هما كذا وكذا ، لانحوّل الكلام إلى : أعطى تواريخ تتراوح بين كذا وكذا . فقد يكون هذا التحويل بعيداً عن «علم الآثار» ، وهو على كل حال بعيد عن اللغة ومخالف للأصل ، وفي بعض الحالات غير ممكن بتاتاً : قد يكون حاصل العمل التأريخي أو التحديدي بالكربون ١٤ تاريخاً واحداً ، أو تاريخين كذا وكيت لكن الثاني

(*) مؤلفات الأول عناوينها : الانسان والمادة ؛ البيئة والتقنيات ؛أديان ما قبل التاريخ . الثانية لها بحثان في دراسة غبار الطلع في سوريا شبه الصحراوية وفي شانيدار وزاوي شيمي ، صدرا في مجلتين . يبدو الأمر وكأن الاستاذ طوير حظي بالتعرّف على الباحثة أرليت . أجل ، إن التعرّف على الناس مفيد . لكن القراءة ضرورية ، ومعرفة بعض أساسيات العلْم والثقافة ضرورية . على كل حال لا بدّ من شكره على المعلومة : «Arl» هي Arletta .

(**) جدولان زمنيان أساسيان في نهاية الكتاب .

(***) طوير يستغني ، وبلا أي حرج . الناتج : محال ، لا فهم ، لا قيمة ...

بعيد جداً عن الأوّل ومرفوض لمخالفته بعض المعايير : هذا مانفهمه من كتاب كوفان ، بل - أحياناً - في ترجمة طوير أيضاً . لذلك يجب الاستغناء عن «التصرف» الآنف : هذه الـ «بَيْن» قاتلة ! . . . لقد خرّبت أيضاً عنوان الفصل الرابع (ص٦١) : «بين نهاية الألف الثامن والألف السابع ق .م» خربشة رياضيات وتاريخ ولغة . مرّة أخرى : بين الثامن والسابع لايوجد أحد أو شيء .

هنا ، في ترجمتنا ، «الثقافة» culture لاتتحول إلى «الفكر» ، «العتبات» لاتتحوّل إلى «مؤشرات» ، «التياران الفكريان الرئيسيان» لايتحولان إلى «مبدأين جاريين» ، «النظرية» لاتصير «الفرضية» ولا العكس الخ الخ . هذا ، ومثله كثير ، كأنه انحياز من جانب طوير ، لكنني لاأفهمه . Culture كلمة ألمانية أيضاً (Kultur) وترجمتها «ثقافة» وربّما «حضارة» . أجل courant، كصفة هي ، في عبارة L'eau courant، «الماء الجاري» في مطابخنا أو في غرف الطلبة الأجانب في باريس وغيرها ، لكنها كموصوف : تيّار ، تيار ماء أو فكر أو كهرباء أو إلهام الخ . . .

هنا ، في ترجمتنا نصون العناوين . مثلاً عنوان الفصل الثالث «تطوّر العمارة : من النطوفي حتى منتصف الألف الثامن ق .م» لايصير «ارتقاء العمارة النطوفية في منتصف الألف الثامن قبل الميلاد» (طوير ، ٣٣) . أجل هنا «أفهم» جيّداً ! فالعنوان الفرنسي يقول : «L'evolution architecturale: du natoufien au milieu du 8^{e} - mill» مع تكبير جميع الحروف بوصفه عنواناً . ١) - طوير حوّل كلمتي البداية من «موصوف وصفة» إلى «مضاف ومضاف إليه» ، وهذا ممكن وصحيح . ٢) - طوير استغنى عن النقطتين الفاصلتين ، هذا ممكن بشرط بقائهما في الرأس ، والأفضل (إذا كان البقاء المذكور صعباً) عدم الاستغناء عنهما . ٣) - إن du أو de يمكن أن تكون ، في استعمال لغوي مهم ، أداة الاضافة وحسب كما في قولنا بالفرنسية le livre du maitre (كتاب المعلم) ، لكن : ليس هنا . ويمكن أحياناً تحويل «المضاف والمضاف إليه» إلى «موصوف وصفة» ، هنا . هنا ، de، du هي حرف الجرّ «من» . ٤) - كذلك ، إن au يمكن أن تكون «في» ، يمكن أن يكون معي : «في منتصف . . .» . لكن : ليس هنا . هنا ، a، au هي حرف الجرّ «إلى» ، «حتى» . ٥) - natoufien مذّكر بينما الموصوفان évolution و architecture (تطور ، و ، عمارة) هما كلاهما في الفرنسية مؤنّث . لايمكن أن تكون matoufien صفةً للمضاف ولا للمضاف إليه في «تطور العمارة» باللغة الفرنسية . فمؤنث الصفة المذكورة هو matoufienne شأنها شأن مئات الكلمات (صفات واسماء) التي تنتهي بـ ien في المذكر . ٦) من جهة أخرى ، طوير لم يستلهم اللغة الألمانية ولم يقرأ

فهرس المواد (cauvin، ص١٦١) . فبخلاف العنوان كما ورد في بداية الفصل (cauvin، ص ٢٢) ، حيث كل الحروف بلا استثناء كتبت بحرف طباعي كبير (لكن حيث العنوان وزّع إخراجياً على ثلاثة سطور ، ينتهي الأول بالنقطتين ، ويختص الثاني بزمن البداية : «من النطوفي» ، والثالث بزمن النهاية : «حتى منتصف الألف الثامن») ، هنا في الفهرس جاءت الحروف عادية جميعاً ماعدا حرف N (في Natoufien) الذي شذّ وكُتب كبيراً . وبالألمانية ، في الكتابة الألمانية الاسم الموصوف يبدأ دائماً بحرف كبير ، بعكس الصفة التي تبدأ دائماً بحرف صغير . «إذن» (!) ، لو «استلهم» طوير هذه النقطة لكان (ربّما) أدرك أن Natoufien هذه ليست صفة لعمارة أو لارتقاء بل هي نفسها قد ارتقت وصارت هنا اسماً موصوفاً هو «النطوفي» بمعنى «العصر النطوفي» . واضح أنه لم يستلهم ولم يقرأ الفهرس : أليست هذه القراءة نافلة ؟ وهكذا فقد أعطانا عنواناً يقول «ارتقاء العمارة النطوفية في منتصف الألف الثامن» (طوير ، ص٣٣) وهذا يوقعنا في خطأ من نوع آخر ، خطأ تاريخي وتأريخي ، خطأ في التحقيب . طوير لم يتساءل متى ينتهي العصر النطوفي (أو كما يقول الألمان : الحالة ، الشيء بأكبر معنى Sache) . لعله ينتهي قبل منتصف الألف الثامن ، قبل سنة ٧٥٠٠ ق .م . بالضبط ، هذا مانفهمه من النص مراراً ، حتى في ترجمة طوير : النطوفي ينتهي حوالي سنة ٨٣٠٠ ق .م ، الفرق ٨٠٠ سنة ، يجب تعلم حروف الجرّ ، والمحافظة على النقطتين (:) بوضعهما قطعاً فاصلاً في «صميم» العنوان . . . .

هنا ، في ترجمتنا ، الاحتمال لايصير يقيناً ، كذلك النفي لايصير تأكيداً ولا التأكيد نفياً ، صيغ الماضي لاتتحوّل إلى حاضر أو مستقبل ولا العكس ، عبارات الربط بين جملة وجملة تبقى كما هي(•) . . . وإذا ما قرأ القارئ الصفحة الأولى من نص كوفان ، فهم بسهولة أن هناك بداية وهناك مآلاً أو نقطة وصول وأنّ بينهما مساراً هو موضوع الكتاب ومسألته : لكن ليس الأمر كذلك في نص طوير (ص٧) . وإذا ماقرأ مقدمة بريدوود ، أدرك مباشرة أن هناك منطقتين اثنتين في «آسيا الجنوبية الغربية» ، من وجهة نظر «موضوعنا» ، هما تحديداً منطقة بلاد الشام ـ ميدان كوفان ـ ومنطقة «طوروس الشرقي وزاغروس» (ميدان بريدوود وآخرين) . طوير قال ذلك ، لكنه أيضاً قال خلافه وعكسه ، والنتيجة «تعادل» . لقد أحلّ «شعوب بلاد الشام» محلّ «آسيا الجنوبية الغربية» (ص٥) ، وتكلم عن «منطقتي طوروس وزاغروس» (ص٦) ، فضاع المعنى وتاه الذهن في هذه

(•) بخلاف ترجمة طوير ، كقاعدة عامة ، في جميع النقاط المذكورة ...

الجغرافية الآثارية ، النسبية تماماً ، لكن ـ ربّما ! ؟ الأسلوبية والأمجادية . كذلك مصطلح «بلاد الشام» ، في أماكن متنوعة من كتاب طوير : يمكن أن تكون «بلاد الشام» ، «LA SYRIE - PALESTINE» ، وهذا صحيح ومبرر ، لكن يمكن أن تكون أيضاً «SYRIA» وحسْب ، وهذا مُحال في نصّ كوفان . ومحالٌ أيضاً كلام من نوع قوله «وفي علم ماقبل التاريخ لمنطقتي بلاد الشام والمشرق» (ص١١٢) : هذا غير ممكن وبجميع المعاني الممكنة . إذا كان المشرق هو LEVANT فهو بشكل أخص بلاد الشام . وإذا وسّعنا المعنى (فهذا من حقّنا) كيفما شئنا تبقى بلاد الشام جزءاً مركزياً من «المشرق» . لايمكن أن تكون هنالك **منطقتان** هما بلاد الشام والمشرق . . وعند الرجوع إلى الأصل ، يتبين أن كوفان قال : «منطقة الشرق الأدنى» . . لاشام ولامشرق ولامنطقتين .

هنا ، في ترجمتنا ، «الثورة النيوليتية» لاتصير «ثورة العصر الحجري» (ص ،٧ وهي الأولى في نص كوفان) ولا «الثورة الحجرية» (ص٨ ، مراراً) : فهذا مُحال . كلها حجرية : النيوليتي (الحجري الجديد) والميزوليتي (الحجري الوسيط) والباليوليتي (الحجري القديم) القديم جداً ، الطويل جداً جداً (مئات الألوف من السنين(•)) . كلّها «حجرية» ! كلّها ، وأقسام كلّ منها ، «حجرية» وفي «العصر الحجري» . وإذا ماقرأ القارئ في كتاب طوير :«ولقد أمكننا الأخذ بمفهوم تلك **الثورة الحجرية** عندما أظهر الأثريون خلال تنقيباتهم في **بلاد الشام** كافة الابتكارات التي أحدثها **العصر الحجري** بصورة **متزامنة** فعلياً» (ص٨) ، عليه أن يجهد وأن يجاهد ، عبر هذه الصفحة نفسها ، وعبر الصفحات الفاتحة ، العربية اللسان والفصاحة ، وعبر هذا الكتاب «العربي» كله ، لكي يدرك أن الأمر لابدّ أن يكون غير ذلك تماماً ، في الأصل الفرنسي : علماء الآثار الأوروبيون أدركوا الثورة النيوليتية بوصفها جملة تحوّلات واختراعات متواقتة فعلاً . هذا «**في بلادهم**» ، أما التنقيبات في بلاد الشام فقد كشفت خلاف ذلك : البيوت والقرى (الاستقرار الحضري ، التجمعات السكنية) سبقت الزراعة ، والزراعةُ بالمعنى الواسع (عناية متنوعة بالأرض ومحاصيلها الطبيعية) سبقت الزراعة بحصر المعنى (الزراعة بالمعنى الضيّق أو الوثيق ، مع فعل الزرع أو **الغرس** كمحور) ؛ وكذلك تربية الحيوان : أولاً نوع من منادمة أو مزاوجة ، ثم السيطرة أو التحكم ، التربية والرعاية . . . إنّ «الثورة» جملة ، وهي ، هنا ـ في المصدر

(•) الباليوليتي ينقسم بشكل أوّلي الى أدنى (يمتد على جليديات و «ما بين جليديات») ثم أوسط ثم أعلى. بعد ذلك ، يأتي الميزوليتي ثم النيوليتي .... ـ من غير الممكن أن نحدد في نص طوير أيّهما أوهى عنده المقولات التاريخية أم الجغرافية ؟ المقولات قَطْعات ، فَصْلات . وهي هنا (زمان ، مكان) في شكلها الأبسط . هذا بعيد عن «المعرّب» .

(بلاد الشام) ـ لم تظهر جاهزة من البداية «تامة التسليح» . هذا ، لعمري ، هو الجديد في الكتاب ، من الناحية النظرية العامة ، أو هو بالأصح قسم هامّ من جديد الكتاب : وإنه ركيزةُ المسألةِ التي يعالجها كوفان (نظام سير وترتيب الأمور ، تعليل المسار ، آلية التغير والتكوّن) . أجل ، هذا **يمكن ان** يجده القارئ عند طوير ، لكن يمكن أن يجد «خلافه» أيضاً . أخطاء لغوية ، أخطاء من نوع آخر ، «تصرفات» بالجملة والمفرق لامبرر لها ، شطح ذاتي من أجل ملء فجوات القراءة ، تضييعٌ لمعانٍ وشطب على مصطلحات ، استعاضة عن الضبط والدقة بالعبارة «الأدبية»(؟) الخ : القضية تضيع . . .

من العبث المتابعة . يستطيع القارئ ، إذا شاء ، أن ينشئ مطابقة بين ترجمتنا (الحرفية ، إن صح القول) وتعريب طوير ، على الفصل الأول مثلاً ، وهو أقصر الفصول (ص ٧ ـ ١٥ في ترجمة طوير) . هذا الفصل يتألف من ٢٦ مقطعاً . إن نظرة أخيرة على هذه **المقاطع**(*) ، في النسخة العربية كما صحّحتُها ، وهي أمامي ، تكشف لي أن طوير أخطأ أخطاء غير قليلة في نيف وعشرين منها . . .

ليس كافياً أن يكون الأستاذ قاسم طوير «خريج جامعة همبرلدت بألمانيا الديمقراطية بدرجة ماجستير في الآثار الاسلامية وتاريخ الفن» أو ليس كافياً إنْ كان ويكون «محاضراً في جامعة دمشق ، وفي جامعة لوس أنجلوس بكاليفورنيا ، أو محاضراً متجولاً في جامعات نيويورك ، ييل ، أوهايو ، أريزونا ، سان دييغو ، فيلادلفيا ، هاواي ، مونريال ، تورونتو ، الرياض ، وروما ، وصاحب أبحاث في المجلات العلمية الاختصاصية في سورية وألمانيا الاتحادية وألمانيا الديمقراطية وبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة» (ص١٨٠) ، وصاحب ١٢ تعريباً لكتب في الآثار (مذكورة بأسمائها ، ص١٨١) الخ ، لكي يترجم كتاب «القرى الأولى في بلاد الشام» . ليس كافياً ولاضرورياً ! إن ترجمة كتاب جاك كوفان تحتاج إلى معرفة اللغة الفرنسية ، وإلى بضعة أمور أخرى ، بينها أمر أوّلي يجعلك ـ على سبيل المثال ـ ، إذا ماترجمت SANGLIERS بقرود وإذا مااكتشفت ، بعد صفحات كثيرة من ذلك ، في موقع تالٍ (طوير ، ص١٤١) ، أنها «خنازير بريّة» ، ـ تعود وتبحث عن خطئك بقصد تصحيحه . هذا مالايفعله طوير لسوء الحظ . لعلّه لم يقرأ ماكتب : القراءة ليست تجوّلاً ، الذهاب إلى تورنتو وهاواي لايفيد ، الأفضل منه قراءة فيلسوف

(*) أخطاء طوير الرئيسية ليست في مفردات عادية او مصطلحات علمية من الصعب إحصاؤها . انها في الجمل ، في المقاطع ، في الاستغناء عن مفاهيم مركزية ، في التسييب «الأدبي» العام . مع ذلك بصدد إشكاليةٍ توقّفنا عندها ، لا بأس من الاشارة الى أن الخيليات والأيْليات والبقريات الخ تتحوّل عند طوير ، بكل راحة ، الى خيول وأيائل وأبقار . إن لغة طوير تلغي المنطق (العمودية ، التراتب) ، والمكان ، والزمان.

كونجسبرغ ، كتاب «نقد العقل العملي» ، مبدأ الضمير . . . ذكرتُ فيلسوف كونجسبرغ أي عمانويل كنط . لعل الأفضل أيضاً فون همبولدت ، فلهلم فون همبولدت وشقيقه ألكسندر فون همبولدت . إنهما من عصر كنط وهيغل ، من بناة الضمير والقانون والانضباط . لم يكونا من الأنبياء ، ولم يتصورا أن الجامعة التي ستحمل اسمهما سوف . .

أعترف بأنني أقاوم ـ هنا ـ إغواء كبيراً . لقد فكرت دائماً إن الترجمة ـ أقصد معظم الترجمات في ساحتنا ـ تحمل ، بوصفها تعريبات جاهلة وجاهلية ، مسؤولية لابأس بها في تدهور الوعي العربي كعقل وكثقافة . . . هل أفتح هذا الملفّ هنا ، هل أعالج القضية على هذا الكتاب ؟ إذا كان لي أن أقوم بمطابقة التعريب والأصل ، على ثلاثة أعمدة متوازية ، أولها للنص الفرنسي ، الثاني لنص طوير ، الثالث لما أعتبرُ أنه الصواب والأمانة ، وذلك بدون أي تعليق أو شرح ، عندئذ سيكون أمام القارئ ، بعد التساهل ، كتاب بحجم هذا الكتاب . الذي بين يديه ، على الأقلّ . أما إذا كان لي أن أشرح أيضاً ، أن أعلل ، وأن أبسط أبعاد كل خطأ ومفاعيله الطبيعية على القارئ العربي ، عندئذ يكون العمل أكبر حجماً بكثير . هذا إغواء . لكنه أيضاً قضية . قد «يقع» في الإغواء آخرون . من جهتي ، إن «الامتياز» الذي يُمنح هكذا لصاحب التعريب المعني يكون إجحافاً بحقه وبحق القارئ . ليس الأستاذ طوير وحيداً في نوعه . والذين هم أفضل منه أجدر بالنقد وأخطر على القارئ (إنهم بخلافه «يعرفون» اللغة الفرنسية أو الانكليزية وبعض تقنيات العمل السريع) . يثبتون على «مناقضات للمعنى» هي ذاتيات جهلية قديمة عندهم (يجهلون جهلهم) ، يستغنون عن عبارات أو جمل لم يفهموها ، يعوّضون عن الفجوات بمعارفهم أو خيالهم ، يحوّلون الأمور نحو السهولة والسلاسة والخفة ، يقلصون «المادة» إلى نصف ماهي عليه ويُصنعّون «العقل» . وقد ينالون الاستحسان على رشاقة الأسلوب . . . لحسن الحظ ، عندنا وزارة ثقافة وترجمات جيدة صدرت عنها ورجال مؤمنون بالعمل والمسؤولية . ثم ، أنْ يرتكب فلان هذا الخطأ المحدّد أو ذاك فالأمر ليس مهماً وهو قابل للاصلاح ، والقضية كلها قابلة للتحسين الدائم . . . . فيما إذا توفر لنا موقف «التناصت» ووسائله . فالقضية هي ، أولاً وأخيراً ، قضية الفكر العربي والوعي العربي ، قضية الشعب والأمة والوحدة .

ثم ، لندع طوير والترجمة . ولننظر في شيء أجدى ، الآن .

— IV —

ليس وارداً ، بالطبع ، أن أعرض كتاب كوفان ، أن أقدم ملخصاً عنه (رغم فائدة ذلك) ، فالكتاب بين يدي القارئ ، لكنني أريد التوقف عند جانب مهمّ فيه ، عند ما / يمكن أن أدعوه قضية كوفان والماركسية ؛ أريد إلقاء ؛ نظرة على الماركسية في ضوء «القرى الأولى في بلاد الشام» .

من وجهة نظر ماركسية مبتذلة ، مازالت سائدة في بلادنا (بل هي أقوى عند الماركسيين الجدد منها عند الجيل القديم) ، يكون كتاب كوفان كتاباً مثالياً ، يضع الفكر قبل المادّة ، والايديولوجيا أو الدين والفن الخ قبل شروط الحياة المادية ، والبنية الفوقية قبل التحتية ، وهلمجرا . مرّة أخرى ، لابدّ لي من إدانة هذا الابتذال «المادي» في جميع حيثياته ، بدءاً من مقولاته اللغوية ومن خلطه الذي لايقف عند حدّ . في الجيل «الماركسي»الجديد ، أو العجيب ، تضاعفت «المادية» كما تضاعفت الذاتوية الثورية أي المثالية أو الارادوية ، معاً بالتلازم . وظيفة الأولى تمرير الثانية أو«تأمينها» . «الجسر» الواصل بينهما هو «الطبقة العاملة» المزعومة (أو «الكادحون») أي فعلياً «نحن» ، «الحزب» ، «منظمة كذا» و«حلفاؤها»(*) . . . . .

كمثال عن الاختلاط النظري ، يمكن القول أن «ماركسيين» كثيرين يتصوّرون أن شروط حياة المجتمع المادية أو «الشروط **المادية** لحياة المجتمع» هي شيءٌ كـ «**المادة**» من نوع «المادة» ، المفهوم «الفلسفي» أو «الفيزيائي» لافرق ، بتعبير آخر : «**الكينونة** الاجتماعية» ، «**نمط** الانتاج» أو «**أسلوب** الانتاج» Mode، «**علاقات** الانتاج» relations أو rapports، **خبرة** الانتاج و **عادات** الشغل ، الشغل نفسه الخ ، هذا كله يكون كـ «المادة» ، من نوعها وأصلها ، خارجاً متحدّراً منها . عند ستالين نفسه ، الذي لايمكن أن يذهبَ هذا «المذهبَ» تماماً وإلى النهاية ، والذي وضع علامة التشديد على الكلمات الآنفة بوصفها عناوين أو مفاتيح ، تبدو العلاقة بين «الشروط المادية لحياة المجتمع» و«حياة المجتمع الروحية» ، بين «نمط الانتاج» و«الوعي الاجتماعي» ، بين «علاقات الانتاج» و«البنية

(*) اذاً ، «الجسر» مقولة «مادية» جداً ، لكن «في الرأس» . ـ إن الذاتويّة تفرض حطّ الواقع الى «مادّة» جاهزة للملاعبة او التحريك ، وهي في أحسن حال تفرض حطّ الواقع الى «آلة» ملكت الذات قوانينها وجعلت عملها السياسي تطبيقاً للقوانين ، المزعومة . الفلسفة الماركسية تكفّ عن كونها طريقة من أجل رؤية واقع ، حالة ، جملة مفردة ، شيء جديد لم يُقَلْ من قَبْل .

الفوقية» ، **مستنتجة** من العلاقة مادة ـ وعي ، طبيعة ـ روح ، كينونة ـ فكر ، المجرّدة الخالصة الصافية والتي يمكن تلخيصها في الصيغة الأولى : مادّة ـ وعي ، أوّلية المادّة على الوعي (أو الفكر أو الروح) . ستالين يعلن من بداية كتابه (**المادية الجدلية والمادية التاريخية** ، ١٩٣٨) إن «المادية التاريخية» هي «**تطبيق**» لـ «المادية الجدلية»(*) ! وهذا محال . فمن وجهة نظر «مادية» ستالين «الفلسفية» ، لايمكن الحديث عن فكر ووعي و روح ، بدون المجتمع وخارجه و«الفكر الاجتماعي» و«حياة المجتمع الروحية» . . . ليس ثمة أيّ كيان ممكن للمقولات الثلاث المجرّدة ـ «الفكر» ، «الروح» ، «الوعي» ـ (وبالتالي لاوجود لعلاقة تكون لها مع مقابلاتها «المادية» المجرّدة) ، خارج «المجتمع الانساني» ، بدونه ، قَبْله ، بصورة مستقلة ومسبقة . العلاقة مادّة ـ فكر ، طبيعة ـ روح ، التي هي قضيةُ «المادية الجدلية» بوصفها «المادية» و «المادية الفلسفية» ، هي تابعة اذنْ لتطبيقها المزعوم . «المادية الجدلية» تابعة هي الأخرى ، وبوصفها مادية ، لِـ «المادية التاريخية» . وإلاّ تحوّل الاثنان المجرّدان ـ مادة وفكر ، كينونة ووعي ـ إلى إلهين ، أوّلٍ وثانٍ . هذا هو التناقض الكبير في مجمل عرض ستالين ، «المادية الجدلية والمادية التاريخية» : انبثاق الثانية من الأولى مستحيل «بحكم التعريف»(**) . . .

هذا أبعدنا بعض الشيء عن كتاب كوفان ، لكنه كان ضرورياً من أجل مايلي .

إن قراءة متأنية ، بل إن قراءة طبيعية ، غير مؤدلجة ، تجعلني أعتقد أن كتاب كوفان

(*) ثم ، عند المفصلة الناقلة من «المادية الجدلية» الى «المادية التاريخية» ، يُعْلن ستالين الاستنتاج المذكور : بما أن الفكر نتاج المادّة لذلك فحياة المجتمع الروحية هي نتاج حياة المجتمع المادية . وهذا هو اللاّ معنى.

(**) بحكم العنوان «الجدلية ، التاريخية» (الانسان كمجتمع وكتاريخ) ، غير «المادية المبتذلة» ، أو «الميكانيكية» والفيزيولوجية والفيزيائية الخ ، التي تستطيع هي أن تقول ، خارج الاجتماع والتاريخ والشغل والانتاج الخ ، «المادة تنتج الوعي» ، وأن تقول «المخ يُفرز الفكر مثلما الكبد يُفرز الصفراء» ، و«الفكر مادّة»، أو «الفكر غير موجود» ، الخ . وهذا كله لا يمكن أن يقول به ستالين . إنه لا يقع فيه بتاتاً . لكن هذا معناه : فكرة «التطبيق» خاطئة ، باطلة ، وكذلك كل ما يترتّب عليها . وإن زعم ستالين انه يشتق علاقة «المادية التاريخية» من علاقة «المادية الفلسفية» ، إنه يشتق علاقة قائمة ضمن «المجتمع» من علاقة قائمة ضمن «الطبيعة ، زعم باطل بالأساس وبالتمام . من بداية كتابه ، ستالين ألغى فكرة الواقع ، أحل محلها أقنوقي الطبيعة والمجتمع ، ألغى ثلاثية الفكر والواقع والعمل ، تعامل مع الأشياء من حولنا وكأنها «طبيعة» (!!) ، في حين أن الأشياء من حولنا ، في حين أن الكراسي والطاولات والشوارع والبيوت والمدن والحقول والأنواع الحية الخ الخ هي جميعاً منتوجات الشغل البشري ، هي جميعاً أهداف توضعت ، أهداف صارت أغراضاً مادية . ستالين ألغى مقولات الفعل ، العمل ، الشغل ، أي المقولات البسيطة والحاسمة .

ليس «مثالياً» أو أن ماركس نفسه (وكل ذي عقل) مثاليّ ! وتبقى المسألة والمسائل .

عند ماركس ، إن **الفكر** ، الذي هو انعكاس وصورة (انعكاس من نوع خاص) ، هو أيضاً استباق Anticipation. هذه الصفة تدخل في «تعريفه» ، ولذلك ، هو جزء أو تعيين في **العمل** الانساني ، ويؤدي دور إرشاد وقيادة . بالأساس ، هنا «تقع» الفكرة المتنوعة المعبّر عنها بالمفردات الآتية : صورة ، شكل ، فكرة ، «مثال» ، «ايدوس» اليونانية . . . و«مثل أعلى» . [«**لذلك**» ، توجد «مثالية فلسفية» و«مثالية أخلاقية» ، يتكلم عنهما جورج بوليتزر (في كتابه «**مبادئ الفلسفة الماركسية**») ، **لكن لكي يميزهما ويفصلهما معارضاً الأولى ومؤيداً الثانية ، أي مبرراً كون الماركسيين «ماديين» وحَمَلَة «مثل عليا» في وقت واحد ؛ إلاّ أنه لم يبرّر تسمية الاثنتين «مثالية»** IDÉALISME، **وهو موصوف واحد (مذهب مثالي ، موقف مثالي) . هل تكون هذه التسمية الواحدة (مثالية** فلسفية ، **مثالية** أخلاقية) أكذوبة عامة وتامّة ، برجوازية ومثالية ؟ في الحاصل ، يمكن القول إن بوليتزر «مثالي أخلاقي» حامل لـِ «مثل عليا» أو لـِ «مثل أعلى» ، باسم «العمل» الهادف ، المشروع الثوري . لكن إذا رُدّت **للعمل** مكانته في **المذهب** الفلسفي ، وجب القول إن بوليتزر «مثاليّ أخلاقي» **لأنه** حاملٌ لـِ «مثال» أو «فكرة» idee أو صورة أو مفهوم الخ أو تصوّر مُرْشِد[*] . لنذكر ، من جهة أخرى وبالمقابل ، بأن بوليتزر **(في مقاله** الخطير الأهمية ، «الفلسفة والأساطير» ، مجلة La Pensee، عددها الأول ، سنة ١٩٣٩، ثم أيضاً سنة ١٩٥٥ : عدد خاص ، تذكاريّ) رفع لواء «**أفلاطون** طارداً الشعراء من المدينة مكللين بالزهور» أي لواء الفلسفة أو الفكر المفهومي (الفلسفة أو العلم) ضد الأشباح ، وذلك في غمار المعركة التي يخوضها ضد الفاشية و«الوجوديات» من حولها . هذا يبدو ، جزئياً ، كأنه بوليتزر آخر ، غير بوليتزر «مبادئ الفلسفة الماركسية» الأشهر . لنذْكر أيضاً بأطروحة ماركس الأولى عن فويرباخ : الفاعلية ، الذاتية ، العمل الانساني الخ هذا كله يبدو في صف المثالية الفلسفية وليس في صف «المادية السابقة بما فيها فويرباخ» .

الفكر الانساني له صفة الاستباق anticipation. هذا صريح في تعريف **الشغل**

---

[*] مخالف للحالة القائمة ومتقدّم عليها ومناقض لها . الاشتراكية عند ماركس ليست صورة لواقع حاضر ، ليست انعكاساً لوجود يكون الاشتراكية . هذا أقل ما يمكن ان يُقال عن مذهب قائم على إعلان وجوب «تغيير العالم» تحويل العالم» . إن قوام المادياتية الستالينية وسواها هو لفلفة هذه الحقيقة البسيطة ، طيّها من البداية ، ثم تضخيم «الوعي الثوري» ونفخ الحزب . المادياتية تتحوّل الى نقيضها . لكن هذه المثالية الفائقة ليست بتاتاً المثالية الفلسفية ، ليست بتاتاً أفلاطون وهيغل وفيشته ولا حتى بركلي ، بل هي المثالية العادية بأبسط وأسوأ معنى .

عند ماركس ، **في** المقارنة الشهيرة بين النحلة والمعماريّ **(في** كتاب **رأس المال**[*] . . .) . لكنه لايصحّ فقط على كدح فرد (نجار ، حذّاء ، الخ) وما تقتضيه هذه العملية المفردة (صنع طاولة أو حذاء أو بيت . . .) من تصوّر هو ـ حسب نص ماركس ـ تصميمٌ بالمعنيين (إرادة وتصوّر أو تخطيط) ويشتمل على أشياء أخرى غير مانسميه عادة «العقل»= (الفهم ، المحاكمة ، الخ) ، يشتمل على انفعال وعواطف وانتباه وإرادة وتوجّه وتوتّر ، وهو ، في أساسه ، مع كونه صورةً وصُوَراً ، تخيّل وخيال imagination ونظر مضارب spéculation بل هو يصحّ أيضاً ، مع الفرق والفروق ، على عمل وفكر المجتمع الانساني ، ولنقل على البراكسيس الاجتماعي وبضمنه (بضمنه ومقابله) الفكر والروح ، الوعي والوجدان . ماركس ، على سبيل المثال ، يقول عن الحقوق الرومانية إنها «استباق» للمجتمع البرجوازي الحديث . وموقف كهذا جزء من الماركسية بوصفها سعياً وراء منطق الواقع و(لأأقول «مادية تاريخية» بل أقول بصيغة ماركس) «تصوراً مادياً للتاريخ» . (ثمة «بعض» الفرق بين «المادية» موصوفاً le Matérialisme و«المادية» صفةً لموصوف هو «التصوّر» أو «النظرية» !) . . هنا استخدمت «مادية» سيراً مع الدارج . والأصحّ مادريانية ، ماديناني . . .

[إنّ هذا الموقف لماركس ، ونظرته على «المسيحية» و«أشكالها الحديثة ، البروتستانتية ، الإلهية deísme» (وذلك في مقطع كثيف من أحد الفصول الأولى في كتاب «رأس المال» ، وهو مقطع قصير يتكلم فيه ماركس أيضاً عن «الشعوب التجارية» في العصر القديم ، وعن «الحبل السرّي الذي يربط الفرد بالجماعة والذي لم ينقطع بعد» ، الخ الخ)[**] ، وحديثه (في الفصل الثالث ، «طريقة الاقتصاد السياسي» ، من نصّ **المدخل** Introduction ، ١٨٥٧ ، الشهير الآن ، ولعله أهم وأخطر نصوص ماركس) عن

---

[*] الفصل السابع ، الفقرة I ، إنتاج القيم الاستعمالية .

[**] الفصل الرابع ، الطابع الصنميّ (التميميّ) للسلعة وسرّه . المقطع يبدأ بـ : «العالم الديني انعكاس العالم الواقعي ....» ـ لنذكر أيضاً قول انجلز الشاب وماركس الشاب . «آدم سميث لوثر الاقتصاد السياسي» ؛ وفي ١٨٥٧ (المدخل) ، يستأنف ماركس (بدون التشبيه نف) الاشكالية المعنية : آدم سميث وعلم الاقتصاد السياسي ، الشغل كمجرّد عام ، كـ «محض فاعلية ذاتية» ... في كتاب **رأس المال** ، يستعمل العبارة اللوثرية الألمانية «المحسوس ـ الفوق المحسوس» ، التي استغنت عنها الترجمة الفرنسية وسواها : انظر المقال المهم الذي كتبه جاك دونت d'Handt في مجلة la pensee (سنة ١٩٨١) وعنوانه: «اختفاء الاشياء في مادية ماركس» . إن لوسيان سيف Seve في كتابه مدخل الى الفلسفة الماركسية يقدّم ، إن صحّ التعبير ، لائحة بالتشويه والتزوير اللذين أصابا الترجمة الفرنسية لكتاب رأس المال، وهي تشويهات في الاتجاه الوضعاني ...

«الروح» Esprit و«التملّك» Aneignung, appropriation (تملّك الانسان للعالم ، عالمه) وأشكال التملّك التي هي ، عدا عن «الفكر الناظر النظريّ» (الفلسفة ، العلم ، العلوم ، علم الاقتصاد السياسي الخ) ، «الفنّ ، الدينُ ، الروحُ العمليّة» ، وحديثَه (في الفصل الرابع) عن الخيال والأساطير والفنّ ، الخ ، وحديثه (في الفصلين المذكورين) عن «الطبيعة» (المفهوم الواحد والمزدوج) **إزاء** التاريخ والصناعة (الطبيعي إزاء التاريخي والصناعي والثقافي الخ) و«الطبيعة بما فيها المجتمع» ، هذا كله بعيد عن «المادية» الذائعة السمعة (وعن «مثاليات» مشهودة وساقطة) .

لامعنى للكلام عن الفن أو الدين ، ولاعن الفكر المفهومي النظري ، بموجب المذهب الانعكاسي ، أي بموجب فكرة الانعكاس وحدها ، بدون فكرة التطلع والاستباق والخيال والحلْم الخ ، وبدون فكرة الفِكرة أو المثال أو المفهوم ذاتها . يمكن في هذه الحيثية ، أن ننقل هنا مقاطع كثيرة ومهمة جداً من «الدفاتر الفلسفية» للينين ، لاسيما من خلاصة «**منطق**» هيغل أو خلاصة «**ماوراء الطبيعة**» لأرسطو (مناظرة لينين مع مُثل **أفلاطون** ، العام والخاص ، الخيال ، الحلم . . .) : هذا لايعني أن لينين أو ماركس أو آخرين قد **وفو** المسألة حقّها . في اعتقادي ، نحن بحاجة إلى «أكثر» ، لا من بعد ومن **فوق** («**تطوير**») ، بل أيضاً و **أولاً** من قبْل ومن تحت (أساسات ، جذور) : هذا شرطٌ للتطوير الجدّي . . يجب أن نرى إرنست بلوخ مثلاً ، ترجمتُ كتابَه **فلسفة عصر النهضة** (دار الحقيقة ، بيروت) ، لم أقرأ له كتاباً آخر (لم يُتح لي ذلك) ، لكنني ، في كتاب مدرسي فرنسي («مفاهيم ونصوص» ، فلسفة ، الصفوف الأخيرة الثانوية) ، أجد له عدّة نصوص ، منها نصّ ضدّ برغسون ، ضد «المتحرك» و «الجديد» حسب فلسفة برغسون ، ويلي في الكتاب المذكور نصاً لبرغسون . فحوى ما يقوله بلوخ أنّ هذا «المتحرّك الدائم الحركة» البرغسوني ليس تغيّراً وليس فيه «جديد» ، إنه «دائم» . . . وبالتالي فإن «الاستباق» البرغسوني ليس استباقاً حقيقياً . . . يمكن أن نقول من جهتنا أن الماركسية السائدة تخلت عن فكرة الاستباق المركزية ، وأن برغسون ركب على هذه الفكرة والكلمة . . لكن ، رجوعاً إلى بلوخ ، لنقل إن فكرة الاستباق الحقيقية «تابعة» لفكرة «العمل» الحقيقية وأن الوعي - الشعور بالمعنى البرغسوني (الشائع عندنا وعند غيرنا) تابع لمقولة الروح - الوعي - الفكر الفلسفية غير المنحلّة بتاتاً في «السيكولوجيا»(*) . فكرة الاستباق الجدية فكرة ماركسية وفكرة

(*) قصدنا أعلاه كتاب برغسون الفكر والمتحرّك . انظر أيضاً كتابه الطاقة الروحية . عن معنى «الوعي والشعور» البرغسوني ، نذكر بشكل خاص كتابه الأول «المعطيات المباشرة للـ conscience» (وعي ؟ شعور؟) لنقل مباشرة ان الوعي ليس معطى مباشراً وإن الوعي والوجدان (بمعنى أوسع) لا ينحلّ في ←

فلسفية عريقة ودائمة .

إن إدانة الوضعوية (الوضعانية positivisme) إدانةً صريحةً وجذرية ، كما يفعل كوفان ، واجب أوّلي على الفكر الماركسي العالمي وعلى الفكر العربي التقدمي أو شبه التقدمي وسواه . لايمكن أن تكون ثمة ماركسية حقيقية في مناخ مذاهب الوضعية والاقتصادية والميكانيكية والمنفعة التي «تستطيع» جميعاً أن تلبس لباس «العقل» وأن تسميّ نفسها «عقلانية» (حتى حين لاتفعل ذلك فإن أنصارها عندنا يفعلونه ، يتصورون أنها هي «العقلانية») . بالضبط ، إن الجدل جدل هيغل وماركس ، هو ، بأساسه ، اعتراضٌ على هذه العقلانية الزائفة المتعدّدة الأشكال . بالضبط ، إذا كان ثمة لدينا عنوان هو «الجدل» ، «الديالكتيك» ، ويميزنا عن عقلانية سابقة (حقيقية وناقصة بالأساس) ، فمن أجل **هذا** الاعتراض الآنف على ما هو انحدار وانحطاط وكاريكاتور العقلانية السابقة نفسها تاريخياً ومنطقياً .

لامجال لماركسية بدون مفاهيم ومقولات الروح والتملّك والبراكسيس (العمل ، لا «الممارسة» الملتبسة) ، وبدون مقولة «التناقض» في المبدأ أي فكرة «النفي» negation المفهومية(*) .

والماركسية هي اليوم ، وربما أكثر من أي وقت سابق ، في السّاحة وفي الحلبة ،

← مباشر (وأنه توجد عند الانسان مشاعر كثيرة غير التي تستهوي برغسون) . إن عملية «السَّيْكلَجَة» هي من أهم وأشهر عمليات الفلسفة البرجوازية في القرن العشرين ، وهي موجهة ضد الفلسفة الكلاسيكية الكبرى وضد هيغل والماركسية . أجل ، إنها في أحد وجوهها ردّ فعل ضد إهمال العاطفة والشعور والحدس والحلم وكل هؤلاء «الأقارب الفقراء» للعقل والفهم والمحاكمة والبرهنة من جانب العقلانية الكلاسيكية . لكن ردّ الفعل هذا يتعامل مع هيغل ومقولة العقل الهيغلية vernunft بالتجاهل ، ويطرح نفسه كمكمّل للعقل الوضعوي والميكانيكي ، في عملية توزّع للصّلاحيات وتضافر في البراغماتيات . هذا «نقيض» الماركسية وكل مَسْندها الفلسفي والانساني .

(*) بخصوص الانعكاس ، إن هذا المفهوم reflet يتعرض حالياً للهجوم من أوساط ماركسية ، بسبب علاقته بالمرآة . بينما يردّ بعض الماركسيين بأنه مفهوم فلسفي مجّرد وعام ، رغم أصله الحسّي المذكور، شأنه شأن معظم المفاهيم (المصطلحات) العلمية والفلسفية . هذا صحيح ... لكنني من جهتي أؤيد الانعكاس وأؤيد المرآة ، أيضاً وبالضبط ، وأضيف مصطلح speculation (المضاربة الفكرية ، التأمل النظري الكبير ، هيغل بشكل خاص) الذي هو نفسه يحيل على المرآة . (speculum اللاتينية = مرآة). إن المثل الأعلى للعمل الفكري هو المرآتان معاً ، وحدة المرآة . مآل الفكر هو الصورة ، والصورة هي الشكل الأخير ، أرسطوياً . مسار الفكر (فاعل المعرفة) هو الإنشاء ، بناء اللوحة (الجملة الحيّة المفردة) . المعرفة فعلٌ، فاعله (ذاته ، حامله) الفكر . إنه إعادة إنتاج . المادِيانية تلغي الانتاج ، هيغل يؤكده. ماركس يؤكد: إعادة إنتاج reproduction .

ساحة الفكر والمعرفة والعلم والمناظرات الفكرية والعلمية الساعية وراء الحقيقة ، وحلبة الصراعات الايديولوجية المرتبطة بمصائر البشرية .

إن كتاب كوفان ، إشاراته المتكررة إلى الماركسية ، لِـ غوردون تشايلد أو انجلز أو لوسيان سيف ، تلميحه إلى سوء أو حسن استخدام المنهج الماركسي ، الخ ، يدفعني إلى القول بأن الماركسية لعبت دوراً كبيراً في العلوم الانسانية ، خصّبت الفكر الأوروبي ، طرحت المسائل الأكثر أساسية ، فتحت الطريق لإنماءات ثمينة ، ودخلت نهائياً في الفكر الانساني ، أُدمجت إيجابياً في الفكر «الغربي» ، العالمي . بالمقابل ، الماركسية في بلادنا مجهولة من خصومها (كارهيها) ومن «العلميين» «(المحايدين» إزاءها) ومن أنصارها (محبيها) . ليس نادراً أن نجد شباناً من شبابنا المخضرم ، ذهبوا للتخصص في هذا العلم أو ذاك من «أحدث العلوم الانسانية» ، فغطسوا فيه وسعوا في مناكبه ، لكن بدون الماركسية التي باتت شيئاً بالياً ومتجاوزاً في نظرهم . . .(*) من جهة ثانية ، تحوّلت الماركسية في قسم كبير من العالم إلى مؤسسة لدولة ودُوَل ، إلى مذهب تبرير و«دعاية» ، ضد وظيفتها الطبيعية : النقد . التطور الثاني ليس هو الأفضل . لكن التطورين معاًقد يكونان ، عدا ذلك ، ضياعاً ، فيما إذا فقدت الماركسية دورها كمشروع ثوريّ ، جذري و «**كامل**» (أقصد : **شامل لمختلف جوانب** الحياة والحضارة . . .) . فالإدماج الايجابي الذي ذكرناه عن الغرب يمكن أن يكون استيعاباً واحتواء . ولعلها أيضاً ، من الجهة الثانية وعالمياً ، بقدر ما تأدلج بالمعنى الزائف (ضد الحقيقة ومع اللعب بالحقيقة والحقائق) تفقد اليوم طابعها كإيديولوجية معبئة لمئات الملايين من البشر وكنظرية هادية فعلاً في مستوى فكر المفكرين وكفاح الجماهير . علماً بأنّ ألوفاً وعشرات الألوف من رجال الفكر والعلم العاملين في شتى الحقول والميادين مجمعون اليوم على ضرورة ووجوب تغيير شامل . ومن الواضح أن جاك كوفان واحد من هؤلاء . إن اللحن الذي يختم كتابه عن الماضي البعيد والراهن

(*) جاك كوفان والآثاريون عندنا ، ماريو ليفراني والاوغاريتيون عندنا الخ الخ هذا مؤلم مؤلم ! بين جملة آمور ، إن الذين عندنا لا يعرفون ماركس . اذ ما شأن ماركس بسوريا القديمة ؟!!
العرب هم اليوم موضوع لعلم وعلوم ، أقصد لفكر فلسفي علمي موضوعه الانسان ومصائره وأقداره، ومنطلقه العرب .
وأستطيع التأكيد : نحن خارج هذا العلم ، خارج هذا الفكر ، هذا الاستفهام ، هذا الانضباط . ليس هنا المكان لمتابعة هذه «المفارقة» تفصيلياً ، ولكشف أعماقها وأبعادها . وما يزيد الأمور إيلاماً أن هؤلاء الآثاريين عندنا هم في كثير من الحالات أفضل ما عندنا تحت عنوان الثقافة والعلم والانضباط . صحيح أنهم لا ينالون عوناً يُذكر (لكن من الذي ينال عوناً ؟!) وأن الثقافة (الأمة) مقطّعة الأوصال ، غارقة في ميادين مزعومة ، مسحوقة تحت ما يسمّونه التخصّص ...

يجعلني أتذكر الـ «تعريفات» العديدة ، والمتنوعة ، التي أعطاها ماركس وإنجلز عن هدف المشروع الثوري (الإشتراكي ، الشيوعي ، الاجتماعي ، الانساني الخ لافرق في ذلك عند هذا المقام الأوّل في النظرية) ، قبل نيف وقرن ، واستحضر واحداً من هذه «التعريفات» : «تصالح» الانسان «مع ذاته» و «مع الطبيعة» (نعم : «تصالح» ، الكلمة من انجلز وليست من هيغل «المتصالح») .

وليكوننَّ خطأً كبيراً أنْ نتصوّر مثلاً أنّ الماركسية المبتذلة (بدرجات مختلفة) قد رفعت لواء الطبيعة ضد لواء الروح . بالحقيقة ، خفّضت الاثنين معاً ، لصالح مقولات «ثانية» ، تالية ، هما ـ مثلاً ـ «المادة» و«الفكر» ، أو أيضاً الكينونة (لكن «الكينونة **المادية**») و «الفكر» أو «الوعي» ، أو هما «الأساس» و «البنية الفوقية» ، ولصالح «تاريخ» يريد أن يقوم كمفهوم فلسفي بدون «الروح» وبدون «الطبيعة» . عملياً ، يكف «التاريخ» و«الطبيعة» عن كونهما مفهومين ، وذلك في صلب النظرية الفلسفية . عملياً ، في عرض ستالين (١٩٣٨) ، «المادّة» (رغم تفوّق كمّي لكلمة «الطبيعة») هي المسيطرة(*) ، «المادّة» «(المادة المتحرّكة» ، أجلْ) هي إله «المادية الجدلية» ، و«أدوات الانتاج» هي إله «المادية التاريخية» ، والتاريخ المتقدّم من مرحلة إلى مرحلة ثائرٌ الآن بقيادة حزب الطبقة العاملة . . . .

في حيثية التاريخ هذه ، كثيراً مايُلام **انجلز** على كتابه عن «**أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة**» المتّهم بأنه برر تصوّر التاريخ الخطّي والميكانيكي الذي بلوره ستالين و «عممه» . كوفان يلومه على كونه أنشأ بناءً نظرياً متسرعاً ، قافزاً فوق فقر معطيات المعرفة العلمية الوقائعية آنذاك . هذا صحيح ، ومسألة التصحيح والتصحيحات قائمة على هذا وغيره . بالمقابل ، لابأس من التذكير بأن **انجلز** كافح التشويه الاقتصادوي للماركسية وبأن كتابه المنقود يمكن ويجب أن يُفهم ، كخط عريض ، بوصفه إعلاناً أو إفصاحاً ، عريضاً أو غليظاً ، عن عملية صعود كبيرة مما قبل «العائلة والملكية والدولة» ومادونها إلى الثالوث المذكور . هذه العملية هي تقدّم وثورة ، مثلما «القرى الأولى في بلاد الشام» تقدّم وثورة . بالتأكيد ، هذا أيضاً يدخل في جملة ما يهمله ماركسيون «ثوار» متنوعون . في نظرهم ، «العائلة والملكية الخاصة والدولة» شيطان مثلّث . إنهم لايروا. أن ثمة مايقع قبلها ، أو

(*) التفوق الكمّي ، في «المادية الجدلية» ، هو لِـ «الطبيعة» في صيغة الموصوف . لكن المادّة في صيغة الصفة ـ مادية matériel ـ تتعدّى على «الطبيعة» ، وعلى «الكينونة» أو «الكائن» être ، وعلى عنوان المذهب أصلاً (حيث تصير موصوفاً ← ... Matérialisme) ، وتُسَلْطن . بالطبع ، المادة «أسهل» من **الطبيعة** !؟ لكنها بالضبط تختلف عنها جوهرياً ولا يمكن ان تؤدي دورها ووظيفتها في المعرفة ، ولا دور مقولة الكينونة أو الواقع أو العالم الخ .

دونها في عصور مختلفة ، وهو ـ مثلاً ـ اللاّملكية ، نظام المصادرة ، اللاقانون ، الفوضى الاستبدادية(*) . هذا الموقف تصفية واحدة لفكرة التاريخ وفكرة التقدم ، استغناء عنهما بفكرة «الثورة» ، الدائمة والعتيدة : تحويل الأرض إلى جنّة ، «مُلحدة» أو اليوم «دينية» . أما «القرى الأولى» فلا علاقة لها بـ . . . «صراع الطبقات» ، وهذا صحيح بطبيعة الحال (بحكم المنطق والتاريخ) .

لنقل ، من جهتنا ، إن الانحراف الكبير عن الماركسية ، أي شبيه الماركسية الباطل ، تحت بَنْد «المادية التاريخية» أو «التصور المادي للتاريخ» ، يتمثّل في إقامة مستوى علاقات الانتاج والملكية الخاصة والطبقات أو اللاطبقات بدون الركيزة : الكينونة الاجتماعية ، الانتاج ونمط الانتاج ككل ، وبدون فكرتي الطبيعة والشغل ، وفي إقامة «الايديولوجيا» و «البنية الفوقية» بدون مقولة الروح والفكر أو الوعي ـ الوجدان . إن «تجربتي» مع «ماركسيين» كثيرين في بلادنا بيّنت لي أن هؤلاء يتصورون جدياً أن «المنطق» مثلاً ، أو «العلوم» ، وبالطبع الفلسفة ، والفنّ والدين ، هذا كله داخل تماماً في «الايديولوجيا» أو تحتها ، ومستنقَد فيها بوصفها الايديولوجيا الطبقية أو المرتبطة حصراً بـ «علاقات الانتاج»(**) . والحرب ، بطبيعة الحال ، مرتبطة الارتباط نفسه بالملكية الخاصة : قبل الملكية الخاصة لم تكن هناك حروب ، «مجتمع الشيوعية البدائية» كان مجتمع سلام ، القبائل لم تكن تتحارب ، الانسان لم يكن يقتل الانسان ويأكل الانسان . و«الحرية» يفمهونها كشيء ينتسب حصراً إلى علاقات الانسان مع الانسان ، أي كشيء موجة ضد استغلال الانسان واضطهاده للانسان ، لا كعلاقة بين الانسان والطبيعة خارجه ، لاكشيء ينتسب أيضاً (وأولاً) إلى الشغل والانتاج(***) . . .

لنلاحظ أن مسؤولية ستالين كبيرة في هذا الاتجاه كله ، لكنّ للرجل مزيّةَ أنه تمسّك بفكرة التقدم ، معلناً أن الرق مثلاً كان «في حينه» تقدماً ، ومزية أنه ، في سنة ١٩٥٠ ، «**بصدد الماركسية وعلم اللغة**» ، فتح باباً ضد الأسْر الايديولوجي ـ الطبقوي ، معلناً أن اللغة ليست «بنية فوقية» ، أنها ليست لطبقة (بل لشعب أو أمّة أو قوم) ، ليست تابعة للنظام الاقتصادي ـ الاجتماعي ، مفسحاً المجال لإخراج المنطق والمعرفة العلمية من الحيّز

(*) و ، في «المراحل الأولى» من تاريخ الانسان ، قتل الأولاد وأكل لحوم البشر ...

(**) إن من أهم مساوىء وأضرار كتاب ستالين أنه ألغى كلية مفهوم العلاقة ، وحصر مصطلح العلاقة في «علاقات الانتاج» (مسألة الطبقات) .

(***) إنهم لا يرون ان ظهور العبودية وتعممها ، ان الانتقال من قتل البشر واستهلاك لحمهم الى استعبادهم وتشغيلهم كان تقدماً كبيراً . إنه انطلاق التاريخ .

المذكور ، ولإعادة النظر في سائر ميادين «حياة المجتمع الروحية» سعياً وراء جانب آخر غير «الايديولوجي الطبقي» (بالطبع في العرف الماركسي الصحيح ، أو بالبداهة الماركسية ، إن «المنطق» يرتبط بالشغل ، بعملية الإنتاج ذاتها ، بالحياة اليومية ، الخ ، لا بـ «علاقات الانتاج» ، «الطبقات» ، الخ إنه ليس مِلْكاً لِـ «الطبقة العاملة وحزبها» بل للعدو أيضاً ، للجميع . . . وكذلك عكسه !) جاك كوفان ، من جهته ، يعطي مصطلح «الايديولوجيا» مدلولاً أوسع ، مدلولاً آخر غير المدلول الطبقي الطبقوي ، غير المدلول «الاجتماعي ـ الاقتصادي» المقلّص والمقطوع في الأساس . لكن المصطلح الذي يحظى بتفضيله ، وبحق ، يبدو لي مصطلح الثقافة . والثقافة culture يبرزها كوفان ، في الفقرات الأخيرة بشكل خاص ، كـ «وسط داخلي» ، كروح ، كفكر وعاطفة وخيال . . . هذان المصطلحان موضع نقاش في الفكر العالمي ، لاسيما الماركسي . لنلاحظ من جهتنا أن الثقافة أقل «فكرية» (بحصر المعنى : أقل «نظرية» وأكثر حياداً) . لكن ، بهذا المعنى ، يكون من واجبنا أن نقول إنّ ماتعاني منه شبيبتنا المثقفة والمخضرمة هو تضخم «إيديولوجي» ونقص «ثقافيّ» و «نظريّ» معاً :

إن الأسئلة التي يطرحها كوفان في خاتمة فصله الأخير وفي خاتمة كتابه أسئلة جدية وبدهية . ولاريب على الاطلاق في أن «الكيمياء الحديثة مشتقة من السيمياء (أو الخيمياء ، أي كيمياء العصور الوسطى)» ، ولاشأن لفكرة القطيعة rupture (القطيعة الابيستيمولوجية» بذلك : هذا موضوع آخر ، هاتان قضيتان اثنتان(*) . ولاريب أن «صناعات التعدين الابتدائية مفعمة بطقوس ومربوطة بنَوَاهٍ «سحرية» . . . نعمْ ، «هذه الهوامات وهذه الإسقاطات» قد تكون «محرّك الاكتشافات» ، بحيث قد لايكون «الفعل الخلاق ذا غاية محققة عيانياً إلاّ بعد الضربة» . كذلك «اختراع الطائرة» وأسبقية «هواة محترفين عاشوا مرة أخرى أسطورة إيكاريوس» و«حاولوا «تخريج» «حلم الطيران» بوصفه هواماً يكاد لايكون واعياً» . . . هذا يبدو لي بدهياً كقضية (وكمسألية) . كوفان هنا يدين المنفعية ويتكلم عن «الأسس النفسية للاختراع» ، وهذا مستوى مهمّ ، وإلى العالِمِيْن

(*) ولا أشك في الصواب المبدئي لأي منهما ولا في أهمية وحيوية أي منهما ! «الماركسية الوضعوية» تلفلف القضية الأولى، تطوي العلاقة الايجابية بين العلم و «ما قبل العلمية» ، تطلق على الثانية («ما قبل العلمية») صفة «الايديولوجية» الملتبسة جداً هنا ، وتفعل ذلك بترفع وازدراء ، نافخة العلم science والعلمية بلا مبّرر ... جاك كوفان مناهض لهذه الوضعانيّة . حملته عليها مبّررة تماماً ، ضرورية بشكل مطلق .

إيلياد(•) **وبريل** والعلماء الذين يذكرهم كوفان يمكن أن نضيف آخرين وميادين أخرى (مثلاً **جان بياجه** ، **هنري والون** ، سيكولوجية الطفل والنمو) .

كما يقول الماركسي السويدي جوران ثربورن في كتابه «**سلطة الايديولوجيا وإيديولوجية السلطة**» (دار الوحدة ، بيروت) ، ثمة منفعية (مذهب منفعة) وتأثيرٌ منفعيٌ على الماركسية يجب الانتهاء منه . وكما قلنا في مكان آنف ، المنفعية تسمّي نفسها عقلاً ومذهب عقل (وذلك بدءاًمن صيغة من نوع «**مصلحة** الطبقة العاملة **المفهومة جيداً**» والتي تغطي وتبرّر ذاتوياتٍ سياسية متسرّعة) .

أخيراً وأوّلاً ، يجب «ردّ الاعتبار» للمقولات الماركسية الكبرى : الواقع ، الفكر ، العمل . «العمل» ليس «المنفعة» وليس «العمليّ» مأخوذاً «من أقربه» . «الفكر» ليس العلم الوضعي ، لاينحل فيه ، ولاينحلّ من جهة ثانية في «نفسيّ» عموميّ أياً كان . «الواقع» ، «الواقع الموضوعي» نتاج تموضع العمل الانساني ؛ ليس ، في «معظمه» ، «طبيعة» سابقة للانسان ونتعامل معها في «المادية الجدلية» . إنه لاينقسم ويضيع في قسمي «الطبيعة» و«المجتمع» الستالينيين :

يجب أن يكون له كيان أوّل ، في **نظرية المعرفة** ، قبل أية «قسمة» (هكذا **ماركس** ، مثلاً في نصوص **المدخل** التي أشرنا إليها) . عندئذ تأخذ المستويات والجوانب والعناصر وكل المقولات (القَطْعات) الجدية مكانها ودورها بوصفها نتاج وأدوات العلم المجرّد (سلاح التجريد بديل المبضع والمفاعلات الكيميائية ، على حد تشبيه لماركس ، في المقدمة الأولى لـ **رأس المال**) . «الطبيعة في ذاتها (أو بذاتها en soi) لاوجود لها» ، يقول كوفان في الصفحة الأخيرة من كتابه : لاشك في ذلك ، ولاوجود لأي شيء في ذاته . . . الطبيعة مفهوم فلسفي كبير .

IV

ثمة «نقطة» في كتاب كوفان تثير اعتراضي وتفرض استطراداً لاأرى لي غنىً عنه . في مناظرته الثمينة مع **غوردون تشايلد** ، الذي أثرّ تأثيراً كبيراً على «علم الآثار

(•) ميرسيا إيلياد . كتابه تاريخ الأديان صدر مؤخراً بالعربية ، ٣ أجزاء ، ترجمة عبد الهادي عباس .

الجديد» الأميركي وغيره في اتجاه مادي بلا مزدوجين(•) ، قال كوفان : «كان تشايلد يستند صراحة إلى ماركسية زمنه حين كان يعتبر أن «الموارد الطبيعية لمنطقة السكن» هي في عداد «قوى الانتاج المحدّدة لبنية مجتمع من المجتمعات» . . . «الفصل الأوّل» .

أية ماركسية ؟ بالضبط ، لم يكن ستالين يعتبر «الموارد الطبيعية» جزءاً من «**قوى** الانتاج . . .» ، بتاتاً . إن جانباً من أهم جوانب التصنيف الستاليني أو المقولات الستالينية كانت إخراج ثروات الطبيعة أو شروط البيئة خارج مقولة «قوى الانتاج» و «نمط الانتاج» . . وماركسية ستالين **هي** ماركسية الزمن المعني ، **هي** الماركسية السائدة ، السوفياتية ، الفرنسية ، العالمية (ربّما فيما عدا الماركسية الانجلو سكسونية) . وستالين يتعارض ، هنا ، مع إنجلز ، بليخانوف ، ماركس ، هيغل ، بأشكال مختلفة . لننظر إلى القضية عن كثب .

ستالين قام بعملية تصنيف جبارة ودقيقة ، بعملية قَطْع مقولاتية ، ضرورية بل وبمعنى ما صالحة : ليست باطلة في هذه العملية ، بل في «مكان» آخر ، عند الدور التعييني «التحديدي ، التقريري» أو اللاتعييني ، وهذا الباطل له موقعه في سياق باطل أكبر : ١) في عرض مبادئ «المادية الجدلية» ولاسيما «الطريقة الجدلية الماركسية» ، رفع ستالين ـ كما ذكرنا من قبل ـ لواء «**الطبيعة** ككلمة تتكرر وتتواتر ، لكنه لم يتعامل معها بتاتاً كمفهوم حقيقي ، فلسفي . «الطبيعة» هنا لاتتعدى مانفهمه منها في قولنا «علوم الطبيعة» أو في قول ستالين«ظاهرات الطبيعة» . إنها لاتقيم علاقات مع مفاهيم مقابلة : تاريخ ، ثقافة ، صناعة ، حضارة ، عمران ، شغل ، إنسان ، فاعلية الانسان الذاتية الهادفة(••) .

هذه المقولات محذوفة أو تابعة ، ملحقة ، ذيلية الخ في «المادية الجدلية» . (وعملياً ، هذه الطبيعة ماهي إلاّ «المادة المتحركة») . لكن **التاريخ** يتصدّر «المادية التاريخية» التي أُعلن أنها تطبيق «المادية الجدلية» . ٢) إذاً ، في «المادية التاريخية» ، إن «الطبيعة» ، السيدة هناك

(•) بعض مؤلفات غوردون تشايلد ـ إن لم تخني الذاكرة ـ ترجمت الى العربية وصدرت قبل حوالي عشرين سنة (في بيروت) . هذا العالم (الأوسترالي) أبرز عدداً من المناطق (الشرق الأدنى ، برقة ، الخ...) وأبرز دور الهجرات ، الحاملة والناقلة لعناصر الجديد ... هذا هام جداً . انظر ايضاً كتاب **بلتيه وغوبلو** ، **المادية التاريخية وتاريخ الحضارات** ، دار الحقيقة ، وكتاب كارلو شيبولا ، **التاريخ الاقتصادي لسكان العالم** .

(••) مصطلح لينين في مقابل «الطبيعة» بحصر المعنى ، بوصفهما شكلين اثنين لـ «السيرورة الموضوعية» (في «خلاصة **منطق هيغل**») : «شكلان للسيرورة الموضوعية : ١) الطبيعة ... ٢) فاعلية الانسان الذي اتخذ لذاته هدفاً» .

ولو في الشكل الذي أشرنا إليه (إنها سيّدة على الروح أو الفكر نتاجها ، وسيّدة «مبدئياً» على المجتمع والتاريخ ميدان تطبيق مبادئها وقوانينها) ، تنحدر فجأة ، تسقط من علٍ ، تنخفض إلى «**بيئة جغرافية** هي شرط ثابت ودائم لحياة المجتمع ، ولها دور إعاقة أو تسريع ، لأكثر . إنها ليست مُحدِّدة ـ معينة ـ مقرّرة déterminante . ليس لها دور تحديد وتعيين وتقرير على التاريخ كمسار تقدم وكأنظمة محدَّدة تتعاقب . فالشروط الطبيعية الجغرافية لم تتغيّر جدياً خلال ألفي سنة أو ثلاثة آلاف سنة ، بينما قطعت أوروبا مثلاً ثلاث مراحل والاتحاد السوفياتي أربع مراحل وحقق المجتمع الاشتراكي . ٣) كذلك السكان ، العامل الديموغرافي ، كثافة السكان . هذا أيضاً ليس له صفة التعيين أو التقرير على درجة التقدم الاجتماعي الاقتصادي الخ : ستالين يعقد مقارنة برهانية بين بلجيكا والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . . . هذان العاملان ، الطبيعي أو الجغرافي ، والسكاني ـ الديموغرافي ، يدخلان في «الشروط المادية لحياة المجتمع» ، لكن ليس في «نمط الانتاج» . ٤) **نمط الانتاج** ، المقولة الممتازة ، تشمل حصراً مستويين أو جانبين هما : قوى الانتاج وعلاقات الانتاج . ٥) **قوى الانتاج** تشمل **أدوات الانتاج** ، وهي العنصر الأكثر تحرّكاً وتطوّراً إلى الأمام ، **والبشر** الذين يستخدمون هذه الأدوات مع **خبرتهم بالانتاج وعاداتهم في الشغل**(*) . ٦) **علاقات الانتاج** أي علاقات البشر في الانتاج ، وهي علاقات تعاون أو هيمنة (الطبقات الاجتماعية) . وهي ترتبط بنظام الملكية ، المأخوذ هنا كواقع موضوعي (أما الأفكار والمؤسسات الحقوقية فهي تدخل في «البنية الفوقية» النابعة من هذا «الأساس» base الذي هو «علاقات الانتاج») .

بالمقابل ، كان **انجلز** ، في رسالته إلى شتاركنبورغ (٢٥/١/١٨٩٤) يُدخل «**القاعدة الجغرافية**» في مفهوم «**العلاقات الاقتصادية**» . وهو شيء لايقبل به ستالين وتصنيفه . . . أما **بليخانوف** فهو يعطي للشروط الجغرافية دوراً تعيينياً ـ تقريرياً على قوى وأدوات الانتاج ، شبيهاً بالدور المعطى لهذه الأخيرة على علاقات الانتاج ، وينظر ، كأمثلة وبراهين ، إلى مجتمعات قديمة وبدائية في المعمورة ، وهو يعلل ، باختلاف البيئة الجغرافية

(*) ستالين استبعد المقولات والمصطلحات : تقنية (مصطلح إنجلز ...) وأيضاً تنظيم ، تعاون ، إدارة . فضّل قدر الإمكان المقولات ذات الشحنة المادّية ! أخذ «التعاون» تحت مقولة علاقات الانتاج كنقيض للهيمنة . وخصّ «العلاقة» بهذه المقولة أيضاً . وهذا باطل . لا إنتاج بدون فكرة العلاقة وبدون فكرة التعاون . قوة الانتاج علاقة ، أداة الانتاج علاقة ، فكرة الاجتماع علاقة . المجتمع = تبادل ، تعامل ، تواصل . المجتمع ليس بديهية مسبقة ، ليس أقنوماً ـ «جوهراً» ، إنه هو نفسه نتاج ...

وتأثيرها ، افتراق «خطيّن في التطور» : من التنظيم الاجتماعي العشيري إلى «المجتمع القديم antique» (اليونان ، روما . .) أو إلى «النظام الاجتماعي الشرقي» (مصر ، الصين ، الهند . . . «النمط الآسيوي للانتاج») . . هذا واضح في كتابه **المسائل الأساسية للماركسية** وفي مؤلفات عديدة . وبليخانوف ينقل شواهد كثيرة من **رأس المال** تذهب في اتجاهه . . . بل لنذكر أن **ماركس** ، مثلاً يلاحظ ، في مكان ما من من كتابه الأشهر(*) أن وطن الرأسمال ليس «في المنطقة المدارية ، حيث النبت الغزير الزاخر» وحيث «طبيعة سخية معطاء تمسك الانسان باليد كما يمسك طفل بحبل» ، بل «في المنطقة المعتدلة» . . . غير أن ماركس يمثّل منهجاً آخر غير منهج بليخانوف أو ستالين في النظر إلى القضية من أساساتها (الجدل ، الجملة ، والتناقضات ، تجاوز قطبيّة «الطبيعة» و«الانسان») .

لقد تكلمنا عن السببية الميكانيكية : آ سبب ، ب نتيجة . هذا المنهج يضيف بالطبع أن النتيجة تؤثر بدورها على السبب . لكنه لايرى أنهما مأخوذان في و تحت **جملة** تتخطاهما ، وأن مقولة السببية يجب أن توضع بتمامها **تحت** مقولة الترابط والفعل المتبادل . . . في الحاصل ، إنّ «آ» ـ **أدوات** الانتاج أو «**وسائل** الشغل» ، عند ستالين ـ تبدو كأنها «السبب الأوّل» ، نوع من إله ، في «المادية التاريخية» (فالسبب الذي ليس له سبب هو الله) . بليخانوف أقرب إلى «الوحدة» النظرية «المادية» أو الوهم المادي ، وإلى وحدة «الماديتين» «الجدلية والتاريخية» ، مادام يحيلنا كسبب أوّل إلى الطبيعة ـ الشروط الجغرافية .

إن التخفيض الجذري للشروط الجغرافية والبيئة الطبيعية ، في ماركسية ستالين وزمنه ، ارتبط بعملية دفن مقولة «**النمط الآسيوي للانتاج**» ، وبفرض قالب التطور الخطّي الخماسي المشهور الذي لايستند إلى أساس سوى الخلط بين نموذج نظري أو فكري (عامّ مجرّد) عن «المجتمع البشري» وتاريخه وواقع العالم العياني وتاريخه(**) (أقرب إلى الصواب

(*) الفصل السادس عشر : «فضل القيمة المطلق وفضل القيمة النسبي» .

(**) الخلط المذكور بين ما يمكن ان ندعوه مفهوم التاريخ وواقع التاريخ يترابط مع إهمال «الشروط الجغرافية» المعيّنة و«العلاقات الأممية» (اي بين الأمم ، الشعوب ، القبائل ...) مع أنهما وجهان بارزان في كل تصوّر ماركس بدءاً من كتاب الايديولوجيا الألمانية...

إن بطلان خطية ستالين (وآخرين) ليس في إيمانه بخط ، بخطّ تقدّم وتاريخ وتعاقب الخ ، بل في عدم وعي ان الخطّ فكرة مجّردة وفائقة التجريد (بل لنقل فكرة منطقية ورياضية عظيمة جداً وضرورية تماماً) ، ان الخطّ ليس جسْماً ، ان فكرة التاريخ وفكرة الواقع تحتاجان الى منطق «أكبر» من «خطّ» أياً كان . ثمة كونيّة أو «جسميّة» ليست «خطاً» .

أن نقول لايوجد مجتمع أو بلد مرّ بالمراحل الأربع» . . وهذا التخفيض يبدو لي ، في أحد وجوهه ، جزءاً من مثالية ستالين ، من الارادوية التقدمية والثورية ، من الطحش مع التاريخ ـ الذي ـ يتقدّم تطورياً وثورياً على خط معلوم . ولنذكر مرة أخرى إن هذا الموقف ضد «الشروط الجغرافية» يتعارض أيضاً مع . . هيغل «المثالي» ! ماركس ، من جهته ، كان أوّل تماسّ له مع مايستحق أن يسمّى المادية (الشروط المادية والمذهب المادّي) هو دروس الجغرافيا البشرية والسياسية التي حضرها في الجامعة . . إنّ «مادية» تؤمن بـ «المادّة» ولاتبالي كثيراً بالشروط الجغرافية ، المناخ والبيئة والاقليم ، هي «مادية» بعيدة عن علم الاجتماع والتاريخ ، أو هي مثالية ذاتية ، سياسيّة متسلحة بالاقتصادوية والطبقوية : إنها تخفض البراكسيس ، عمل المجتمع ، إلى «تطبيق» للقوانين الموضوعية لعلم صراع الطبقات أو علم الاقتصاد السياسي(*) . يمكن مثلاً أن ترى الطبقات في القرية الروسية عام ١٩٢٨ ، أي «الفلاح الغني» (الكولاك) و«الفلاح المتوسط» و«الفلاح الفقير» ، لكن بدون أن ترى «الفلاّح» ذاتاً ، بدون أن ترى الفلاحة la paysannerie («الفلاحين» كمقولة مفردة) ، تتصوّر بسهولة ان هذا الكائن الأخير قد انقسم واختفى لصالح أقسامه بموجب التطور الراكض إلى أمام . لنذكر ، من جهتنا ، أن «الفلاح» ، بخلاف «العامل المأجور» ، تحيل أولاً إلى نوع عمل ، هو علاقة بشر مع أرض (ومناخ وطقس وحشرات وأحجار . .) أو (بالفرنسية) مع بلد . .

لقد دُفنت مقولة «النمط الآسيوي للانتاج» ، لكن ـ رجوعاً إلى تشايلد ـ من المفيد أن نذكّر بأن «الماركسية الانجلوسكسونية» شذّت بعض الشيء عن القاعدة العامة(**) . من

(*) نذكّر بأن «علاقات الانتاج» هي موضوع علم الاقتصاد السياسي أو على الأقل محوره ـ و «الاقتصادية» تضخيم لهذا المستوى المجرد ، إهمال للسياسة والايديولوجيا ومسألة الأمم والقوميات ، طبقوية عمالويّة او كذحاوية عامة جامحة الى أمام تؤمن بأن «الماضي» (مثلاً المسألة الديمقراطية في ١٩٠٢ أو المسألة القومية في ١٩١٥ ـ ١٦) قد مضى ... هذا مفهومها اللينيني في ١٩٠٢ ، ثم في ١٩١٦ ، وهو مغاير لمفهومها عند ماركسي الغرب في أيامنا الذين يواجهون مسائل من نوع آخر ... يمكن ان نميّز اقتصادوية إنتاج واستهلاك فكرة التجريد ومعنى التجريد . ولنقل بوحي من فويرباخ : في بداية مسيرة المعرفة ليس لدينا سوى الوجود ازاء الفكر ، الاختلاف ازاء الهوية . هكذا البداية ، المنطلق ، بل لنقل لحظة الصفر الفائقة الأهمية . الوجود (أي الوجود خارج الرأس) = الاختلاف ، التباين . وفي منطلق التاريخ : الطبيعة متخالفة ، الأرض متباينة . والاّ فنحن خارج الواقع . ايضاً : العالم = عالم مجتمعات مختلفة ، عالم أمم الخ . عند ستالين : العالم = المجتمع ، واقع الشيء = مفهوم الشيء .

(**) بالم داط R. palm dutt ، في بداية كتاب له عن الهند ، يذكّر بمقالات ماركس عن الهند ١٨٥٣، وينقل بعض الشواهد منها . وهذا الموقف من جانب الشيوعي البريطاني الأشهر يبدو في حينه (أوائل الخمسينات) ناشزاً ...

جهة أخرى ، إنّ نشر مؤلفات بليخانوف ، أو كتاب **رأس المال** ذاته ، كان «شذوذاً» يخالف «التطوير الستاليني المتقدّم» ، السائد والذي «يُزهر» في مؤلفات متنوعة . . .أخيراً ، بعد ستالين ، بُعثت المقولة «الآسيوية» من جديد وبشكل حادّ . هذه الحدّة ذاتها تستحضر قوّة الدفن السابق . المكبوت ينفجر . هناك مبالغات «جغرافية» ، وعكسها ، وهناك مواقف عجز عن استرجاع فكرة «الجملة» ، هناك طغيان للموديلات ـ النماذج ، هناك سَحْبات سياسية . . وهنا لابدّ لي من ملاحظة أن **بعض** الذين أخذوا المقولة «الآسيوية» و«طوّروها» شرعوا يطهّرونها من قاعدتها «الجغرافية» ـ الانتاجية الصريحة عند أنجلز وعند ماركس بصرف النظر عن أية فروق بينهما (الهند ، مصر ، الخ ؛ المناخ ، الصحراء والنهر ، أي مسألة الريّ) ، يوسعونها بحيث تشمل عدا عن مسألة الري الآنفة مسألة السيطرة على خطوط التجارة . . . ، بل يحوّلونها إلى «نمط خراجي» عام تكون الاقطاعية الغربية أحد أشكاله ، ويُخفضون «الشروط الجغرافية» مرّة أخرى ، وكثيراً مايرتبط هذا التخفيض باليسراوية الايديولوجية والسياسية .

هذا كله يحتاج ، لاريب ، إلى تدقيق ، إلى تمييزات تفرز الخطأ والصواب ، عند الروّاد والتلاميذ سواء بسواء . بليخانوف مثلاً ـ وقد قلنا ذلك ـ يرتكب خطأً جغرافوياً مرموقاً (له كما أعتقد بعض الصلة بالمادية البليخانوفية ، السبينوزية ـ الفويرباخية الميل(*) ، أو بمذهب «الواحدية المادية» البليخانوفي) بالمقابل ، يكفي أن نطالع بعض كراسات الإعلان الصادرة عن «دار التقدم» (موسكو) التي تُعلم عن الكتب التي تصدرها الدار المذكورة ، بلغات شتى ، حتى نجد ، في المختصرات نفسها المعطاة عن بعض هذه الكتب ، تكراراً ، لم يعد يطاق ، للصيغ الستالينية : «البيئة الجغرافية» تعيق أو تسهل ، تُبطئ أو تسرّع ، لكنها ليست محدّدة ـ معيّنة ـ مقرّرة déterminante، والمقصود «حاسمة» decisive . ضدّ هذه الشعبيّة والبداهيّة ، ضد هذا التسيّب اللغوي ، وأياً تكن اللغة ، يجب أن نردّ للمصطلح اعتباره ، وأصله . إذا كانت البيئة الجغرافية تعييناً détermination وحداً terme فهي معينة ومحدّدة ومقرّرة ، إنها تدخل في جملة

(*) «طبيعة» و«ماهية» سبينوزا ، «طبيعة» و«إنسان» فوير باخ ... زعم ويزعم كثيرون ان ماديانية ماركس هي ماديانية فوير باخ ، وهذا باطل ، إن ما يأخذه ماركس وأخيراً لينين على ماديانية فوير باخ ليس «البناءات العليا المثالية» عن الدين والأخلاق والحبّ ، بل طبيعانية فويرباخ وأنتروبولوجيته ومحسوسيته الخ. ولقد أشّر لينين جيداً على قصور المبدأ الطبيعاني والمبدأ الأنسانوي عند فويرباخ وعند تشرنيشفسكي... عند فوير باخ ، الانسان هو النوع وهو الفرد وهو الحبّ ـ الجنس ـ العلاقة بين الرجل والمرأة . عند ماركس الجوهر الانساني يحيل على جملة العلاقات الاجتماعية .. هنا جدلانية ماركس وماديانية ماركس . الخلاف هو على «الواقع» ، ما هو الواقع ؟

المعيّنات . (هذه «الجملة» التي هي كلّ ، وكلّ ـ أو مجموع ـ من معيناتٍ يصلح ويجب أن تُعامل بوصفها عوامل : إن نضال بليخانوف ضد «نظرية العوامل» ملتبس) . إنّ واقع أن هذه «الطبيعة» ثُقّفت وصارت تاريخية ، إنّ واقع أنها «اختلطت» بشيء آخر هو عمل وعمران وصنع بشري لايعني أنها خرجت من الكينونة . لعله يجب القول إن «الايكونوميا» (علم الاقتصاد) تصبح اليوم «جزءاً» من «الايكولوجيا» (علم البيئة أو الحياة ـ بيئة) . مؤلفات ماركس ، عالم الاقتصاد السياسي الكبير ، في علم الاقتصاد تحمل جميعاً في عنوانها ذاته أو تحته عبارة «نقد علم الاقتصاد السياسي» ، «أسس نقد الاقتصاد السياسي» . . . «كل نظرية اقتصادية هي ، بما أنها اقتصادية ، خاطئة» ، كل علم (كل ميدان) هو تجريد ، **قبض** على **جانب** . . . ستالين نفسه ، في مؤلفه الأخير (**المسائل الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفياتي** ، ١٩٥١) يحدّد موضوع علم الاقتصاد السياسي بأنه ميدان مستوى علاقات الانتاج ، مُخرجاً منه قوى الانتاج ، التكنولوجيا ، الخ . مع أنه هو نفسه وبطبيعة الحال ، في تصوّره المادي للمجتمع والتاريخ ، يعلل المستوى المذكور بمستوى قوى الانتاج ، يحيلنا إلى قوى الانتاج ولاسيما أدوات الانتاج . ليس هذا كله باطلاً ، البتة ، لكن يجب **إذن** أخذ وعي قضية المعرفة والعلم من أساسها ، أخذ وعي مبدأ التجريد والعزل ، أخذ قياس المستوى أو الجانب . ليس من حكم مطلق يحسم قضيةَ «حسميّة» أو «تقريرية» الأدوات أو الشروط الطبيعية البيئية أو أي شيءٍ آخر في تطور الانسان وتاريخه(*) .

الماركسية كلها شدّدت ، وبحق ، في نظرتها العامة إلى التاريخ ، على أدوات الانتاج ، وسائل الشغل . وكذلك الفكر العالمي ، وتعليمُ التاريخ بخطوطه الأعرض . «ماقبل التاريخ» والتاريخ : العصر الحجري القديم وأقسامه الزمنية الطويلة ، الجديد وأقسامه ، وبينهما الوسيط ، ثم الحجري ـ النحاسي والنحاسي ، ثم عصر البرونز (والحضارات الكبرى في الشرق الأدنى) ، ثم عصر الحديد (بدءاً من حوالي منتصف الألف الثاني ق .م أو بعد ذلك) ، ثم . . . الآلة البخارية والثورة الصناعية ، النفط والكهرباء والسيّارة الخ ، وعصر الذرّة .

(*) هذا ما يتعارض ويتنافى مع ماركسية ستالين ومع كتابه الأخير ، مع قانون «التوافق الضروري بين كذا وكذا» ، اي مع إعلان ستالين ، ضد كل واقع ، ان ثورة ١٩١٧ الروسية نبعت من وجوب إقامة التوافق بين علاقات الانتاج المتأخرة وقوى الانتاج المتقدمة .

هذا الإبراز لايعني أننا نعطي الأوّلية للأداة والآلة ، بلا حيثيات وخارج التعيين . أية أولية ؟ أولية على ماذا ؟ في إطار ماذا ؟

الآلة البخارية لها أوّلية ، الثورة الصناعية (بحصر المعنى ، بدءاً من نهاية القرن الثامن عشر ، وفي القرن التاسع عشر وحتى أيامنا) انقلاب كبير جداً ، شامل . لكن أليس «قبلهما» أو «دونهما» شيء ؟ مثلاً ثورة «ثقافية»(*) ، ومثلاً «ثورة زراعية»(**) (تقدم تكنولوجي زراعي متراكم يبدأ في هولندة وألمانيا ويكتمل في انكلترة) ، ومثلاً طبقة برجوازية ومجتمع برجوازي وجملة اجتماعية بشرية ؟ أليس انتشار الاختراع المعيّن والثوري ، مثلاً المطبعة (ق١٥) ، أليس تابعاً لشيء اجتماعي وثقافي ؟ ذيوع المطابع وكثرة الكتب في أوروبا الغربية والوسطى منذ سنة ١٥٠٠ مثلاً (عدد كبير من العناوين المتنوعة) ، هذا يجعلنا نقول : المجتمع كان على موعد(***) ! والاختراع نفسه كاختراع ؟ أليس له «**أسباب** ، في مستوى الأفراد المخترعين وفي مستوى البيئة المحيطة ، التي هي دوماً بيئة اجتماعية بشرية ؟ والاختراع يعيدنا بالتأكيد إلى مقولة الروح ، الفكر ، «النفسيّ» le psychique (الذي يقابل ، في مفردات لينين ، «الفيزيقي» le physique)(****) .

إن قراءة كتاب **رأس المال** ، وصفحات أولية محددة من هذا الكتاب الأشهر ، صفحات عديدة ومتنوعة ، فلسفية ـ تاريخية ، تجعلني أقول إن الماركسية السائدة تخالف ماركس في الاتجاهين معاً ، «المادي» و«المثالي» ، إن صحّ المصطلحان ، قصدْتُ : ضدّ الطبيعة (و«الجغرافيا») وضدّ الروح .

والقضية كلها تنحدر أكثر عند الماركسيّ المتوسط ، والقارئ المتوسط لكتاب ستالين الأشهر أو لكتب لاحصر لها تنسج على منواله ومعظمها دون مستواه : في مقولات ستالين عن مجتمع المادية التاريخية وبالأصحّ عن المجموع الذي هو «شروط الحياة المادية» في هذا البناء الواحد ، **الأداةُ** هي الأكثر رسوخاً في ذهن القارئ ، **فهي الأكثر** «مادية» ، أما «**نمط**» أو «**أسلوب**» mode (نمط الانتاج) ، «**علاقات**» (علاقات الانتاج) ، «**خبرة**» و

(*) انظر كارلو شيبولا ، «**التاريخ الاقتصادي لسكان العالم**» .

(**) انظر بول بايروش ، **مأزق العالم الثالث** ، دار الحقيقة .

(***) انظر ميشيل دوفيز ، **اوروبا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر** ، دار الحقيقة (موضوع تركيا العثمانية) .

(****) في الوقت الحاضر ، ثمة انقلاب في الفسفة السوفياتية والعلم السوفياتي ، لعلّ أبرز ما فيه التأكيد وعلى الفكر = الاختراع ، او على الوعي = الفكر الانساني ، المستقبليّ الخ .

«عادات» (خبرة إنتاج وعادات شغل) ـ وكلّها مشدَّدة عند ستالين ـ **فهي** ليست أشياء (ولنقل : لاصلة لها ، ظاهراً ، بـ «المادة» في مفهوميها «الفيزيائي» و«الفلسفي» ، لافرق)(*) . وكذلك يرسخ **«البشر»** ، المنتجون والمكافحون (لكن بدون الديموغرافيا ـ ومع عدم ملاحظة القارئ التجريد الذي أخذ هنا وأكدّ خبرة الانتاج وعادات الشغل ، وحَذَفَ الايديولوجيا والسياسة والطبقات ، أي عدم ملاحظته لفكرة المقولات والعمل بالمفاهيم ، وعدم ملاحظته أن الشغل عقلٌ ومنطق . .) ، فهم ماديون ؛ وكذلك **«الطبقات» فهي** محسوسة ومادية وهي كائنات شبه أزلية (الفلاح كائن وينتقل من مجتمع إلى مجتمع ، من «إطار» إلى آخر ، في النظام الاقطاعي إلى الرأسمالي إلى الاشتراكي ؛ كذلك العامل هو هو ؛ وكذلك ، عند الحدّ الأخير والذائع الشهرة ، الجماهير الكادحة برمتها وعلى امتداد التاريخ . .) . أما «الشروط الجغرافية» ، المادية جداً (الشمس والغيم والمطر والبحر والسهل والجبل وربما الزيتون والنخيل . .) فقد جرى تبديدها الفاتح . وتتثبَّتُ **«الأداة»** في الذاكرة بفضل صيغة فرانكلين وماركس وستالين : **«الانسان حيوان صانع أداة شغل»** Animal is a tool making بل يمكن أن ينسى قارئ النص المذكور أن **«استخدام وخلق** وسائل الشغل (الأدوات) موجود ، كبذرة أو جنينياً ، عند بعض **الأنواع الحيوانية»** . . . في الماركسية ، الانسان قائم **إزاء الطبيعة** (سيّد ومالك وملك عليها) والانسان **جزء من** الطبيعة ؛ الانسان طبيعة عامة وخاصة ، نوعية (صناعة ، ثقافة ، عمران ، تاريخ) . **واليوم** ثمة استرجاع ، في الماركسية العالمية ، لمقولة الطبيعة (**ايريك فروم** . . . ؛ **مجلة الفكر la pensée** العدد ٢١١ نيسان ١٩٨٠ ؛ كتاب الفرنسي جيرار روليه Raulet عن إرنست بلوخ ، أنسنة الطبيعة ، طبعنة الانسان» ، الخ) .

أخيراً لابدّ من التوقف عند مقالة إنجلز الكلاسيكية (المنشورة مراراً باللغة العربية) : **«دور الشغل أو العمل في تحوّل القرد إلى انسان»** ، الفائقة الأهمية والراهنية . أجل ، من الضروري «تغيير» القسم الأخير من هذا العنوان ، تدقيقاً يتفق مع المعرفة العلمية الحاضرة ومع الاصطلاح العلمي . الانسان الحاضر واحد من الرئيسات Primates، وهو ، داخل الرئيسات ، نوع واحد وحيد وجنس وحيد في فصيلة هي الـ Hominidés (البشريات) .

(*) بل لنلاحظ ان ستالين أدخل ، بحق ، معرفة صنع الأدوات وعلم استخدامها تحت مقولة قوى الانتاج، اذن تحت مقولة أسلوب الانتاج ومقولة «شروط الحياة المادية» . لكن هل يوجد قراء كثيرون قرأوا ذلك، توقفوا عنده ؟ بالطبع ، إن هذا الإدخال ، الصحيح والبدهي ، يتناقض مع مذهب ستالين ، يكشف بطلانه الأساسي . شروط الحياة المادية غير المادّة والمادّي . المصانع ودور العبادة كلاهما مادّي ومحسوس بالتساوي ...

والقردة الأقرب له والمسماة «قردة شبيهة بالانسان» هي ثلاثة أجناس مختلفة (غوريلا ، شمبانزه ، أورانغ أو تانغ) في فصيلة أخرى هي الـ Pongides . ولهاتين الفصيلتين ، وهما الأحدث ، أرومة مشتركة . . . علمياً ، لايمكن التكلم عن تحوّل ينقل من **القرد** إلى الانسان . والشجرة هي «الرئيسات» لا «القردة»(*) . . . غير أن هذا الخطأ ، أو غيره في متن النص ، ليس هو الشيء المهمّ . و ، نظرياً أي علمياً ، يمكن (ويجب) التكلم عن تحول ينقل من «الحيوان» إلى الانسان ، أي الحيوان «الصانع» ، «العاقل» ، «الفاعل» و«العارف» : وهذا موضوع إنجلز وقضيته . ونشوء الانسان» يصبّ على الراهن .

[مقالة إنجلز تنتهي ، في أمثلة ضاربة ، على معاينة افتراق الأهداف والنتائج ، أي على إشكالية العمل الانساني بوصفه فاعلية غائية ، «تيليولوجية» (كما يقول لوكاتش)(**) . مع ظهور العمل الانساني ، يظهر «الهدف» وفِعلُه ، في الدنيا . الانسان ـ النوع يبني بيتاً ، يصنع حذاء ، قطاراً ، يزرع ويتوسع في زراعته ، ينشئ معامل ومصانع . . . يحقق (يوقِن) هدفه الذاتي : هذا في المدى المباشر والقريب ، في المستوى الفردي أو شبه الفردي . في مدى أكبر ، ليس الأمر كذلك بتاتاً . النتائج البعيدة تتخطى الأهداف ، المفعول ليس المقصود ، العالم الناتج غير ماأُريدَ . مأراده صاحب العمل أو صاحب «المشروع» هو «أصغر» من أو مخالف وربما معاكس لِـ عالم الحصول أو الوقوع .

(يقول إنجلز في نهاية مقاله : « حين تعلّم العرب تقطير الكحول ، لم يخطر لهم على بال ولا حتى في الحلم أنهم بذلك قد خلقوا إحدى الأدوات الرئيسية التي ستمحى بواسطتها من وجه البسيطة أقوامٌ أصليّة في قارة أميركا التي لم تكن قد اكتُشفت بعد . وحين اكتشف كريستوف كولومب أميركا ، لم يكن يعلم أنه ، بعمله هذا ، كان يُرجع إلى الحياة نظام الرقّ الذي كان قد اندثر في أوروبا منذ زمن طويل ويُرسي قواعد نخاسة الزنوج . والرجال الذين كانوا ، في القرنين ١٧ و١٨ ، يعملون على تحقيق الآلة البخارية ، لم يكونوا يفكرون بأنهم يخلقون الأداة التي ، أكثر من أية أداة أخرى ، ستقلب النظام الاجتماعي في العالم بأسره ، وخاصة في أوروبا ، بتركيزها الثروة في جهة الأقلية والعري

(*) وهذه «الشجرة» التي هي ذاتها فرع من اللبونات ، تضم ، الى جانب البشريات والقردة (برتبها وفصائلها) ، «الليموريين» وهم دون ـ القردة («أشباه قردة» أو قردة زائفة») .

(**) في «المحاورات مع الاساتذة الألمان» ، دار الطليعة . ـ لقد ذكرنا ان ترجمة رأس المال الى الفرنسية انطوت على تشويهات وانها تشويهات في اتجاه محدَّد وضعاني . المترجم لم يتحمّل ما اعتبره ، ويعتبره آخرون في عصرنا ، لاهوتية ماركس ومثالية ماركس ... لنذكر ان التشويه أصاب الشغل ، عملية الشغل، حيث أحلّ مصطلح «الحدّ الأخير» محلّ مصطلح «الهدف» !!

في جهة الغالبية العظمى» . . .

لئن كان ثمة قيمة ومعنى لأوصاف المادية والموضوعية والواقعية التي يحملها «التصور المادي للتاريخ» فهي **هنا** ! إنَّ **هذا** الافتراق بين الأهداف والنتائج ، بين الوعي والواقع ، هو الذي يفصل التصوّر الماديّ عن التصوّر المثالي للتاريخ . التاريخ ليس ابن الوعي بالمعنى الآنف . هنا الفاصل ! ليس عند المنفعة /و/ التطلّع والاستباق . بل الماركسية الصاحية ضد تلك ومع هذين ، وذلك بحكم تطلّعها ومشروعها الثوري الشامل وبحكم نظرتها إلى الواقع والتاريخ كمنطق . بل وإن «المنفعة» تلك تابعة للذاتوية والمثالية(*) . . .

ولنتابع قراءتنا لخاتمة مقالة أنجلز : «كل أنماط الانتاج السابقة لم ترمِ إلاّ إلى بلوغ النتيجة النافعة الأقرب ، الأكثر مباشرية ، للعمل ـ الشغل . كانوا يتركونَ جانباً بالتمام العواقب البعيدة ، تلك العواقب التي لاتتدّخل إلا فيما بعد ، التي لاتدخل في اللعب إلا بنتيجة التكرار والتراكم المتدرّجين [... ...] . إن العلم الاجتماعي للبرجوازية ، الاقتصاد السياسي الكلاسيكي ، لايُعنى بشكل رئيسي إلاّ بالمفاعيل الاجتماعية التي تسعى إليها مباشرة الأفعالُ البشرية والمّوجهة نحو الانتاج والتبادل . وهذا يتفق تماماً مع التنظيم الاجتماعي الذي العلمُ المذكور تعبيرهُ النظري [...] . الغارسون الاسبان في كوبا الذين أحرقوا الغابات على المنحدرات ووجدوا في الرماد مايكفي من السماد لجيل واحد من أشجار البن المربحة جداً ، في ماذا كان يهمهم أن تجرف الأمطار المدارية ، فيما بعد ، طبقة التربة السطحية التي باتت بلا حماية ، تاركة وراها الصخور الجرداء وحسب ؟ إزاء الطبيعة وإزاء المجتمع ، إنهم لايعتبرون بشكل رئيسي ، في نمط الانتاج الراهن ، سوى النتيجة الأقرب ، الأكثر ملموسيّة ؛ ومن ثم يندهشون لكون العواقب البعيدة للأفعال الرامية إلى هذه النتيجة المباشرة شيئاً آخر تماماً ، ومعاكساً بالتمام في الغالب ؛ يندهشون لكون تناغم العرض والطلب يتحوّل إلى ضده القطبي كما يبين لنا سير كل دورة صناعية عشرية ، وكما أخذت ألمانيا عن ذلك طعماً أوّل صغيراً مع الانهيار الأخير [المقصود أزمة ١٨٧٣ ـ ٧٤] ؛ يندهشون لكون الملكية الخاصة المرتكزة على الشغل الشخصي تتطوّر بالضرورة نحو غياب الملكية للشغيلة ، بينما يتركّز كل امتلاكٍ أكثر فأكثر في أيدي غير الشغيلة ؛ يندهشون لكون . . .» .

هنا تنتهي مخطوطة إنجلز : هذه المقالة جزء من مجموعة **جدل الطبيعة** ، حيث

(*) هنا ، تتبدّى أهمية هيغل ، «العقل» ، «مَكْر العقل (مَكْر الله)» ... هذه الفكرة هي مصدر وأساس كل التصوّر المادياني ـ الماركسي ـ للتاريخ ، ضد شتى الذاتويات والمنفعيات .

لها ، في **مدخل** هذا الكتاب الكبير ، صفحةٌ موازية أو بالأصح صفحتان ، مقطعان هامّان ، نأخذ من نهايتهما مايلي : «وحده تنظيمٌ واعٍ للانتاج الاجتماعي ، يكون فيه الانتاج والتوزيع خاضعين لخطّة ، يمكن أن يرفع البشر فوق العالم الحيواني من وجهة النظر الاجتماعية مثلما الانتاج نفسه رفعهم كنوع . إن التطور التاريخي يجعل تنظيماً كهذا أكثر ضرورة يوماً بعد يوم ، لكن أيضاً أكثر قابلية للتحقيق» .

لنقل : هذا أحد «تعريفات» المشروع الثوري عند ماركس وإنجلز . وهو وثيق الارتباط بكل تصوّرهما للطبيعة والانسان والتاريخ . إنجلز ذهب ، في مقالته وفي القسم الموازي لها في «المدخل» ، من نشوء الانسان ، افتراقه عن الحيوان ، إلى المشروع الثوري الراهن ، على أساس مسأليّة العمل الانساني في التاريخ (سيطرة وعدم سيطرة البشرية على نتائج أفعالها) . باختصار ، في ضوء المقطع الأخير كما نقلناه : من الانسان ـ النوع إلى الانسان ـ المجتمع أو الجماعة . بين الاثنين ، التاريخ أنجب «المجتمع المدني» : هذا مايمكن قوله في ضوء أطروحات ماركس عن فويرباخ . . . تلك مسائل لاتنال حظوة في ماركسية ستالين (ولا في ماركسية كثيرين غيره . ألتوسير يلغي «الهدف» من تعريفه لِـ «الممارسة» أو «العمل» la pratique ويلغي «المجتمع المدني» كمفهوم غير «إجرائي» ،الخ الخ) . كتاب «المادية الجدلية والمادية التاريخية» لايتعامل مع قضية من نوع «نشوء الانسان» ، ليس فقط لأن الكتاب المذكور صغير الحجم ـ وهو كذلك فعلاً ـ بل لأن التعامل مستحيل مع هذا الميدان الذي هو «انتقال من الطبيعة إلى التاريخ» (تاريخ الانسان) . في ماركسية ستالين ، هذا «الانتقال» صعب . . . . أما إلغاء «النمط الآسيوي للانتاج» فهو يعزز مقولات وأطروحات «المادية التاريخية» : إخراج البيئة الطبيعية والديموغرافيا خارج «نمط الانتاج» وخارج «قوى الانتاج» ، وخارج قضية التعيين والحسم . الصالح والطالح يتداخلان . ليست البيئة الطبيعية **أداة** إنتاج ، ولافائدة من إدخالها في وتحت «**قوى الانتاج**» . يمكن أن تكون «أكثر» من ذلك أيضاً . موقف ستالين مناسب لِـ «**تاريخ أوروبا**» خلال الحقب التاريخية (شرط «رد الاعتبار» لفكرة الانتاج نفسها ، إذنْ وبالتالي للأرض والسكان) . ونحن بحاجة اليوم ـ وعالمياً ـ إلى ماهو «أكبر» بكثير ، مكاناً وزماناً ومنطقاً .

وكتاب «قرانا الأولى» من أفضل الكتب التي تلبي هذه الحاجة . نضعه بين يديّ القارئ ، راجين أن يكون موضع دراسة متأنية ومثاراً لمناقشات مجدية . ومن أجل ذلك فإن **أفضل** ماننهي به هذه المقدمة هو فقرتان من كلام كوفان .

الأولى ، في الفصل الأوّل ، وتقول : «إن الأهمية الخاصة التي ترتديها عملية

التحضر والقرى الأولى تنبع من حقيقة أنها تعرض بداية ذلك التحويل للطبيعة على يد الانسان ، الذي يكفّ عن كونه نوعاً قانصاً بين أنواع أخرى ويستولي آنذاك على دوره النوعي كبستانيّ للعالم ، صائراً بذلك ، كما يقول ديكارت ، «سيّده ومالكه» .

الثانية ، خاتمة الكتاب : «في العالم الحاضر ، حيث شرعت ايديولوجيات فائقة الحرص على الاضطلاع بالحاجات الأكثر عيانية لمجتمعنا تتساءل عن الطبيعة الحقيقية لهذه الحاجات ، وحيث جاءت اتجاهات أخرى أكثر جذرية أيضاً لتنادي بـ «ثقافة ـ مضادّة» رداً على تناقضات اقتصاد غازٍ مكتسح ، قد لاتكون هذه التأملات القليلة ، المستوحاة من ماض بعيد ، بعيدة عن الراهن» .

الياس مرقص

مقدمة

قبل حوالي ١٢٠٠٠ سنة ، ومع انتهاء المرحلة الرئيسية الأخيرة من عصر الجليد البليستوسيني ، شرع نوعنا يخطو خطوة في اتجاه عتبة جديدة . في ذلك الحين ، كانت كل أجزاء الأرض القابلة للسكن والتي يمكن أن يقطنها بشر يعيشون حصراً على اقتصاد الصيد والقطف ـ ومهما كُثّف ـ قد سُكنت . وكانت العتبة ، عند تمام إنجازها ، طريقة حياة تتوقف على الانتاج الفعلي للتموين الغذائي ، عبر تأهيل لنباتات وعادةً ، لحيوانات . لو لم تُعبر العتبة تماماً لكنّا جميعاً اليوم قوماً من الصيادين ـ القطّافين . هل كنّا نكون أسعد مما نحن أم لا ، هذا أمر لايمكنني تخمينه .

منذ الحرب العالمية الثانية ، عُني واحد من ميادين البحث الآثاري البؤري الأكثر نشاطاً بتناول أمر إنتاج الغذاء وإنجازه وإنجاز طريقة حياة جماعة ، قروية ـ مزارعة ، فعلية . نعلم الآن أن هذه العتبة عُبرت ، بصورة مستقلة في حيثيات هامة في أجزاء مختلفة من العالم في وقت واحد تقريباً . ومن المفهوم أن تكون العتبة التي عُبرت في آسيا الجنوبية ـ الغربية ، في نظر الذين يعيشون داخل التقليد الثقافي الغربي ، هي الأكثر جذباً و فتنة .

هنا تتراءى منطقتان ، على الأقل ، لفاعلية ثقافية حضارية مثيرة للاهتمام في زمن مقاربة آسيا الجنوبية ـ الغربية للعتبة . إحداهما تمتد على السفوح الجبلية والوديان المرتفعة في جبال طوروس الشرقية وجبال زاغروس ، التي ترويها منظومات دجلة ـ قارون النهرية . والمنطقة الأخرى تضم البلاد الممتدة بمحاذاة البحر المتوسط الشرقي والواصلة في الداخل حتى وادي الفرات الأوسط . كانت الأخيرة من بين المنطقتين هي التي جذبت انتباه الزملاء الفرنسيين والتي أنتج فيها ميدانهم الآثاري إسهامات عالية الدلالة في معرفتنا لهذه المرحلة الهامة من تاريخ الثقافة . وكما هو حال معظم الآثاريين ، كان لي أنا نفسي قضية غرام طويلة مع تلال ومنطقتي ـ سفوح طوروس الشرقي وزاغروس ـ لكنني بالتأكيد لاأفترض أن جميع أهم الاختراقات الحرِجة نحو نمط الحياة الجديد قد وقعت هناك .

بالحقيقة من الإنصاف أن نقول إنّ اقتضاءات أيّ من الحفريات الأخيرة لم تغيّر إلى هذا الحدّ ولم تحفز أفكارنا عن سير التطور الثقافي ، وقت مقاربة الفرات .

حتى هذا الوقت ، كان ماعرف عن العصر النطوفي محصوراً بشكل تام تقريباً في مواقع موجودة في المنطقة المجاورة لشاطئ المتوسط الشرقي . وإذْ يستخدم كوفان معطيات هذه المواقع ومعطيات تنقيباته الخاصة في تل مريبط ، فهو قادر على إنشاء تركيب جديد وجذّاب في مقاربة العتبة . إضافة إلى ذلك ، إنه يدفع هذا التركيب إلى ابعد بضمّه أدلة من مواقع ـ على الفرات الأوسط وإلى الغرب ـ تمّ فيها إنتاج القوت .

وسط موديلات ميكانيستية مبالغة عن كيفية إنجاز العتبة ، لممّا يثلج الصدر أن يكون لدينا تأويل كوفان مع تأكيده الانساني البارز .

ر . ج . بريدوود

توطئة

هذا الكتاب يجمع نتائج سيمينارات ماقبل التاريخ المعطاة منذ ١٩٧٦ في «بيت الشرق» . إنني مدين بشكل خاص لِـ أو . أورانش ، مسؤول مركز جان بالرن في جامعة سانت إتيان الذي نظم السيمينار الأول ، وللسيدةم . **يون** من «بيت الشرق» التي فتحت لي مجموعة بيت الشرق C M O التي تُعنى بها ، لكي يصدر هذا النص فيها . وقد احتاج تأليفه إلى اسهام السيدة **ت . ــ أوزيول** (بيت الشرق) والسيدة **ج . جيرو** والسيد **ب . يون** (سانت إتيان) الذين أشكرهم بحرارة .

حُرر المخطوط في مركز بحوث الإيكولوجيا البشرية وماقبل التاريخ في سانت أندره دو كروزيير ، حيث نلت عوناً كبيراً من **ماري كلير كوفان ودانييل ستوردور** ، في مناقشات عديدة ، من أجل ضبطه . السيد ج . **ا . دير ابراهيميان** أنشأ رسوم الإيضاح ، والسيدة **أو . بواسييه** أنشأت الدليل المؤشر ، السيدات **ج . بيرشهوف** ، **م . فاندروم** ، **ل . دريفوس** تولّيْنَ الضرب على الآلة الكاتبة : لهم جميعاً امتناني .

أخيراً أشكر زميليّ ر . ج . بريدوود و هـ . دوكونتسون على المعلومات العلمية والتصحيحات التي أفاداني بها خلال التحرير

ج . كوفان

الفصل الأوّل

عملية الاستقرار الحضري

الحقبة الممتدة من الألف العاشر إلى الألف السادس قبل الميلاد ، في الشرق الأدنى ، حاسمة . آنذاك ظهرت هناك في وقت أبكر كما يبدو ممّا في أي مكان آخر مجموعة من التغيرات أدركنا دائماً بشكل واضح نقطة انطلاقها ونتائجها ، وبشكل أقل وضوحاً بكثير أسبابها وترتيبها الخاص .

في المنطلق ، هناك القناصون ـ الجامعون في أواخر البليستوسين وبدايات الهولوسين ، وهم متنقلون إلى هذا الحد أو ذاك حسب طبيعة مواردهم ، وتتلاءم وحداتهم الاجتماعية الضيقة عددياً بسهولة مع المجال الصغير جداً لملاجئ طبيعية (كهوف وملاجئ تحت الصخور) نعثر فيها ، غالباً إن ليس دائماً ، على بقاياهم . في نقطة الوصول ، هناك القرية الزراعية المسماة «نيوليتية» ، وهي إنشاء ثابت في المجال ، حيث أن جماعة بشرية أكثر كثافة قد بنت في الهواء الطلق بيوتها وهي تنتج غذاءها وتستخدم تكنولوجية جديدة تتضمن صقل الحجر وصنع الفخار وتُمارس كما يبدو ديناً جديداً يتميّز بطقوس وفناً مختلفين .

هذا التحوّل يتراءى للنظرة الأولى بوصفه ثورة : إنها «الثورة النيوليتية» حسب غوردون تشايلد . التعبير صائب ، إذْ أنه يستحضر الطابع الشامل والجذري ، فالتحوّل المذكور يخصّ جميع وجوه حياة الزمر البشرية من اجتماعية واقتصادية وتكنولوجية وايديولوجية . لكنه غير صحيح إذا كان يتركنا نعتقد أن كل هذه التغيرات متآنية أو على الأقل متمركزة في وقت قصير .

كان هذا الظن ممكناً حين كان التحوّل النيوليتي كما أدركه الآثاريون الأوروبيون في بلادهم يقدّم كل تلك الإبداعات التي هي القرى والحجر المصقول والفخار وتدجين النبات والحيوان كأنّها متواقتة بالفعل . فالنيوليتي يظهر في الغرب «تامّ التسليح» بتضادّ واضح

وكامل مع مايسبقه : هكذا التيار الدانوبي في الألف السادس ق .م .

وإذْ وعى تشايلد منذ سنة ١٩٣٤ أن الحركة المعنية جاءت من مكان آخر وأن الشرق ـ الأدنى يقدّم عنها على أي حال صورة أبكر ، إذاً ففي الشرق الأدنى كان العالم المذكور يحدّد موقع ظهور «الثورة النيوليتية» . لكن التحريات المتعمّقة أكثر والتي أجريت منذ ذلك الحين في هذه المناطق قد غيرت إلى حد لابأس به فكرتنا عن المسار .

من جهة ، إن المسار أطول مما ظنوا ، بدءاً من البيوت الأولى المبنيّة في الهواء الطلق في كيباريّ عين جويف ، الألف الثالث عشر ق .م ، التي تشكل بداية مرئية ، وصولاً إلى قرى مثل بيبلوس (جبيل) التي تقدم أخيراً كل معايير «النيوليتي» التقليدية مجتمعةً ، لكنها ليست أسبق من الألف السادس . إذاً بين الاثنين ليس ثمة تغيّر أمام البصر بل تطوّر بطيء مواصَل على مدى عدة آلاف من السنين . هذه الظاهرة من المناسب أن تسمّى «الاستقرار الحضري» Sédentarisation إذ أن هذه التسمية تؤشّر على سيرورة تقدمية ـ تدرجية ولا تكتمل تماماً قطّ ، مادامت بعض مناطق العالم التي ظلت هامشية لاتبلغها إلاّ في أيامنا ، قصدْنا التثبت على الأرض في تجمعات من مساكن مبنيّة لجماعات أو متّحدات متزايدة الكثافة وتعيش على جوار مستقر . إن الانتهاء إلى «القرية الزراعية» يعطي السيرورة وحدتها ومعناها وأهميتها في التطور البشري ، مادامت هي في أساس حضارتنا المدينية . لكن تدريجياً قامت مؤلّفاتها ، في الشرق الأدنى .

باديءَ ذي بدء ، مع حفريات أريحا ، لاحظ العلماء كشيء مؤكد أن تجمّعاً مشيّداً منطوّراً بل وعلى الأرجح محصّناً كان يمكن أن يجهل الفخار والحجر المصقول : إنه «النيوليتي ماقبل الفخار» في فلسطين . ونعلم ، منذ حفريات بيرّو Perrot، أن قرية مستقرة يمكن أن تجهل إنتاج العيش ، وأنه بالتالي لاوجود للتواقت بين الظاهرتين الذي طالما افترضه العلماء . بل أخيراً إن الأمثلة الاتنوغرافية الحيّة وأبحاث **هول وفلانري** Flannery et Hole الأخيرة على مخلفات الألف السادس في سهل **ده لهران بايران** قد بينت أن وجود قرى ليس مرادفاً بالضرورة للاستقرار الحضري ، أي لتثبيت السكان الدائم في حضنها ، فقد لايكون حضورهم فيها إلاّ موسمياً .

إذاً ، في مناطق المشرق (سورية ، لبنان ، فلسطين) التي ازداد توثيقنا عنها الآن ازدياداً كبيراً ، سيكون علينا أن ننظر بشكل منفصل إلى ستة عوامل بوصفها «متغيّرات» أو «متحوّلات» لم تعد ترابطاتها المتبادلة ، على الأقل عند المنشأ ، بدهية «قَبْلياً» ، بل يجب أن تكون هي لبّ معضلتنا .

هذه العوامل هي :

١ ـ «الخروج من الكهوف» وتكوين تجمّعات مشيّدة في العراء (القرى) ؛

٢ ـ درجة استقرار الأهالي داخل هذه القرى ؛

٣ ـ القرية نفسها بصفتها إنجازاً عمرانياً ، تطوّر مخططاتها ودلالاته ؛

٤ ـ إنتاج العيش أو القوت ؛

٥ ـ التطوّر التكنولوجي والتقنيات الجديدة ؛

٦ ـ التطوّر الايديولوجي كما يتجلى في الفن أو الطقوس المتعلقة بالموتى .

العوامل التي عدّدناها تشير إلى سلوكات بشرية في ميادين متميّزة هي على التوالي : التجمّع ، التثبّت ، الالتجاء ، التغذّي ، التجهّز بأدوات ، الاعتقاد .

من جهة أخرى ، هذه السلوكات لاتنبسط في الفراغ بل داخل بيئة طبيعية ، هي أيضاً «فاعلة» ، تفرض فواصلها وضغوطاتها ، وتتلقى رجوعياً تغييرات . إن المنظور «الإيكولوجي» (البيئي) الذي تندرج فيه التنقيبات ماقبل التاريخية يشدّد على واقع أن السلوك البشري وبقايا الفاعليات التي يكشفها ويدرسها علم الآثار لاتعرّف سوى حدّ من حدّي حوار : الطبيعةُ هي الشريك الثاني . من وجهة النظر هذه ليس الاستقرار سوى شكلٍ جديد لهذا الحوار ، طريقةٍ مختلفة أساسياً في استعمال البيئة والتدخل فيها . لذا فتنقيبات علماء الطبيعة تجتمع بشكل وثيق مع الحفريات الآثارية بحكم التعدّد الحديث لميادين علمية متعاونة ؛ وهي لاتقل أهمية عن عمل الآثاري بالمعنى الخاص ، إذْ أنها تحلّل على «اللوحة الحسّاسة» للبيئة ، بآن معاً شروط النشاط البشري ونتائجه . نعلم ، بخاصة ، إن اختراع زراعة الأرض وتربية الحيوان ماكان يمكن أن يتمّ إلاّ في سياق ما ، مناخي ، نباتي ، حيواني ، وأن الشرق الأدنى كان يشكّل في هذه الحيثية إطاراً طبيعياً ذا امتياز . إذاً ، في الحاصل ، صار أمامنا إذا ماأدرجنا البيئة الطبيعية ، مجموع من سبعة عوامل ينبغي فحصها بحثاً عن دورها في جملة عملية التحضّر .

فالقضية ليست وصف التحضر فقط بل تعليله . كل معاينة لتغيّر إنما تقتضي الاستفهام عن أسبابه . دور «النظريات» فكّ السيرورات المعايَنة وإدخال ترتيب منطقي فيها مع تمييز العوامل الحاسمة عن العوامل المشتقة ، وتسجيل علاقات السببية و«التسلسلات» التي يمكن أن تربطها ، باختصار بدلاً من الصف الخطيّ المسطوح للوقائع الخام إنشاء الرؤية الواضحة التضاريسية لـِ «ميكانيزم» أو «آلية» .

ليس هذا الجهد النظري جديداً مادام يعرَف ، مع ملاحظة الوقائع ، المسيرة العلمية

عينها ، لكنه برز بشكل خاص في مكان الصدارة ، مع مفردات جديدة ، على يد الـ «نيوأركيولوجيا» الأميركية («علم الآثار الجديد» الأميركي) ، حيث أن «الموديل» ماهو إلاّ مراكبة منطقيّة صيغت انطلاقاً من الوقائع المعروفة أصلاً لكن حصة الفرضية والاستباق فيها كبيرة بما يكفي لفرض ملاحظات لاحقة كضرورة لروز صلاح «الموديل»[١] .

لقد أغرى التوطّن الحضري أكثر من أية ظاهرة أخرى ذكاء «الآثاريين الجدد» وازدهر «الموديل» لتعليل القرى الأولى واختراع إنتاج العيش . قاد ذلك ، كما هو طبيعي ، إلى اصطفاء بعض العوامل التي صارت مفتاح منظومة التعليل المقترحة . وسيقودنا بشكل طبيعي أيضاً ، في الخيط الصحيح لأسلوب «العودة إلى الوقائع» الذي ينادي به «علم الآثار الجديد» نفسه ، إلى وضع هذه الموديلات على محكّ امتحان أحدث الاكتشافات المحقّقة في بلاد الشام .

والحال ، إن أكثر هذه النظريات الراهنة عن التحضّر رواجاً (نقصد نظريات فلانري أو بنفورد) قد احتفظت ، جوهرياً ، بموقف تشايلد ، ألا وهو شكل ما من أشكال «المذهب المادي» الذي يضفي الامتياز ، من بين جميع العوامل ، على الحاجات الغذائية في الزمرة البشرية وعلى الموارد المتوفرة في البيئة الطبيعية ، والذي يؤوّل التغيرات في جميع الميادين الأخرى (الاجتماعية ، الثقافية ، الخ . .) بوصفها انعكاسات تكيّف ضروري يستجيب لاختلال في التوازن وقع بين ذينك العاملين الأساسيين . كان تشايلد ، كما نعلم ، يضفي الامتياز في «نظرية الواحات»[٢] على العوامل المناخية وتغيرات البيئة المحيطة بالانسان ، في حين أن بنفورد[٣] يضع التشديد على الاختلالات الديموغرافية وعلى ظاهرات الهجرة الناجمة عنها . لكننا في الحالتين نرى الجماعات البشرية المفترضة تجابه وضعية جديدة ، صادمة ومذهلة ، أي بيئة لم تعد قادرة على إطعامها ، وتتحرك بمجموع كيانها كي تحوّل بناها وتعيد التوازن . إذاً هو ذا نموذج اصطفاء نظري كنا نتكلم عنه . وبين مختلف العوامل التي تعرض نفسها للملاحظة ، يُعتبر البعض أهم من البعض الآخر في منبع «التسلسل» التطوري .

من البديهي أن النظريات وإن كانت وظيفتها ترتيب «الوقائع» فهي كثيراً ماتُميَّل بموجب الافتراضات ـ المسبقة ، الايديولوجية ، لأصحابها ، لاسيما حين تكون الوقائع

(١) Clarke, 1972 ، ص ٢ .

(٢) Childe 1952

(٣) Binford 1968

نفسها نادرة ، وجزئية ، وغير كافية . من التعليل المقترح يبرز تصوّر للانسان ، ضمنيّ أوْ لا . كان تشايلد يستند صراحة إلى ماركسية زمنه حين كان يعتبر أن «الموارد الطبيعية لمنطقة السكن» هي في عداد «قوى الانتاج المحدَّدة لبنية مجتمع من المجتمعات»[٤] . ونجد خياراً قريباً من ذلك في النظريات «البيئية» الأميركية المذكورة أعلاه ، حيث أن أفكاراً ماركسية سارت قدماً في وقت متأخر نسبياً مع مايسميّه كلْجن[٥] «التحوّل التشايلدي» الحديث العهد لعلم الآثار الغربي .

ليس لنا أن نطعن هنا في هذه الخيارات ، بل ولا أن نتساءل عمّا إذا استُخدم المنهج الماركسي استخداماً جيداً . إن هدف هذا العمل هو التوجه إلى الوقائع عينها ، التي أغنتها مؤخراً وقائع جديدة ، وامتحان صواب الموديلات المقترحة بالتماس معها . وتزيد هذا المشروع إلحاحاً ندرةُ وجزئيةُ المعطيات الخام التي بُنيت عليها الموديلات ، في البداية . وهكذا فإن ظهور إنتاج القوت في الشرق الأدنى لم يحصل إلاّ في الألف الثامن ، إذ أننا عبثاً بحثنا عنه في الألف التاسع ويبدو شيئاً محرزاً في الألف السابع . والحال ، لم يكن لدينا قبل قليل ، من أجل تقدير هذا المنعطف الذي هو الألف الثامن ، سوى حفرية أريحا الخرساء عملياً عن هذه المعضلة وبعض السبْرات المحدودة أو المشكوك فيها فوق موقعين آخرين من فلسطين . فموديلات بنفورد وفلانري مفهوميّة في شطر كبير منها ، أي مؤسّسة على افتراضات أولية غير محقَّقة عن البيئة الطبيعية نفسها وعن كيفية ارتكاس الجماعات البشرية لهذه البيئة ، على حدّ سواء . وهذا يضاعف الطابع الافتراضي على «التسلسلات» المقترحة ، لاسيما ، في تفسير ظاهرة هامة أهمية بدايات الزراعة .

والحال ، إن هذه الأهمية تتخطى كثيراً محتوى علم الآثار كميدان أو انضباط علمي محدّد ونتائجه . إن هذا العلم يحتل الآن في العلوم الانسانية مكاناً فريداً ، ولايُختصر في السعي التافه وراء وثائق متحفيّة ولا في إعادة تكوين مجانية للماضي . إن رواجه الراهن والاهتمام الذي يثيره في وسط الجمهور إنما يعكسان بالحقيقة فضولاتٍ أعمق ، عند هذه المرحلة ، مرحلة الأزمة وعدم التوازن التي وصل إليها مجتمعنا الحديث . في الوقت الذي تتصادم فيه الايديولوجيات وتقترح على مجتمعات الحاضر مستقبلاً ما ، تابعاً في كل مرة لفكرة ما عن البشرية ، قويَ لديهم إغراء تسويغ هذه الفكرة بواسطة إنشاء صورة التطور البشري التوليدية وهذا يعطي ميادينَ ـ علومَ التاريخ والحجج التي

(٤) childe 1951 ، ص ٣٥

(٥) klejn 1977 ، ص ٢٠

تقدمها كل أهميتها . إن تياري الفكر الرئيسيين في القرن التاسع عشر ثم في هذا القرن ، وهما الماركسية والتحليل النفسي ، لم يمتنعا ، بكتاب **أصل العائلة** أو كتاب **الطوطم والتابو** ، عن انشاءات تدّعي الرجوع الصاعد حتى ماقبل التاريخ رغم هزال المعرفة التي كان يقدمها علم الآثار آنذاك عن ماقبل التاريخ . إن عالم الآثار الحالي هو نفسه ، إذ يتلقى طلبات الايديولوجيات السائدة ، ينساق بشكل طبيعي كما رأينا إلى التعويض عن قلة الوقائع المتوفرة له بتسلسلات مقبولة منطقياً لكنها غير محقَّقة ، أي أنها حتماً متأثرة بالايديولوجيات نفسها .

إلاّ أن الأهمية الخاصة التي ترتديها عملية التحضر (التوطّن) والقرى الأولى تنبع من حقيقة أنها تعرض بداية ذلك التحويل للطبيعة على يد الانسان ، الذي يكفّ عن كونه نوعاً قانصاً بين أنواع أخرى ويستولي آنذاك على دوره النوعي كبستانيّ للعالم ، صائراً بذلك ، كما يقول ديكارت ، «سيّده ومالكه» .

نتائج ذلك التبدّل معروفة : إنه العالم الذي نعيش فيه . ماليس معروفاً إلى هذا الحد ، وماهو موضوع التحرّيات الحاضرة ، هو الطبيعة الحقيقية للعوامل التي ، سواء في الانسان أو خارجه ، أدّت أصلاً إلى هذا التغير للموقف .

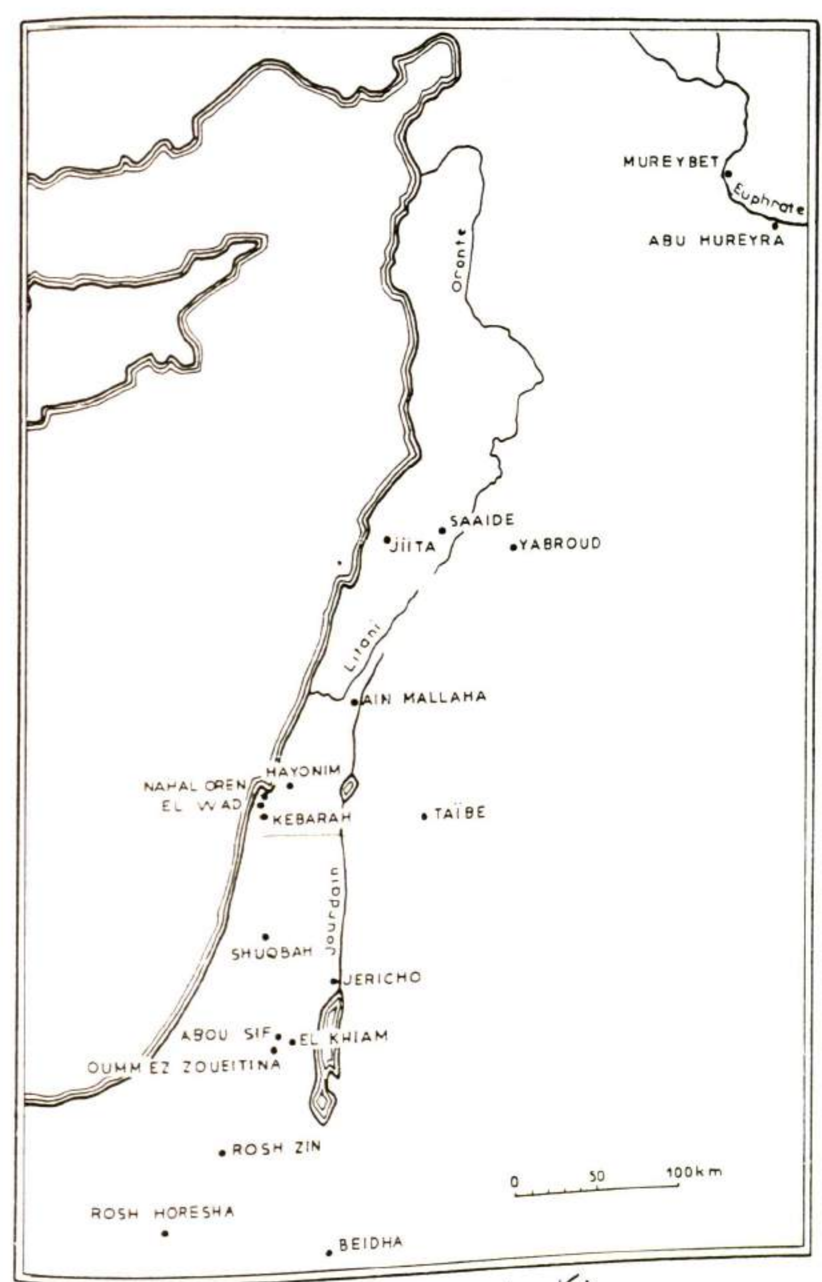
إيراداً لمثال آخر يستخدم «متحوّلين» اثنين متباعدين قَبْليّاً تباعد البحث عن الطعام لدى زمرة بشرية من جهة وجملة معتقداتها ، أي هذا الذي يضبط «وسطها الداخلي» (كما يقول لوروا ـ غورهان) بميكانزم الذاتية ـ المتبادلة ، من جهة أخرى ، نجد أنفسنا ، إذا ماسألنا علاقتهما ، أمام موقفين متناقضين تماماً : أحدهما ، وهو محسوس بشكل خاص عند بعض مؤرخي الأديان ، فإلياد Eliade، مثلاً[يخص بالامتياز جملة الطقوس التي تبدو ترافق الأشكال البدائية لإنتاج العيش ، بل وسيتكلم بعض الباحثين عن منشأ ديني لتدجين النبات والحيوان ، والآخر «ماديّ» ، يعتبر كل واقعة دينية ظاهرة ملحقة وسيرى في هذه الطقوس وهذه المعتقدات الانعكاس التدرّجي و«الثاني» لتغيرات اقتصادية . لكن يجب ألاّ ننسى أن كلا الموقفين استُمدّا بشكل خاص من تحريات إتنوغرافية على المجتمعات البدائية الراهنة ، حيث هذه الوقائع تشاهد بآن معاً دونما إشارة تُعْلم عن الترتيب الفعلي لتولّدها ، فالترتيب الذي يختاره العالم ليس في الحاصل أكثر من فرضية . وحده انضباط علمي تاريخي يعمل على مستوثقات مرتّبة فعلياً في الزمان قادرٌ مبدئياً على الحسم في قضية قيمة هذا الخيار أو ذاك .

لذا يبدو لنا أن المهمة الأولى المطلوب إنجازها قبل أي جهد تفسيري هي ترتيب العوامل المختلفة ترتيباًواضحاً دقيقاً في الزمان . إن الأسبقية المنطقية للسبب على النتيجة في

علم تاريخي منضبط لايمكن إلاّ أن تغطّي أسبقية كرونولوجية ، وقد تحدث انقلابات مذهلة إذا ماكشف تحليل أدقّ أن سبباً مفترضاً معيّناً إنما هو بالواقع لاحق لنتيجته المفترضة . حدث انقلاب من هذا النوع قبل عشرين سنة ، حين بيّن اكتشاف **عيْن ملاّحة** اسبقية القرى على إنتاج العيش الذي كان يُعتبر حتى ذلك الحين العامل الأوّل والمقرّر .

إن السؤال المطروح في تاريخ قرية واحدة تقع فيها تغيرات شتى ، هو قبل كل شيء سؤال استراتيغرافيّ (تناضديّ) وهو يحيلنا إذاً إلى تقنيات الحفر والتنقيب . وحدَهُ منهجٌ أكثر تطلّباً على الأرض من شأنه أحياناً أن يوضح الترتيب الحقيقي الذي تحصل فيه هذه التغيرات وأن يطرد بذلك عينه كثيراً من «السببيّات الزائفة» . هذا صحيح على نحو خاص في المراحل التي يتسارع فيها التطور وتقوم فيها سلسلة تعديلات تقلب رأساً على عقب وفي زمن قصير نسبياً قطاعات عديدة من حياة المجتمعات : هكذا الحال ، كما سيرى القارئ ، في القسم الأوّل من الألف الثامن في سورية .

إذاً فعملنا الحاضر لايدّعي الإتيان بأجوبة فلسفية عن المسائل المذكورة أعلاه ، حتى وإن كانت طبيعة هذه المسائل تصبّ في المرجع الأخير على أسئلة أساسية بالنسبة لثقافتنا الحاضرة . على العكس ، القضية بالأحرى هي ، بواسطة جرْد موضوعي للوقائع المتوفّرة الآن والمعاينة علْمياً ، إخلاء (أو تثبيت) عدد من هذه «القبْليات» المذهبية التي لامفرّ منها حين تكون المعطيات الوقائعية قليلة مما يجعل الفكر النظري المضارب يستبق بنجاح متفاوت نتائج المعرفة العلمية . انطلاقاً من هذا الجرد فقط قد تنفتح سبل أصيلة للتفكير النظري



شكل - ١ - توضعات النطوفيين الرئيسية

الفصل الثاني

«الخروج من الكهوف» والاستقرار : القرى النطوفيّة الأولى

إن احتلال الملاجئ الطبيعية هو أحد الملامح المميزة لحضارات الباليوليتي الأعلى كان لذلك لاريب مزايا تنتسب للمناخ ، قصَدْنا الحماية التي كانت توفّرها هذه الملاجئ إزاء مناخ أبرد من مناخنا ، لكن ذلك يجب ألاّ يُنسينا الحضور الموازي لإقامات في العراء ، اهملها علماء ماقبل التاريخ مدّة أطول لأن العثور عليها أصعب . لكن ، حين لاتنكشف هذه الإقامات الخارجية بحضور صناعات حجرية على السطح ، حينئذٍ تتوصّل وحدها تنقيبات بالغة الدقة إلى كشف تنظيم المساكن نفسها ، فهي عشكرات أو مضارب خفيفة البنى (خيم أو أكواخ نباتية) أكثر منها عمائر حقيقية وقلّما تركت آثراً .

على الأقل هذه الإنشاءات موجودة . حين سنتكلم عن «خروج من الكهوف» ، ليس ماسنستحضره إقامة جديدة خارج الملاجئ الطبيعية ، بل التخلي التدريجي عن هذه الملاجئ ، أي عن نمط سكن كان حتى ذلك الحين موضوع تفضيل مشدّد . وهنا لايبدو أن العوامل المناخية لعبت دوراً مقرّراً في هذا التخلي . في الشرق الأدنى ، بين ١٤٠٠٠ و ١١٠٠٠ سنة ق .م ، حسب الرسم التخطيطي لغبار الطلع عن بحيرة زريبار في جبال زاغروس[١] ، يتمّ تسخّن المناخ في أواخر البليستوسينية ، حين تحل مغازة شجرتي البلوط والفستق ، الدالة على سياق أكثر حرارة ورطوبة ، محل السهب البارد في الأرتيميزيا .

---

(١) van zeist 1967 . التواريخ المعطاة مبنية على كرونولوجيا الكربون ١٤ (c14) غير المصحّحة ، ككل تواريخ هذا المؤلف .

أيضاً في هذا العصر تخرج الحبوب البرية من ملاجئها الطبيعية في الحقب الباردة وتنتشر على الحوافّ الجبلية للهلال الخصيب .

والحال ، في زاغروس الشرقي عينه ، يتواصل المسلسل الباليوليتي لكهف شانيدار[٢] حتى نحو ٨٥٠٠ ق .م وجميع مواقع «الباليوليتي المضاف» المعروفة في العراق ، وإيران ، أو على بحر قزوين ، هي مواقع بكهوف أو ملاجئ[٣] .

في سورية وفلسطين ، يتوافق العصر الذاهب من ١٤٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ ق .م[٤] مع صناعات «الباليوليتي المضاف» التي تعقب الأورينياسي الأخير والمسمّاة باسم «كِباريّ» . إنها تتميّز بكثرة الميكروليتات ومنها بشكل خاص الصُفَيحات أو النصَيْلات من ذوات الظهر ، أو المجذوعة الظهر ، والمحافر الدقيقة والمثلثات . نجدها من النقب حتى لبنان وحتى الفرات شرقاً[٥] . نحو سنة ١٢٠٠٠ تعقبها في فلسطين وفي لبنان سِحنة ميكروليتية تتميّز بأشباه المنحرف ـ المستطيلات : إنه «فاليتيّ» رشت[٦] أو «الكباري ذات الهندسيّات A » حسب بار يوسف[٧] .

في معظم الملاجئ الطبيعية المنقّب فيها حتى الوقت الحاضر ، تواصل هذه الصناعات مسلسلات الباليوليتي بلا انقطاع ؛ تلك هي الحال في كباره والواد و كسار آكل .

عُثر عليها أيضاً في العراء ، بل أن موقع عين جويف I[٨] في وادي الأردن العالي اسفر عن كوخ مبني على شكل حفرة دائرية تعطي صورة مسبقة عن أكواخ النطوفي المستديرة . ولقد عُثر في عين جويف II وحوْن III على عناصر أثاث طالما اعتبروا من قَبل أنها لاتظهر إلاّ في العصر النطوفي ، ألا وهي معدّات طحن وهرس وجرش (رحيات ، هواون ، مدقّات) وأنصال ـ مناجل . وهذا يشهد ، بالأقل في منطقة الحبوب البرية ، على اقتصاد عيش يتمركز منذئذٍ ، كما في النطوفي ، على قطف هذه الحبوب .

حتى الوقت الحاضر يبقى اكتشاف عين جويف I استثنائياً ، وبما أن كوخاً مستديراً

(٢) Solecki 1963

(٣) Hours, Copeland et Aurenche 1973 ، ص ٤٤٠ ـ ٤٤٣

(٤) انظر Henry et Servello 1947 ، ص ٣٤

(٥) في نهر الحمر . انظر Roodenberg ، يصدر لاحقاً .

(٦) Rust 1950

(٧) Bar Yosef 1970

(٨) Stekelis et Bar Yosef 1965

واحداً لايصنع قرية لذا لم يخطر لأحد أن يتكلم عن «قرية كبارية» . وهذا ، شأنه شأن الاستمرار في احتلال الكهوف ، يبين أنه لم تحدث بعد اية ثورة أساسية في تصّور السكن .

«الخروج من الكهوف» في العصرالنطوفي

في تاريخ لم يُضبط بعد بشكل مقبول ، وعلى الأرجح نحو ١٠٠٠٠ق .م ، تظهر في المشرق حضارة جديدة ، يقال لها **نطوفية** ، وتدوم حتى حوالي ٨٣٠٠ . أهميتها كبيرة بالنسبة للسيرورة التي تشغلنا .

مميّزتها الرئيسية صناعة ميكروليتية ذات هندسيّات تغلب فيها الآن قِطع الدوائر ، وتنضاف إليها ميكوليتات أخرى (مثلثات مختلفة الأضلاع أو متساوية الساقين ، صفيحات ذات ظهر ، منقاشات دقيقة) بنسب متغيّرة ، وأيضاً أنصال ـ مناجل ، مكاشط ، منقاشات ، مخارز ، مثاقب ومسنّنات . ثمة تطوّر ما في النماذج يمكن أن يُلحظ ، خلال الفترة ، زهاء ٢٠٠٠ سنة ، التي عاشتها هذه الحضارة ، وإن كان هذا التطور بحاجة إلى توضيح مضبوط : هكذا يظهر أن «الرتوش» المائل على الوجهين ، الذي يقال له «حلْوان» ، لظهر الميكروليت ، يميّز المرحلة القديمة لهذه الحضارة . كذلك تكلم الباحثون عن اتجاه إلى نمنمة الهندسيّات في المرحلة الأخيرة بينما تزداد نسبة المنقاشات الدقيقة والمخارز[٩] .

بيد أن هذه الصناعة الحجرية ليست إلا عنصراً بين عناصر في جملة معقدة من العوامل الحضارية تشمل الأثاث الثقيل المتمثل في معدّات الطحن أو الهرس أو الجرش ، والصناعة العظميّة ، وأحياناً تحفاً فنية من الحجر أو العظم ، أغراضاً شتى للزينة من الحجر أو العظم أو القواقع ، والحضور الذي بات شائعاً لبنى منشأة (أكواخ مستديرة ، صوامع) ولمدافن فردية أو جماعية . بار يوسف اقترح إذاً الاحتفاظ بتسمية «النطوفي» للحضارة الفلسطينية وحدها التي تقدّم معظم هذه الخصائص مجتمعة ، بينما تكون الصناعة الحجرية نفسها ، المعثور عليها منفردة ، تميّز في سورية أو في لبنان أو في النقب حضارة مختلفة يدعوها «الكباري الهندسي B » . لقد سبق أن شدّد علماء[١٠] على التناقض الموجود بين

(٩) Neuville 1951; Cauvin M - C. 1974b; Henry 1973

(١٠) Hours, Copeland et Aurenche 1973 ، ص ٤٥٨

هذا التفريق الحضاري الذي يخص الحيّز الفلسطيني وحده بالنطوفي وواقع أن الصناعة الحجرية عينها حين يُعثر عليها منفردة في فلسطين بالذات تؤوّل على أنها هنا سحنة خاصة ، موسمية وعابرة ، للنطوفي . هذه الرؤية تنقضها من جهة أخرى الاكتشافات الأخيرة التي جرت في لبنان وفي سورية ، فقد وجدوا مع هذه الصناعة أثاث طحن وهرس وجرش في حوران - موقع طيبه[١١] ، في لبنان - موقع سعيده II[١٢] وموقع جعيته III[١٣] ، وعلى الفرات . ولقد اسفر الفرات ايضاً ، في أبو هريرة[١٤] أو مريبط[١٥] ، عن بنى منشأة وعن صناعة عظمية مع أغراض اشتهرت بأنها جدّ مألوفة لدى النطوفيين ألا وهي المزدوجات الرأس والسلاميات المثقوبة . أخيراً بدأنا نسجّل بعض المؤشرات على أن تطوراً من نوع واحد يمكن أن يكون قد حصل في فلسطين وعلى الفرات داخل الحضارة النطوفية انطلاقاً من قاع كباريّ واحد[١٦] . إذاً ، الفكرة التي يقترحها **هورس وكوبلاند وأورنش**[١٧] والقائلة بوجود قاعدة حضارية وحيدة تمتد في ذلك العصر من النيل إلى الفرات مثبتة الآن ، بدون خسارة للخصائص الخاصة التي تنوّع النطوفي إلى سحنات إقليمية متميزة .

ولئن أمكن حدوث ترددات حول النّسب الحضاري للصناعات ذوات القِطع فذلك مردّه ، كما رأينا ، إلى بعض التنوع أو التغير في سياقها ، ولاسيما إلى الأنماط المختلفة جداً في احتلال المجال التي يكشفها حضور هذه الصناعات . كذلك تمّت اكتشافات النطوفي الأولى في كهوف أو ملاجئ ، في منطقة القدس أو على جبل الكرمل . لكن وقائع جديدة عديدة باتت مشهودة .

من جهة ، إن الاحتلال الكهفي لاينحصر في السطح المحمي بل يفيض بشكل أوسع من الأمس القريب على المجال الطلق الذي يمتد أمامه ، تحتلّ شرفات أو مصاطب مع آثار كثيرة لتسويات : تلك هي الحال في منطقة القدس بالنسبة للشرفات الصغيرة في موقع

(١١) Cauvin M - C. 1974b

(١٢) schreder 1970

(١٣) Hours 1966

(١٤) Moore, Hillman et Legge 1975

(١٥) Couvin J . (α) ، يصدر لاحقاً

(١٦) cauvin M - C. (a) ، يصدر لاحقاً

(١٧) 1973 ، ص ٤٥٨

أم الزويتينة أو موقع **طور أبوسيف**[١٨] . وهي الحال بشكل خاص في جبل الكرمل وفي الساحل الفلسطيني : **في موقع إلواد**[١٩] جرى تدبير الشرفة التي مساحتها ٥٠٠ م٢ بتسوية الأرض وحفر الصخر ، ويبدو جدار مستدير الشكل (تصوينة) من بلوكات كبيرة يحدّ حيّز السكن ؛ كذلك ، في شقبة[٢٠] ، في هايونيم[٢١] ، نجد شرفات رحبة محتلة على مساحة حوالي ١٠٠٠م٢ . والأمر كذلك في وادي الفلاح[٢٢] . وحده كهف كباره[٢٣] يبدو يجهل هذا «التجاوز» ، لكن هذا الكهف الواسع بشكل خاص (٢٠٠م٢) كان يؤلف بمفرده مساحة كافية للسكن ؛ وكذلك الحال بالنسبة لملاجئ تحت الصخور مثل يبرود III، في سورية ، حيث يمكن لزمرة بشرية أن تنمو على راحتها بدون أن تفقد مزية الحماية الطبيعية .

الواقعة الثانية الهامّة هي تكاثر المناجم في الأرض المكشوفة ، بما لايقاس مع ماكان موجوداً في العصر الكباري . هنا تُميّز محطاتٌ صغيرة تحصد فيها الصناعة الحجرية وحدها في السطح وتؤوّل بوصفها محطات انتقالية لصيّادين ، ومناجم أكبر شأناً تُسفر عند التنقيب عن كونها تجمعات حقيقية من أكواخ مستديرة وتُعتبر «معسكرات قاعدة» .

من الصعب جداً أن نعيد إنشاء صورة ماذا كان يمكن أن يكون في لحظة معطاة الاتساع الحقيقي لتلك القرى الأولى ، فالتنقيب لم يحرّر إلى الآن سوى مساحات متواضعة بالقياس مع الاتساع الإجمالي للمنجم . هكذا في عين ملاّحة[٢٤] ، التي بدأ فيها الحفر منذ سنة ١٩٥١ ، تمّ حتى هذا اليوم تحرير حوالي عشرين من الأكواخ الصغيرة «نصف - المدفونة» ، لكن توجد حسب فالا[٢٥] أربعة مستويات احتلال ولم يجر التعرف حتى الآن إلاّ على مسكنين متزامنَيْن فعلاً . يبقى أن المساحة الاجمالية للمنجم تبلغ ٢٠٠٠ م٢ وأننا إذن بشكل مؤكّد إزاء تجمع سكني حقيقي .

(١٨) Neuville 1951

(١٩) Garrod et Bate 1937 . لا يوجد اي شيء على شرفة **إلواد** أقدم من **النطوفي** .

(٢٠) Garrod 1942

(٢١) Henry et Davis 1974

(٢٢) Stekelis et Yizraely 1963 ; Noy, Legge et Higgs 1973

(٢٣) Turville - Petre 1932

(٢٤) Perrot 1966 a

(٢٥) Valla 1975

في النقب يمتد منجم رأس زين ، حيث حُررت خمسة بيوت بيضوية الشكل[٢٦] ، فوق ٩٠٠م٢ ، ومنجم رأس حريشة[٢٧] حيث لم يطل التنقيب سوى بيتين يمتدّ فوق ٣٠٠٠م٢ . لنذكر أخيراً في فلسطين الآثار الغامضة لعمائر نطوفية حددت فوق مساحات صغيرة في قاعدة البيضا أو أريحا .

على الفرات ، توجد قرى نطوفية بوضعيّة حُفر مستديرة في قاعدة أبو هريرة والمريبط . في كلا الحالتين لم يتمكّن العلماء من تحديد الاتساع الحقيقي لهذه التوطنات الأصلية بشكل مضبوط .

إذاً ففي العصر النطوفي تنطلق في بلاد الشام ظاهرة «الخروج من الكهوف» بالمعنى الذي اعتمدناه لهذه العبارة . رأينا أن الكهوف لم تهجر بعد كما سوف تهجر في الألف الثامن : ثمة استمرارية حضارية ما انطلاقاً من القاع الكباري الذي يبدو أن النطوفي ينبثق منه ، تؤمن بقاء الجماعات العديدة في الأماكن ذاتها التي كان الباليوليتيون يحتلونها في حينهم . إن فيض المنشأة خارج الحيّز المحمي باحتلال الشرفة وتدبيرها لايعني موقف هجر إزاء السكن القديم بقدر مايعني عدم كفايته لاحتواء زمرة بشرية أكبر مماكانت في الماضي .

بموازاة ذلك تظهر القرى الأولى التي هي جديدة في المواقع التي تقيم عليها ولاتعقب أي احتلال سابق . ويكون وادي الفلاح على جبل الكرمل حلاً متوسّطاً إذا صحّ أنه ، عدا عن القرية PPNA و PPNB (النيوليتي ماقبل الفخار : A و B) ، توجد أيضاً أكواخ مستديرة نطوفية ، أي توجد قرية أمام الكهف[٢٨] . ربما كان الأمر كذلك بالنسبة لموقع الخيام[٢٩] في منطقة القدس ، وإنْ لم يُعثر فيه حتى الآن على أي بيت .

داخل الـ ٢٠٠٠ سنة التي دامها النطوفي ، قلما يكون ممكناً في الوقت الحاضر تتبع تدرّج في تطور ، عملية «الخروج من الكهوف» هذه . أجل ، إن قرى العراء في النقب وفي الفرات تتراءى جميعاً تنتمي لنطوفيّ حديث نسبياً تحمل فيه الميكروليتات جميعاً «رتوشات» حادّة . لكن قرية عين ملاّحة ، على الأقل بمستوياتها الدنيا حيث القِطع ذات رتوشات «حلوان» ، تنتمي للنطوفي القديم ، وبالمقابل إن المستوى B الأوّل في **إلواد** واحتلال **طور أبو سيف** هما من نموذج كهفي وإنْ كانا ، تعريفاً ، حديثي العهد .

(٢٦) Henry 1975 a

(٢٧) Marks 1975

(٢٨) Stekelis et Yizraeli 1963 ، ص ١١

(٢٩) Parrot 1951 ; Echegaray 1966

معايير الاستقرار الحضري

إذاً كانت توجد قرى في العصر النطوفي . أما المفاجأة حين اكتشف بيرّو عين ملاّحة فكانت أن علماء الطبيعيات لم يجدوا فيها أي أثر لزراعة ولا لتربية حيوان[٣٠] . أصبح يجب القبول ، ضد كل توقّع ، بأنّ ظهور تجمعّات مبنيّة لم يكن نتيجة لإنتاج القوت ، بل كان قد سبقه ، مع ابقاء اقتصاد القنص ـ القطف التقليدي .

هل كانت بذلك قرى حضريّة ؟ أي بعد تأييد ثبات المنشأة نفسها ، هل كانت هذه الأخيرة يحتلها بشكل دائم سكّان مستقرّون ؟ هذا السؤال الهامّ يبرّره وجود منشآت قروية موسمية في الوقت الحاضر أيضاً ، يثبته علم الإثنوغرافيا .

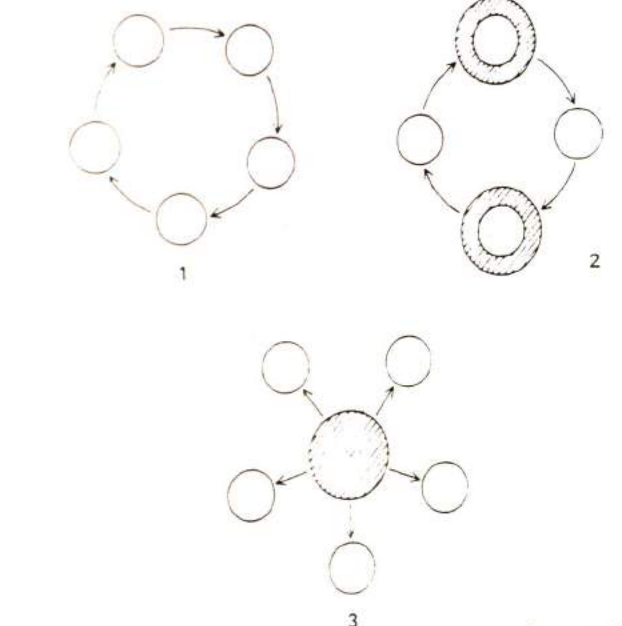
إن كون العديد من علماء ماقبل التاريخ يفضلون كتسمية لهذه التجمعات تعبير «معسكرات القاعدة» على تعبير «القرى» يعكس على نحو لابأس به عدم يقينهم في هذا الصدد . بالفعل إن «المعسكر» (Camp، «مخيّم») سواء أكان «معسكر قاعدة» أم لم يكن ، يستحضر ليس فقط بعض الخفّة في البناء بل شيئاً عابراً وموقّتاً في الاحتلال نفسه ، وإن كان هذا الاحتلال يُعتبر هنا أكثر دواماً منه في المحطات الانتقالية التي يوضع إزاءها في تقابل أو تعارض .

بالحقيقة ، إن مورتنسن[٣١] ، إذ يقترح موديلاً لتمفصل مختلف نماذج المساكن ماقبل التاريخية بالارتباط مع حركات السكان المحتملة ، يؤيد إمكانية مخططين متميزين ، أحدهما دائري والآخر إشعاعيّ (الرسم ٢) . في المخطط الأوّل ، ليس «المعسكر القاعدة» ، في حركة التنقلات السنوية للسكان سوى محطة أكثر طولاً وأفضل تنظيماً من المحطات الأخرى : الشكل الأبسط هو التناوب بين معسكر صيفي ومعسكر شتوي . في المخطط الثاني ، ذي البنية الاشعاعية ، يخدم معسكر قاعديّ واحد كنقطة انطلاق وحيدة لمختلف الحملات الغذائية ، ويستحق عندئذ فقط أن يُعتبر منشأة دائمة حقاً . بل ومن الممكن ، حتى في هذه الحال ، أن نتصور حلولاً جدّ متنوعة تبعاً لاختلاف حجم أجزاء السكان التي تشارك في الحملات خارج «المعسكر» وتبعاً لاختلاف بُعد وطول هذه التنقلات .

من السهل نسبياً ، كما يرى القارئ ، تكثير المخططات النظرية ، ومن الممكن أن

(٣٠) Ducos 1968

(٣١) Mortensen 1972



الرسم ٢ ـ نماذج منشآت ماقبل التاريخ (حسب موزتنس) : ١ ـ حركة سنوية دائرية ؛ ٢ ـ معسكرات قاعدة شبه دائمة موسمية التناوب ؛ ٣ ـ قرية دائمة .

تُبسط فيها صرامة شكلية كبيرة . لكن يبدأ الارتباك ، ومعه الغموض ، لدى «العودة إلى الوقائع» ، أي حين يسعى عالم الآثار المتقابض مع منجم معيَّن وراء معايير عينية ستمكّنه من ربط المنجم المعني بهذا الموديل أو ذاك .

قبل أن نطرح على أنفسنا هذا النوع من المعضلات بصدد القرى النطوفية ، يجدر إبداء ملاحظتين .

من جهة ، إن معضلة الاستقرار الحضري لاتنطرح فقط إبتداءً من النطوفي ، بل هي تُذْكَر نظامياً وبحقّ عن مساكن الباليوليتي الكهفية نفسها ، التي يمكن أن تكون هي ايضاً دائمة أو موسمية أو متقطعة[٣٢] . عندئذ تحيل المعضلة على طبيعة وتوزع الموارد البرية التي تعيش عليها الزمرة البشرية والتي تأذن لها أو لاتأذن بالبقاء طوال السنة في الموقع نفسه ،

(٣٢) Bordes, Rigaud et Sanneville - Bordes 1972

سواء أكان المحيط الحيواني الذي يوفّر تموّنها الجوهري بلحوم الصيد البري يبقى ثابتاً[٣٣] أو أن موارد مناوَبة وموسمية لكنها وافرة هي أيضاً تكفل على نحو آخر تمويناً ثابتاً وإن كان متّوعاً . وليست المعضلة ، كما سيرى القارئ ، مختلفة بشكل أساسي حين نطرحها بالنسبة لقرى الصيادين ـ القاطنين ـ صيادي السمك ، الأولى ، فيما عدا أن الزمرة القانصة هنا هي ، بحكم التعريف ، أكبر .

الملاحظة الثانية تتصل ، تاريخياً ، بتطبيق مفهوم «معسكر القاعدة» على مواقع ماقبل التاريخ في الشرق الأدنى . هذا المصطلح ، الإثنوغرافي المنشأ ، أدخله هنا **هول و فلانري** أوّلاً ، بصدد أقدم مواقع سهل **ده لوران بإيران** ، في مرحلة **بوز مورده**[٣٤] . على هذه المواقع ، تظهر بادئ ذي بدء بنى منشآت موسمية الاحتلال ، أما احتلالها الدائم فلا يسبق مرحلة **علي كوش** . من هنا الفكرة ، الصالحة لهذه المنطقة ، والقائلة بسكان نصف ـ بداة يحتلون احتلالاً موقتاً التجمعات الأولى المبنية («معسكرات قاعدة») قبل تثبتهم النهائي في قرى حضرية حقيقية .

إلا أنه من المناسب التأكيد على أن أنصاف ـ البداة المعنيين ليسوا قناصين ـ قاطفين ، بل في هذه البداية للألف السابع التي تعود لها مرحلة بوز مورده ، تحرَّكَ إنتاج القوت ليس فقط في شكل بداية زراعة بل خاصة في شكل تربية لماشية صغيرة . من المعلوم أن التربية البدائية لأنواع جَمْعيّة (قطيعيّة) ليس مرتبطاً في المنطلق بالاستقرار الحضري بل يفترض على العكس حركة ترحال للزمر البشرية بمرافقة القطعان التي تعيش عليها . إن طبيعة الموارد الرئيسية هي التي فرضت على المربين ـ الرعاة في سهل ده لوران ضرورة التنقل . وليست حركيتهم إذاً ظاهرةً «أولى» ، بل بالعكس يمكن أن تكون مشتقة من سيرورة «تحوّل نيوليتي» متمركزة هنا حول حياة الرعي ، على سبيل الأفضلية .

تختلف المعضلة تماماًحين نتناول القناصين ـ القاطفين النطوفيين في بلاد الشام ، وهم أقدم بألفين من السنين . لأنْ تكون القرى هنا أيضاً سُميّت «معسكرات قاعدة»[٣٥] يعكس عدم يقين حول درجة ثبات الزمر أكثر مما يعكس تأكيداً حقيقياً لحركيتها . بالفعل من الصعب الإتيان بالدليل على أن منشأة من القناصين ـ القاطفين حاضرة مستقرة . لدينا على

(٣٣) تلك تكون الحال في منطقة البيريغور Perigord (فرنسا) الباليوليتية لو لم تكن حيوانات الرنة تقوم هنا بهجرات موسمية . انظر Bouchud 1959

(٣٤) Hole, Flannery et Neely 1969

(٣٥) Bar Yosef 1970

الأكثر مؤشرات مباشرة أو غير مباشرة ، وتأويلها موضع إشكال إلى هذا الحد أو ذاك وينتهي في أفضل الأحوال إلى تخمينات قوية . هذه المؤشرات أركيولوجية (آثارية) وإيكولجية (بيئية) .

المؤشر الأول ، الآثاري ، هو تطورّ المعدّات الثقيلة (معدات هرس وجرش) ، آنية طعام حجرية . . .) ويبدو وزنها نفسه يستبعد حملها من قِبل زمر متنقلة . هذه المعدّات الثقيلة تدخل في تعريف «معسكرات القاعدة» النطوفية حسب بار يوسف .

هناك من ثم كل المنشآت الثابتة التي يدعوها بنفورد[٣٦] ، وراء الجغرافي فاغنر ، «تسهيلات» (FACILTIES, Commodités) بمعارضة «الأدوات» (implements, outils) ، أي كل هذا الذي يخدم ليس في نقل القدرة من فاعل إلى آخر أو من مكان إلى آخر ، كما هو شأن الأدوات ، بل في خزنها ومنع نقلها : هكذا الهواون الدائمة المحفورة في صخر عين ملاّحة والصوامع الجرَسيّة الشكل في الموقع نفسه والحفر ـ المواقد في مريبط النطوفي الخ . . .

وأخيراً هناك البيوت نفسها التي تزيد تخميننا عن الاستقرار الحضري بما يتناسب طرداً مع متانتها ومع الكدح المعماريّ الذي فرضه تشييدها[٣٧] ، وباختصار مع كل هذا الذي يبعدها عن «الملاجئ الخفيفة» التي بسهولة بالغة يهجرها ويعيد بناءها قوم رُحّل .

يبقى أن كل هذه المؤشرات الآثارية التي تشهد بالتأكيد على سكن مديد قلّما تتيح لنا أن نخلص إلى أكثر من «درجةٍ ما في الاستقرار الحضري» كما يقترحها **فالاّ** بحذر[٣٨] . عدا عن أن الهجر الدوري الكامل للمنشآت حتى المتينة البناء لايمكن استبعاده تماماً (ثمة أمثلة إتنوغرافية معروفة) ، فإنه توجد أيضاً ، نظرياً ، حلول مختلطة شتى ، يقضي فيها قسم من السكان متفاوت الحجم جزءاً من السنة في مكان آخر ، ولايترك عند الحدّ الأخير في الموقع سوى حراسة متواضعة قدْ لاتكفي لجعلنا نتكلّم عن جماعة حضرية مستقرة .

المعضلة تُنقل عندئذٍ إلى هذه التنقلات ذاتها وإلى ضرورتها ، الأمر الذي ينتسب إلى الايكولوجيا ، ميدان علاقات الكائن الحيّ مع البيئة الطبيعية . إن المنهج الإيكولوجي

(٣٦) ذكره Flannery ، 1972 ص ٢٦

(٣٧) انظر لاحقاً (الفصل الثالث ، تل مريبط ، الرسم ٧) .

(٣٨) Valla 1975 ، ص ٦٣

(البيئي) يمكن أن يُسهم إسهاماً غير مباشر في تقدير درجة تحضر موقع وذلك بواسطة جرد الموارد المتوفّرة حوله وإمكانية العيش على هذه الموارد طوال السنة دونما اضطرار لهجرة موسمية .

من الضروري في سبيل ذلك عدم الاكتفاء بموارد المنطقة الايكولوجية بالمعنى الواسع بل يجب النظر في المحيط القريب من الموقع والذي يمكن أن تُعقد معه علاقات فعلية[٣٩] ، وهذا مايسميه البعض «إيكو مِشْكاة» الموقع ، أو «كوّته الحيا بيئية» . وبالفعل إن إحدى الملاحظات الأكثر خصباً التي أُنشئت في هذا الصدد هي أن مواقع القنص ـ القطف ، والقرى النطوفية بشكل خاص ، هي في الغالب غير نموذجية في منطقتها[٤٠] ، أو هي قائمة عند مفصلة عدة مناطق ، وذلك لكي تتوفر لها في محيطها الخاص مجموعة من الموارد النباتية والحيوانية المتنوعة أكثر مايمكن . بما أن سافانا السنديانة وشجرة الفستق هي القاع المشترك لهذه المستوطنات جميعاً ، لذا فالقرى النطوفية قائمة على نحو متكرر في السهل ، لكن عند قَدَم جبال (عين ملاّحة ، أريحا) ، على ضفاف بحيرات (عين ملاّحة) أو مجاري مياه دائمة (مريبط ، أبو هريرة) ، في واحات (أريحا) ،الخ . . . ، وذلك لكي تنضاف إلى حبوب وحافريات السهب الخاصة بمجموع منطقتها كل الموارد المائية وطرائد غابيّة . بالنسبة لمواقع النقب ، هنري[٤١] يلحّ أيضاً على أهمية «الميكروبيئات» الكثيرة ذات الموارد المتنوعة التي تسهّل وجودَها أرض متعرّجة .

إذاً ، فدراسة هذه البيئات الخاصة شيء لاغنى عنه ، شرط تجنب بعض التجاوزات[٤٢] . والتحري الايكولوجي يمكن أن يكون هو نفسه غير إجرائي وقد ينتهي إلى فرضيات مجرّدة ، إذا لم يجابه على وجه التحديد بمعطيات التنقيب نفسه عن الاستثمار **الفعلي** للبيئة على يد رجال ماقبل التاريخ . وهكذا بناءً على معاينة وجود «إمكانات» أو «طاقات» متكاملة ، أمكن اقتراح[٤٣] تناوب موسمي بين احتلال كهوف

(٣٩) Binford 1968 ، ص ٣٢٣

(٤٠) نفسه .

(٤١) Henry 1973 ، ص ٢٠١

(٤٢) إن «عملية تحليل مواقع القنص» التي وضعها فيتا ـ فنزي وهيغس (سنة ١٩٧٠) تمثل جهداً منهجياً مثيراً للاهتمام هدفه تحليل «طاقة» محيط معيَّن من الموارد تبعاً لتفاوت إمكانية الوصول الى هذه الموارد. الاّ ان النتائج المحدّدة والمرقّمة التي ننتهي اليها على هذا النحو تبقى صعبة الاستعمال لعالم ما قبل التاريخ ، نظراً لكثرة الطرق المختلفة ، والناتجة في كثير من الأحيان عن خيارات ثقافية ، في استثمار (أو إهمال...) «طاقة» معطاة .

(٤٣) Vita - Finzi et Higgs 1970 ، ص ٢١

جبل الكرمل وكهف هايونيم أو راكفيت ، وهذا ليس مستحيلاً لكنه يبقى قليل التدعيم بملاحظات مباشرة أكثر .

ماذا عن القرى النطوفية حيث يقدم علم الآثار كما رأينا عدداً أكبر من التخمينات لصالح الاستقرار الحضري ؟

إن حضور هذه القرى على ضفاف مياه مستديمة هو بحد ذاته ، كما شدّد بنفورد[٤٤] ، عامل هام للاستقرار ، إذْ أن الصيد المائي يشكل هنا مورداً دائماً . فالنطوفيون في الواقع صيّادون . وقد أسفرت عين ملاحة على بحيرة الحولة عن بقايا وافرة من الأسماك والقشريّات والقواقع . وتستفيد مواقع الفرات من المزية نفسها : في مريبط جُمعت كمية كبيرة من الأسماك (سلّور ، كبيت) في المرحلتين الأولى A والأولى B وكذلك بعض قواقع المياه العذبة «(أونيو» ، «ميلانوبسيس»)[٤٥] .

فضلاً عن ذلك ، إن ضفاف المياه ، وهي أغنى من السهب المحيط بالنبات الشجري ، تؤلف حيّزاً حيوياًخاصاً لبعض الطيور (غشائيات الأرجل) واللبونات (الخنازير ، الأيْليات) المتميّزة عن حيوان السهب (الغزلان ، الأبقار ، الخيليات) وحيوان الجبل (الماعزيات) وهما أيضاً يجذبهما الماء في فصل الجفاف . إذاً فإمكانات القنص مضاعفة هنا وكل هذه الأنواع ممثّلة إلى هذا الحدّ أو ذاك في بقايا الحيوان الملتقطة في التنقيبات .

أخيراً ، بما أن قطف الحبوب البرية يبقى مورداً جوهرياً ، لنذكّر بأن عين ملاحة موجودة في منطقة القمح النشوي والشعير البرّي ، ولنذْكر أيضاً ، كما بيّن سيمس[٤٦] ، أن قرب الجبال ، إذْ يمدّد في الزمن ، تبعاً للارتفاعات ، فترة نضج الحبوب ، يتيح بدون تخطي مسافة خمسة كيلومترات حول الموقع ، الاستمرار مدّة تصل إلى حوالي شهر كامل في حصاد كان لن يدوم فيما لو جرى في الأرض المبسوطة أكثر من أسبوع .

على الفرات الأوسط ، يبدو القمح البري قد اختفى في أيامنا ، لكن حضوره مؤكّد في العصر النطوفي ، في مريبط[٤٧] وفي أبو هريرة[٤٨] ، ومعه شعير برّي ونباتات غذائية أخرى متنوعة (عدس ، بيقة ، «سيتاريا» ، الخ) .

---

(٤٤) Binford 1968 ، ص ٣٣٢

(٤٥) انظر Cauvin J . (a) ، يصدر لاحقاً .

(٤٦) إبلاغ شخصي : Simms

(٤٧) إبلاغ شخصي : Van Zeist

(٤٨) حسب هيلمان ، في Moore, Hillman et Legge 1975 ، ص ٧١ - ٧٢ .

نحن إذاً أمام طاقة من الموارد ليست غنية فقط ومتنوّعة وممتدة بشكل جيّد على فصول السنة ، بل مستعمَلة فعلياً من قبل سكان القرى المعنية .

إذاً ، رغم الاقتراحات الحديثة بأن نرى في عين ملاحة منشأة موسمية فقط[٤٩] ورغم مواقف الشك التي يحتفظ بها باحثون آخرون ، يبدو أنه لامجال للرجوع عن رأي بيرو[٥٠] الذي جعلها قرية مستقرة وأن النتيجة عينها تفرض نفسها فيما يخص موقعي الفرات حيث جاء التحريّ البيئي يدعّم بشكل كاف تخمينات علم الآثار . أولئك السكان لم يكونوا متنقلين لأنهم لم يكونوا بحاجة إلى ذلك ، أو على الأقل يجب التوضيح وضبط ماذا يُقصد بالمصطلح المستخدم : أجل كانت القرية نقطة انطلاق لحملات غذائية بالقدر الذي لم تكن فيه الموارد المعنيّة متمركزة في الضواحي المباشرة للسكن كما هو الحال بالنسبة لقرى المنتجين حيث هذا التحديد لمكان القوت هو من صنع الانسان نفسه . كانت هذه الموارد منتشرة في مختلف أرجاء المحيط حيث كان يجب الذهاب بحثاً عنها . من هنا فعلاً سعيٌ ما متنقلٌ ، يمكن أن نتصوّر ، وراء فلانري[٥١] ، أنه تنقّل زمرة صغيرة جداً مؤلفة من شخصين أو ثلاثة أشخاص وتتوزع الإقليم كما هي العادة في الجماعات التي تعيش على الجمع ، سواء كانت قروية أو لا .

لكن ليس في ذلك مايشبه انتقالاً موسمياً وجماعياً : لقد بيّنا بصدد مريبط[٥٢] أن سكان هذا الموقع ماكانوا ليجدوا على مسافة ٢٠٠ كم من حولهم ماهو أفضل من السهب المقطوع بتلال طبيعية والذي كانوا يستثمرونه في موقعهم ذاته . بالمقابل هناك خصوصيةٌ جيولوجية ، وهي حضور مصطبة من الصوّان الإيوسيني محدّدة الموقع في أسفل السفح الصغير الذي أقام فيه النطوفيون ، كانت تبرّر بشكل كاف إقامتهم الأصلية وبقاءهم في هذا المكان المحدّد .

إذاً في عصر القرى النطوفية الأولى مازال الاستقرار الحضري لايخصّ سوى السكن والنشاطات المنزلية . أما استثمار المحيط فيبقى «متحركاً» ، أي خاضعاً لحركية الموارد وتناثرها الطبيعي . لكن : في المناطق التي كانت فيها الموارد على مايكفي من الوفرة والتنوّع مع التكملة الآتية من المنتجات المائية والمثبتة دوماً تقريباً بالشواهد ، بات هذا

---

(٤٩) Vita - Finzi et Higgs 1970 ، ص ٢١

(٥٠) Perrot 1966 a ، ص ٤٧٧ ؛ Perrot 1974 ، ص ٤٨٦

(٥١) Flannery 1972

(٥٢) Cauvin J . (a) ، يصدر لاحقاً .

الاستقرار مسموحاً به لزمر بشرية أوفر عدداً مما كانت في أمس قريب ، ولم تعد تكفيها الملاجئ الطبيعية . فالقرية هي فعلاً الواقعة الجديدة ، أي الظاهرة الاجتماعية ـ الديموغرافية التي توسّع التساكن في موقع واحد إلى عدد أكبر من الأفراد .

وفي هذا الوسط الجديد ، الذي ظهر في العصر النطوفي ، حيث اجتمع اثنان من المتحولات الستة التي عددناها ، وهما القرية والاستقرار الحضري ، ستتحقق الآن التحوّلات التي كان وحده قادراً على السماح بها : من جهة ، تحسين السكن المبنيّ ، ومن جهة أخرى نماذج جديدة من النشاطات ، كزراعة الأرض .

الفصل الثالث

تطوّر العمارة :
من النطوفيّ
إلى منتصف الألف الثامن

في أصل البيت المعمّر نجد الحفرة المستديرة . إن فكرة بناء جدار مَشكن على سطح الأرض لاتبدو تفرض نفسها في الحال ، ربما بسبب نقص المهارة .

أوّل «بيت» معروف في بلاد الشام ، وهو بيت عين جويف I في الكباري[١] ، هو حفرة دائرية محفورة في أحد المنحدرات ، معززة بتصوينة نصف دائرية من الأحجار الجافة بارتفاع ٤٠ سم . هكذا فالوظيفة الأولى لـ «الجدار» بوصفه تكديساً مرتباً من مواد تبدو وظيفة تدعيم .

والأمر كذلك حين يقوم النطوفيون بتمهيد الشرفات أمام الكهوف . من جهة إن عملهم الأول لإعداد سطح مستوٍ هو حفرهم فيه جيوباً ، ليست بالضرورة للسكن نفسه : هكذا «الحوضان» ، المستدير والكِلوي ، المحفوران في الصخر عينه ، الذي سُوّي بـ «المنقر» ، في مصطبة **إلواد**[٢] . من جهة أخرى ، بما أن هذه السطوح المستوية تمتدّ بوجه عام أمام الكهف بمنحدرات قوية ، لذا لاتوجد وسيلة أخرى ، إذا ماأرادوا تدبير ملاجئ على المنحدر ، سوى أن يقطعوه إلى عدّة مساطح أفقية مدرّجة ، مع تأمين القطعات

---

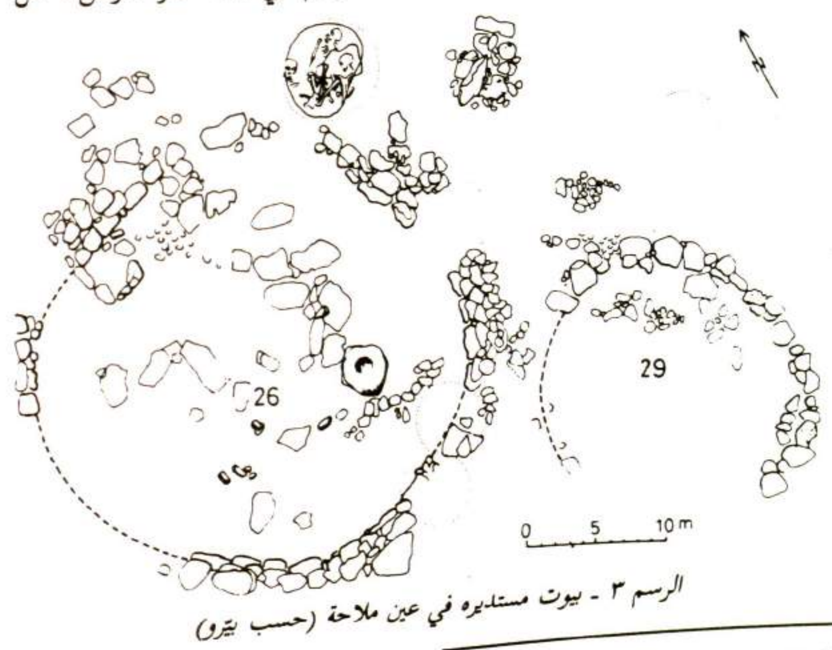
(١) Stekelis et Bar Yosef 1965

(٢) Garrod et Bate 1937

العمودية بواسطة تَكديسات حجرية . هكذا يبدو الحال في وادي الفلاح النطوفي حيث يشير **ستيكليليس ويسرائيلي**[٣] من جهة إلى مسكن بيضوي الشكل ، ليس أسلوب تشييده واضحاً ، ومن جهة أخرى إلى «معسكر» أقدم ، طول قطره من ٧ إلى ١٠م ، مسوَّر من جهة الشمال ، وهي جهةُ عاليةِ المنحدر ، بتصوينة من الأحجار الجافة والملاط المكرّر الاستعمال ، بينما يكون الجزء الجنوبي ، في سافلة المنحدر ، قد اندثر . ليس في هذا تناقض مع تأويل هذا الجدار من قبل بيرو[٤] الذي يعتبره «جداراً داعماً» ، فالمسكن نفسه ، ويشهد عليه وجود موقد ، يمكن أن يكون هذا «الجدار» بآن واحد حائطاً يحدّه وضامناً له ضد انهيار الأراضي المشجوجة .

القرية النطوفية

في حال القرى المنشأة في الأرض المكشوفة ، التي يكون الانحدار فيها أقل اذا وُجِدَ، تُصبح مهمّة النطوفيين الأولى من أجل إقامة بيوتهم هي أيضاً حفر الأرض . كل



الرسم ٣ - بيوت مستديره في عين ملاحة (حسب بيرو)

(٣) Stekelis et Yisraeli 1963

(٤) Perrot 1968 col. 367

بيوت عين ملاّحة[٥] هي بحفر دائرية (انظر الرسم ٣) ، والبيوت الاكثر قدماً هي الأكثر كبراً من ٧ إلى ٩ أمتار) ، والأحدث يتراوح قطرها بين ٣ و٤ أمتار . «الحائط» أو الجانب الداخلي لهذه الحفر يُحافِظُ عليه «جدار» من أحجار أو بلوكات بلا مالِط ولا طلاء كُدّست في عدّة طبقات وصفّ واحد مع بعض الميلان من الخارج إلى الداخل تبعاً لحائط الحفرة الموسّع قليلاً (الملاجئ رقم ٦٢ و٢٦ و٥١) . في الملجأ رقعطية الحسينم ،٢٩ الذي ينتمي على الأرجح للمرحلة الأقدم ، تؤدي طبقة واحدة من «البلاطات» المنتصبة والمعززة ببلوكات صغيرة مهمة المحافظة على «حائط» الحفرة . إن أجهزة الدعم هذه يتراوح ارتفاعها بين ٥٠ سم (الملجأ ٢٩) و ١,٢ م (الملجأ ٦٢) ، وهي ارتفاعات تعرّف على الأرجح الأعماق الأصلية للحفر التي كان من المفترض أن لاتتخطاها الجدران وتطفو فوقها . بالفعل إن واحداً من هذه البناءات ـ الحفر ، وهو الملجأ رقم ١ كان حائطه غير المعزّز بجدار مغطّى لأكثر ، في قسمه المحفوظ ، بطلاء طيني ـ رملي مصبوغ بالأحمر ، على عمق ٤٠ سم : الطلاء يتخطى إلى خارج الحفرة ويشكل «مثابة» عرضها ٧٠ سم ، هي بدورها محدَّدة (محاطة) جزئياً بحجارة من الخارج فهي إذاً تعرّف تماماً مستوى الأرض خارج الملجأ عند احتلالها .

أخيراً أتاحت حملة ١٩٧٥ على هذا المنجم اكتشاف **فالاّ** ، في ملجأ جديد دائري بحفرة (رقم ١٣١) محُرّرة على ربع مساحته ، وبصف دائري أيضاً يضم ستة أوتاد (أعمدة) ، تتروح المسافة الفاصلة بينها بين ١م و ١,٥ متر ، قطرها ٢٠ سم ، مرتبة «على قوس دائرة لها مركز واحد مع الدائرة التي يؤلفها جدار المسكن وعلى مسافة متر واحد تقريباً أمام المسكن»[٦] . إن صلابة هذا الجهاز تؤكد صلابة السقف الذي كان عليه أن يتحمله .

تكشف قاعدة أريحا النطوفية عن آثار لتسوية[٧] لكن ليس عن بيت بالمعنى الخاص . في قاعدة البيضا ، في شرقي الأردن ، توجد حفرة كبيرة غير منتظمة حفرت في الرمال وفرشت بالحصى ، مجتمعة مع بعض الصناعة من النطوفي القديم[٨] .

(٥) Perrot 1966 a ; Valla 1975 ، ص ٥٣ ـ ٥٧

(٦) Perrot 1974 ، ص ٤٨٥

(٧) Kenyon 1960 . المقصود سطح بيضوي الشكل تحده بلوكات وملاط مكرر الاستعمال .

(٨) Kirkbride ، ص ٢٦٤ . في صفحة تالية (٢٦٥) يذكر الكاتب كوخاً مستديراً في حفرة يُعتبر هو أيضاً «ميزوليتياً (أي من العصر الحجري الوسيط) ، أنشئ بـ «قطع الآجر النيء» : لكن كما يبدو لسنا أمام آجر حقيقي بل أمام «لبن» ركب بكتل متتالية .

تنتمي قرى النقب للنطوفي الحديث . هناك في الجزء من رأس زين الذي تناوله التنقيب[٩] ، إن حوض طبيعي في الصخر ، طول قطره حوالي ٨ أمتار وعمقه ٥٠ سم في مركزه ، هو الذي شكل ذي بادىء كما هو[١٠] ، ثم بُلّط على مساحة ٦ م ،٢ وأخيراً قُسّم إلى اربع بُنى بيضوية الشكل طول قطرها من ٢ ٥, إلى ٣ م ، تحدّها حجارة . هذه الحجارة ليست في مكانها إلاّ على قاعدة واحدة ، استثنائياً اثنتين : بموجب ، الحجارة ، المنهارة ، والتي تحيط بها ، يستنتج المنقّب أن «الجدران» الأصلية كان يمكن أن تشتمل على ثلاث أو أربع قواعد من الحجارة الجافة : هذا معناه أنها كانت بالأصحّ «جُدَيرات» وأن الأجزاء العلوية كانت هنا أيضاً من مادّة أخرى . في رأس هريشة ، لاتوجد بعدُ معطياتٌ عن البنى المعمّرة ، فيما عدا أنها دائرية أو بيضوية[١١] .

على الفرات في أبو هريرة ، لم يتردّد النطوفيون في حَفْر الأرض الصخرية ، المؤلفة، أجلْ ، من الطباشير الليّن ، ليُقعدوا ملاجئهم في حفر طول قطرها ٢,٥ م وعمقها ٧٠ سم[١٢] أقيمت هي نفسها وراء «مقعد» طبيعي مرتفع كان يقيها من الريح وكانت عدّة مواقد موجودة عند أسفله . حول هذه الحفر تدل ثقوب الأوتاد وهي كثيرة على أن هذه البنى كانت مسقوفة . وقد ظهر للمنقبين أن ارضية الحفر مفروشة بالعتاد الثقيل (رَحيات ، رُحيّات ، مدقّات ، هواون) والأدوات المتنوعة .

في المريبط[١٣] ، لم يُبلغ النطوفي بحصر المعنى (المرحلة الأولى A) إلا على مسافة محدودة (٣٥م^2) ، وقلّصتها هي نفسها حفريات لاحقة : لم يُسفر إذاً إلاّ عن بضع نتف من أرضية قائمة ، صُنعت من الطين المكمَّل ، وثلاث حفر - مواقد . لكن بعد ذلك مباشرة ، في المرحلة الأولى B «النطوفية الفوقية» التي تمد النطوفي إلى حوالي ٨٣٠٠ ق .م ، يوجد بيت مستدير كبير (هو البنية رقم ٣٧) قطره ستة أمتار ومكوّن من حفرة عمقها نصف متر وحائطها المحيط دُعِم بأوتاد ضامّة مغطاة هي نفسها في الداخل بطلاء من الغضار سمكه ١٠سم وكان ذلك بمثابة «جدار صغير» حقيقي[١٤] ، محفوظ تماماً

---

(٩) Henry 1976

(١٠) مع حفر لفجوة صغيرة واحدة («هاون» ثابت) .

(١١) Marks ، ص ٣٥٦ - ٣٥٧ ؛ التواريخ بالكربون ١٤ : ٨٥٤٠ و ٨٩٣٠ ق م .

(١٢) عُثر على خمس حفر من هذا النوع في المساحة التي شملها التنقيب وهي ٤٩ م^2 . انظر Moore, Hillman et legge 1975 ، ص ٥٦ - ٥٨

(١٣) Cauvin J. (a) ، يصدر لاحقاً .

(١٤) Cauvin J. 1973

على طول ثلاثة أمتار . من جهة أخرى ، لدينا ، على القسم المحفوظ ، الدليل على أن الطين لايرتفع فوق مستوى الأرض خارج الحفرة ، فالطلاء ينتهي عند قمتها بسطح مستوٍ أفقي مُلّس بعناية . بتعبير آخر ، وحدها الأقسام المخشوشبة من البناء كانت تطفو فوق الحفرة ، وهذا ينضم إلى المعاينات المحققة في عين ملاحة . أرض البيت من الغضار المكمّل وممّلسة . وقد عُثر على «جرن» محفور في عجيرة كبيرة على السطح .

هكذا «البيوت» التي يمكن وصفها عن العصر النطوفي . إن مايميّز مجموع هذه البيوت ، مع ترتيبها العام في حفر ، محفورة أو طبيعية ، هو إذاً التدبير المعتني بكل ماتحويه الحفرة نفسها : تدعيم الحوائط بالحجارة أو بالخشب ، تلييسات جدارية (عين ملاحة ، المريبط) ، صباغات (عين ملاحة) ، أرضيات «مبلّطة» (عين ملاحة ، رأس زين ، البيضا) ، أو طلاءات (المريبط) : ذلك كله يساهم ، مع المعدّات أو الأثاثات الثقيلة الحاضرة في جميع المواقع ومجمل المنشآت الثابتة المستعملة لغير المساكن والمحيطة بحفر السكن[١٥] ، في إعطائنا الشعور بوجود حياة أهلية منزلية منضجة ومتقدمة منذئذٍ . بالمقابل ، يبدو أن غياب (أو ندرة) الوثائق المتعلقة بالقسم الطافي فوق الحفر هو الذي دفع ، في تقارير التنقيبات ، إلى كثرة استعمال عبارات : بنى فوقية أو غطاءات «خفيفة» ، والذي أنبت شكوكاً حول الدوام الفعلي لهذه التجمعات السكنية .

لنلاحظ مع ذلك أن ندرة المؤشرات الخاصة بهذه البنى الفوقية معناها في أقصى حدّ أن هذه البنى كانت فانية . أجل كانت «أخف» مما تكونه جدران من الحجارة أو من الآجر ، لكن درجة هذه الخفة هي نفسها موضع إشكال : أوتاد عين ملاحة تستحضر ، كما يشدّد بيرو[١٦] ، عملاً بنائياً قوياً وصلباً . أوتاد البنية رقم ٣٧ في المريبط أكثر نحالة لكنها متلاصقة : لئن كان الطلاء الداخلي يتوقف عند سطح الحفرة ، إلاّ أن حباكاً متيناً كان يطفو فوقها مكوّناً حائط المسكن في العراء .

يبدو إذاً أن للوقائع المعاينة دلالة تكنولوجية بشكل خاص : لم يمتلك النطوفيون الإنشاء الثقيل بالحجارة إلاّ على نحو محدود . تُعزى إليهم «جدران» ثم يمكن أن نستغرب كيف لاترتفع هذه الجدران أكثر ، لكن مهارتهم في هذا الميدان تبدو جدّ متواضعة : حين تكون هذه «الجدران» في السطح ، نحن بالحقيقة ، كما في **إلواد** أو أريحا ، إزاء صفّ من البلوكات المدفوعة جنباً إلى جنب لتشكّل حدّاً أكثر منه حاجزاً أو حائطاً . وحين

---

(١٥) صوامع جرسية الشكل ومطلية الحواف (ملاحة) ، هواون ثابتة (راس زين ، ملاحة) ، حفر - مواقد (مريبط) ، أحواض متنوعة محفورة في الصخر (أبو هريرة ، ملاحة) ، مهد حجريّ معمّر (ملاحة) .

(١٦) Perrot 1974 ، ص ٤٨٦

يشار ، في ملاحة ، إلى وجود تكديسات من الحجارة تفوق طبقتين أو ثلاث ، فإن هذه الجدران هي بالحقيقة أجهزة دعم بلا ملاط مسندة على حاجز ترابي ، ولعل الغرض منها تأمين بعض المواءمة الصحية داخل المساكن أكثر مما هو تمتين المجموع فعلياً[١٧] .

إذاً كان للقرى الأولى ، في العصر النطوفي ، بيوتٌ من الخشب ، راسية بقوة على بنى تحتية قائمة تحت الأرض[١٨] . رأينا أننا لانعلم إلاّ القليل عن الاتساع الحقيقي لهذه التجمعات . أما ترتيب البيوت بعضها نسبة لبعض ، فيبدو حسب عين ملاحة أو أبو هريرة ، إنها كانت متقاربة جداً لكن غير متلاصقة ، فالحفر المتعاصرة قلما تتقاطع . انها مشتل متماسك من أكواخ مستديرة نجهل حسب أية مبادئ كانت مجمّعة ، تتخللها مساحات فيها مواقد غير المواقد التي نجد أحياناً في البيوت ، وفي عين ملاحة ، صوامع تحت الأرض كانت ربّما جماعية الاستعمال ، تلكم هي الصورة التي يمكن أن نحفظها عن القرية النطوفية .

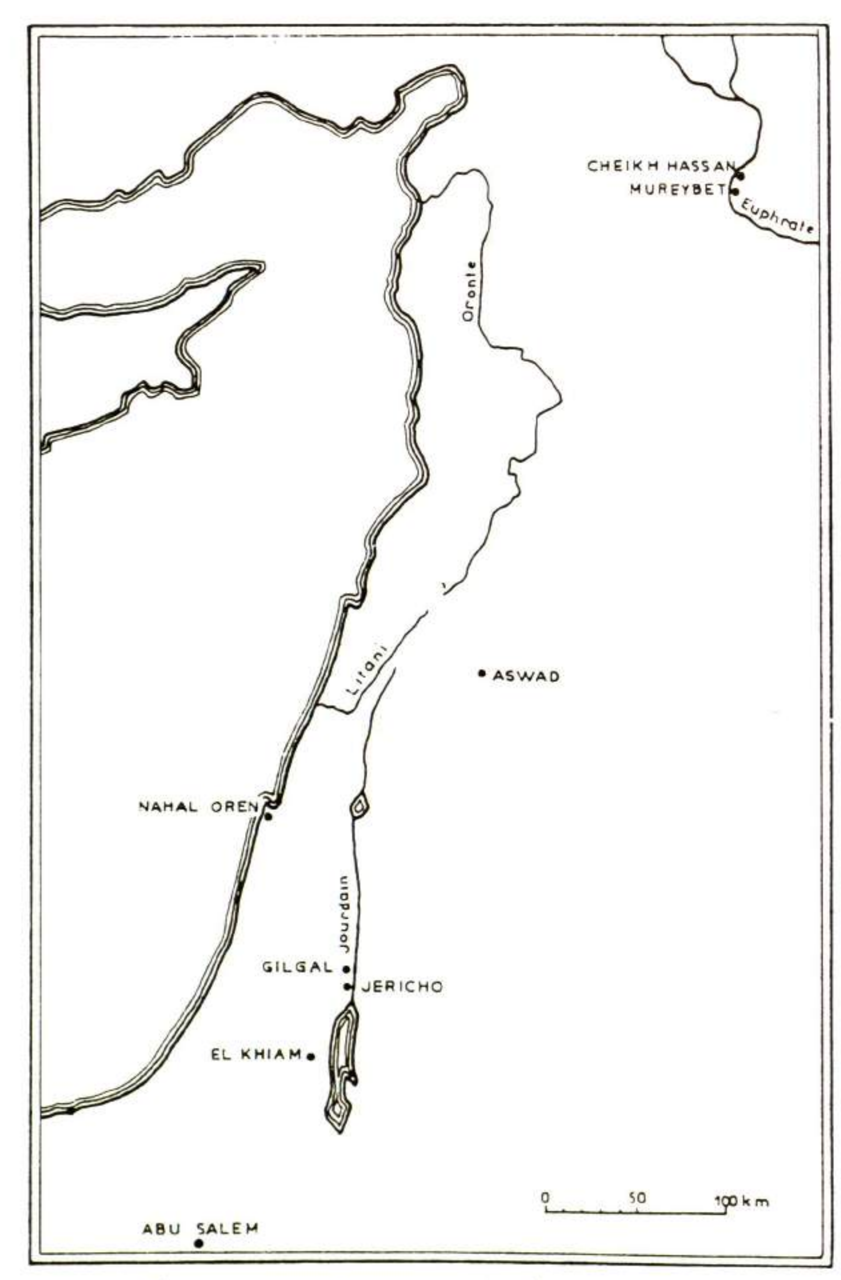
إن هذا الوسط القروي البدائي ، الذي مازال في ماقبل الزراعة ، هو ماسنراه الآن يتطور ويتحول .

التحوّلات المعمارية في عصر النيوليتي ماقبل الفخار A

سندرس الحقبة الذاهبة من حوالي ٨٣٠٠ حتى ٧٦٠٠ ق .م بوصفها كلاً واحداً . إنها تتوافق مع النيوليتي التمهيدي ومع النيوليتي ماقبل الفخار A في أريحا عموماً ومع المرحلتين الثانية والثالثة في مريبط . كانت ، حتى لبضع سنوات خلت ، الحقبةُ المجهولة في ماقبل تاريخ المشرق إذْ لم يكن لدينا سوى الوثائق (المستندات) المنشورة عن أريحا ، وهي مذهلة لكنها قليلة . مع أن هذه الحقبة ، التي تندرج بين حضارتين قرويتين متضادتين تضاد تجمعات الأكواخ المستديرة للصيادين - القاطنين النطوفيين من جهة وقرى المنتجين وجميعها تقريباً ذات بيوت مستطيلة في عصر النيوليتي السابق للفخار B من الجهة الثانية ، ماكان يمكن إلاّ أن تتراءى ، بصورة قبْلية ، حقبةً ذات أهمية رئيسية بالتغيرات الحاسمة التي لابدّ أنها تحققت أثناءها . في الوقت الحاضر ، إن بعض الاكتشافات الجديدة في فلسطين وبشكل خاص الحفريات الأخيرة في سورية ، سواء في غوطة دمشق أو على الفرات ، تتيح فهم تلك الحقبة على نحو أفضل (الرسم ٤) .

(١٧) الهيئة «الحوضيّة» لحفر السكن مع حوافّها الموسّعة بعض الشيء ضمان أفضل ضد الانهيار : سنصادفها مرة أخرى في مريبط III .

(١٨) في عين ملاحة كان الهيكل على ما يكفي من المتانة ليتحمل الاقتضاء سقفاً من التراب المصلّب . انظر Perrot 1976 ، ص ٤٧



خريطة تبين التوضعات بين ٨٣٠٠ - ٧٦٠٠ قبل الميلاد

حتى وقد أُغنيت على هذا النحو ، تبقى الوثائق نادرة . إن لائحة المناجم المعروفة في مجموع المشرق أصغر بكثير من لائحة العصر النطوفي[١٩] . أجل ، تضم هذه الأخيرة عديداً من المحطات الثانوية الشأن ، المؤوّلة على أنها محطات صيد ، وكثيراً من المناجم الكهفية . وعلى هذين الصنفين يقع جوهرياً انخفاض عدد المواقع ، الذي من شأنه أن يعطي ، إذا ماقارنّا خرائط التوطنّات ، انطباعاً عن حدوث إفقار ديموغرافي إجمالي كبير .

أولاً هجر الكهوف : السيرورة البادئة في النطوفي تتجذّر . فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة جداً[٢٠] ، تُهجر الكهوف تماماً . على الساحل ، لايبقى أي شيء ، في كباره ، في هايونيم . وادي الفلاح ، حيث لم يعد الكهف نفسه محتلاً ، تُبسط في النيوليتي السابق للفخار A المنشاة القروية التي كان النطوفي على مايبدو قد دشنّها على شرفة الكهف . ونجد نفس التخلي عن كهوف بادية منطقة القدس ، باستثناء شرفة الخيام .

الأغرب أن نعاين أن قرى أسست في النطوفي نفسه على تلال جديدة تماماً لم تعد محتلة بعد النطوفي : تلك حال ملاّحة ، قرى النقب مثل راس زين وراس حريشة ، البيضا ، حيث يكون الموقع مهجوراً حتى النيوليتي السابق للفخار B[٢١] ، بل وأريحا ، إذا صحّ أن الاحتلال الأساسي ينتمي للنطوفي القديم[٢٢] ، وهذا يفترض فجوة كبيرة قبل وصول النيوليتي السابق للفخار A. هكذا أخيراً على الفرات حال أبو هريرة التي لن تعود إلى الحياة إلاّ في الألف السابع .

هذه الهجرات وهذه الانقطاعات ، وكذلك كون أريحا النيوليتي ـ التمهيدي ، التي يعود تاريخها كما يبدو لأواخر الألف التاسع ، لم تُسفر عن ميكروليتات ، يمكن أن تجعلنا

(١٩) ستكون أكثر عدداً ما أدخلنا في هذه الحقبة محطات السطح العديدة ، «الطاحونية» ، في منطقة القدس ، نموذج طنطور (Mallon 1925) .

(٢٠) المستوى B الاول في **إلواد** ، حسب حضور بعض رؤوس الأسهم وحسب الكربون ١٤ (٧٨٤٥ ق م)، يبدو يحوي عناصر من النيوليتي السابق للفخار A . توجد أيضاً مستوطنة من هذه الحقبة في كهف ناشاريني الصغير ، في جبال لبنان الشرقية ، لكن السياق الجبلي والهامشي لهذا الموقع يمكن ان يعلّل هذا النمط السكني العتيق (Schroeder 1976) .

(٢١) علماً بأن وضعية البيضا غير واضحة في هذه الحيثية : يبدو ان هناك توطناً لم يحدد بعد حصل بين النطوفي والمستوى السادس من النيوليتي السابق للفخار B : إنه المستويات ٩ ـ ٧ ، وهي قليلة الأدوات .

(٢٢) يدفع الى هذا الافتراض وجود خطاف من العظم وقطعة «حلوان» ، وكذلك التأريخ بالكربون ١٤ وهو ٩٢١٦ ق م .

نعتقد باندثار مفاجئ للحضارة النطوفية وبانطلاق جديد مع أناس آخرين . ثمة بعض الاستمرار للتقليد النطوفي في النقب فقط مع المواقع «الحريفية» المؤرخة ، حسب قرية أبو سالم ، من ٨٣٠٠ إلى ٨٠٠٠ ق .م ، حيث تنضاف سهام إلى صناعة القِطع ، والتي لايبدو أن لها هي نفسها بالمكان ذرّية مباشرة .

مع ذلك يمكن لمواقع أخرى أن تذهب ضد هذه الاستنتاجات ، وأن تشهد على بعض التواصل بين النطوفي والنيوليتي السابق للفخار A: إنها ، من جهة ، ربّما ، وادي الفلاّح والخيام ، وقد سبق أن ذكرناهما[٢٣] . ثم قرية جلجال ، التي حفرها نويْ مؤخراً في وادي نهر الأردن ، لكن ليس لدينا عنها سوى قليل من العناصر إلى الآن .

بالحقيقة ، حتى الوقت الحاضر ، وحدها المريبط تشهد على «مرور» متصّل ومتدرّج من النطوفي الحديث إلى الألف الثامن[٢٤] . سنترك إذاً ، نظراً لعدم توفر حجج حاسمة ، مسألة «النقل الثقافي» في فلسطين نفسها ، لنصف التجمعات الجديدة التي كشفتها الحفريات في الحقبة المعنية .

القرى غير كثيرة لكنها معبرة : إنها في وادي نهر الأردن أريحا وجلجال ، على الشاطئ وادي الفلاح ، في النقب أبو سالم . في سورية ، إنها تل أسود في غوطة دمشق ، المريبط والشيخ حسن على الفرات .

أريحا

كان لاكتشاف أريحا النيوليتي السابق للفخار A[٢٥] صدىً مستحقّ ، نظراً لمهابة العمارات التي أخرجت إلى النور . لكن قبل النيوليتي السابق للفخار A نفسه وبحصر المعنى ، حدد كِنيون في مكان واحد من التل ، على استبار لِـ ٥م^2 فقط ، آثار احتلال سابق ، أضيق ، يقال له «نيوليتي تمهيدي» Protoneolithic. لم تحرّر أية بنية عند الحفر

(٢٣) استمرار الاحتلال في المكان الواحد مؤشر أوّل على ذلك . لكن المصاطب الشديدة الانحدار التي تميز هذين الموقعين تسهّل عمليات الترسّب وتمازج الصناعات ومن الصعب استخلاص حجّة موثوقة من استمرار الميكروليت في المستويات الحديثة .

(٢٤) الهندسيات النطوفية للمرحلة الاولى A تستمر في ملحق نطوفي المرحلة الاولى B حيث تظهر السهام الأولى . وهذه تتكاثر في المرحلة الثانية حين تصبح الهندسيات استثنائية .

(٢٥) Kenyon an 1960

(٢٦) الهامش مفقود في النص الأجنبي .

التنقيبي ، الضيّق جداً ، لكن كان يميّز على المقطع «تعاقب من سطوح لاتعدّ تقريباً» متراتبة عمودياً وتنتهي ليس بجدران بل بـ «حدبات صغيرة» (lumps) يؤوّلها المنقّب بأنها قاعدة انشاءات خفيفة ، تُعزى بطبيعة الحال لأقوام من البدو الرّحل . لنلاحظ ببساطة أن بقايا الانشاءات في المرحلة الثانية من مريبط ، التي ليس من موجب لاعتبارها خفيفة بشكل خاص[٢٧] ، كثيراً ماتمثل على المقطع مع أرضياتها الغضارية الخفيفة المعاد صنعها مراراً ومع قواعد جدارية مدمرّة في الطرفين ، تماماً كما يضعها كنيون هنا . من الأفضل إذاً ، بناءً على هذه الوثائق الوحيدة ، أن لانكون قطعيين بصدد الطابع المتنقل لهؤلاء «النيوليتيين البادئين» .

يقدر أن النيوليتي السابق للفخار A نفسه[٢٨] يغطي ثلاثة هكتارات : وصلوا إليه عن طريق الخنادق الثلاثة المفتوحة فوق التل ، في أقسامه الشمالية والجنوبية والغربية . البيوت هنا ، كما في النطوفي ، دائرية ومدفونة . يتم بلوغها من الخارج بواسطة منحدَر أو مندرَج صغير . ينتصب جدار على محيط الحفرة : إنه هنا مصنوع من قطع الآجر النيئ الطويلة في شكل الخبز الفرنسي ويحتوي أيضاً على عناصر خشبية .

لكن العمارات الأكثر تعبيراً ليست إنشاءات لاستعمال فردي : يوجد في أريحا النيوليتي السابق للفخار A برج كبير من الحجارة ارتفاعه ٨,٥ م ، عرضه عند القاعدة ١٠م ، مع درَج داخلي ، يصل إلى قمته ، مؤلف من ٢٢ درجة . يوجد من جهة أخرى ، سور يستند على البرج وهو أيضاً من الحجارة ، عرضه ٣ أمتار وارتفاعه ٣,٩٠م ، وقد حرّر على امتداد ٨أمتار طولاً . ويُعتقد أنه عثر على هذا الجدار مرة أخرى ، بعرض أقل ، في الخندقين الآخرين ، الشمالي والجنوبي ، ويؤوله المنقب بأنه تحصين دفاعي أوّل . بينما لاحظ بيرو[٢٩] أنه بما أن البرج ناتئ على الداخل وليس على خارج الجدار وبما أن جواره سرعان مايحتقن بـ «صوامع» أو بيوت تسدّ النفوذ إليه وتغرقه تدريجياً ، لذا فإن الدور الدفاعي لهذا المجموع ليس جليّاً . مهما يكن من أمر ، نحن إزاء عمل جماعي هام يفتح منظورات على تنظيم جماعي ـ متحدي لنشاطات القرية ، كما يشدّد كنيون بحقّ .

المعدات المعثور عليها في النيوليتي التمهيدي وفي النيوليتي السابق للفخار A، ولم

(٢٧) انظر لاحقاً ، المريبط ، الرسم ٧ .

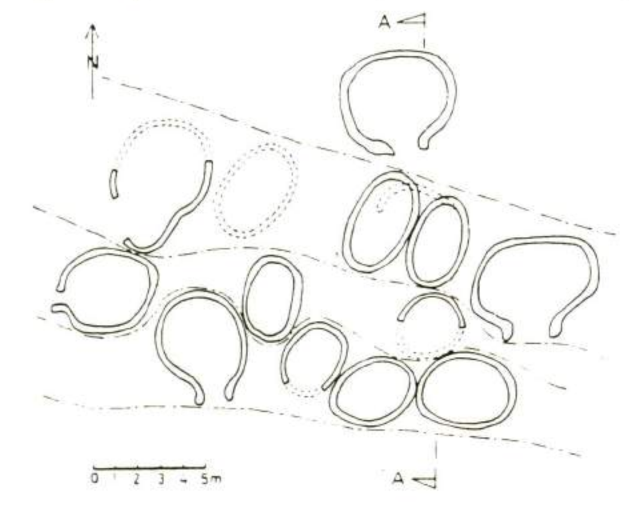
(٢٨) يمكن الاحتفاظ بسبعة تواريخ كربون ١٤ عن النيوليتي السابق للفخار A . هذه التواريخ تمتد من ٨٣٥٠ ق م الى ٧٦٢٠ ق م . انظر Henry et Servello 1974 ، ص ٣٧ .

(٢٩) Perrot 1968, col.368

تُنشر إلا جزئياً[٣٠] ، تتميّز على مايبدو بوفرة القاطعات المزدوجة الوجه لكن السهام نادرة جداً والميكروليتات غائبة : يكون هذا العتاد بعيداً إلى حد كاف عن النطوفي[٣١] وقلّما يبدو آتياً منه . مع ذلك ، كما رأينا ، يبقى السكن ، فيما عدا الاستعمال الجديد لقطع الآجر النيئة في خط بيوت النطوفي المستديرة ، إلى حد لابأس به .

جلجال

على مسافة ٢٠ كم فقط شمال أريحا ، اكتُشفت وثائق جديدة ، لاسابق لها فيما يتعلق بالأهم ، على يد نويْ[٣٢] التي نَسبتْها إلى الأفق الزمني للنيوليتي ـ التمهيدي .





الرسم ٥ ـ مخطط قرية وادي الفلاّح ، النيوليتي السابق A (حسب ستيكليس ويزرابلي)

(٣٠) Kiskbride 1960

(٣١) أدوات «تمهيد النيوليتي» التي عُثر عليها قليلة ولا تسمح باستنتاجات صالحة .

(٣٢) Noy 1976

المقصود قرية حُدّد فيها حوالي ١٢ بيتاً مستديراً أو بيضوياً ، بجدران من الحجارة ، وقد تمّ التنقيب في واحد منها فقط . عُثر فيه[٣٣] على أثاث ثقيل وعلى سهام عديدة ذات فُرَيضات وقاعدة مجذوعة ورتوشات حادّة («رؤوس الخيام») .

السهام هي تلك التي ترافق عادةً كما يبدو في مريبط الأول B والثاني في وادي الفلاح[٣٤] والخيام[٣٥] ، الصناعات المشتقة مباشرة من النطوفي في أواخر الألف التاسع . حضورها في جلجال ، بالقرب من اريحا وعلى نفس الأفق ، يطرح مسألة تجانس ثقافات وادي الأردن في العصر النيوليتي السابق للفخار A.

وادي الفلاح

نقّب ستيكليس ويزرايلي[٣٦] في شرفة نحال أورين (وادي الفلاّح) على مساحة كبيرة ، لم يجدا أقل من أربعة عشر بيتاً في المستوى الثاني المنسوب للنيوليتي السابق للفخار A (الرسم ٥) . لما كان الموقع ينحدر بقوة من الشمال إلى الجنوب ، فقد هُيّئت أربع مصاطب مدرّجة ، وبينها تتوزع مساكن ، دائرية أو بيضوية ، يتراوح طول قطرها بين ٣ و٤م . لهذه البيوت المتقاربة جداً والمتلاصقة أحياناً ، جدار من الحجارة محفوظ أحياناً حتى ارتفاع متر واحد . ويلاحظ أن الجدار المشترك يخدم بآن معاً كحائط شمالي لبيت يقع على المصطبة الدنيا وكحائط جنوبي لبيت أعلى منه . بالتالي ، فالجدار الواحد له في قسمه الأسفل وظيفة إسناد للأراضي المقطوعة ، كما في النطوفي ، لكن لابدّ أن يطفو في العراء في طبقاته العليا لكي يحدّ المسكن الآخر . بوجه أعمّ ، كما هو طبيعي على منحدر شديد ، إن البيت الواحد نفسه كان لابدّ أن يكون مدفوناً باتجاه الأعلى ومبنياً في الهواء الطلق باتجاه الأسفل ، وهذا يتطلّب تقنية عمار أكثر إنضاجاً وقدماً منها في النطوفي .

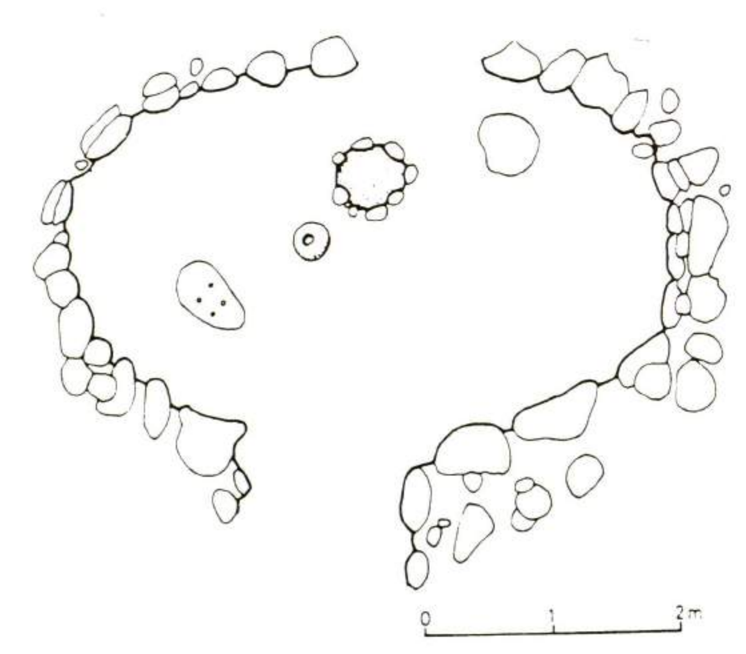
أرضية البيت مطلية بالغضار ، مع موقد تحدّه أحجار وبلاطات قِمعيّة وأثاث ثقيل

(٣٣) Nosy . إبلاغ شخصي .

(٣٤) Nosy, Legge et Higgs 1973

(٣٥) Eckegaray 1966

(٣٦) Stekelis et Yisraely 1963



الرسم ٦ - بيت مستدير من النيوليتي السابق للفخار A في وادي الفلاح (المرجع المذكور) .

(الرسم ٦) . يقع المدخل على سبيل الأفضلية في الجنوب أو الجنوب الغربي ، أي نحو أسفل المنحدر . وكثيراً مايؤكّد بتوسيع مزدوج لجدارِ البيت يرسم «دخلة» قصيرة ، وهذه خاصية نجدها في مريبط الثاني .

أبو سالم

قرية **أبو سالم** موجودة في النقب الأوسط . تأريخها هو أواخر الألف التاسع[٣٧] ، أي أنها تبدأ على أفق مريبط الأول B، وتمثل درجة ثقافية مكافئة لها ، لكنها تتواصل حتى نحو ٨٠٠٠ ق.م ، بموازاة مريبط الثاني ، وهي أيضاً على الأرجح معاصرة لجلجال وللنيوليتي التمهيدي بأريحا .

(٣٧) كربون ١٤ : ٨٠٢٠ و ٨٢٨٠ ق م (Henry et Servello 1974 ، ص ٣٧)

جرى التنقيب على مساحة ٢٣٤ م٢ أي حوالي ١٤,٥٪ من الموقع ، فأسفر[٣٨] عن ثلاثة بيوت بيضوية طول قطرها ٣ ـ ٤ م ، وعن بنى دائرية أخرى أصغر ، يتراوح طول قطرها بين متر ومترين . للبيوت جدار من الحجارة سمكه من ٢٥ إلى ٥٠ سم ومحفوظ حتى ارتفاع ٥٠ سم . يستعملون أحجاراً صغيرة أو بلوكات كبيرة ويملؤون الفجوات بالوحل (midden) . أرضية البيت رقم ١ ، وهو الأفضل حفظاً ، موسعة قليلاً مع موقد محفور قرب المركز وإلى جانبه بلاطة ثقيلة ذات قموع . يبدو أن المدخل يقع في الجنوب الشرقي . هذه إذاً أوّل مرة نسمع فيها عن جدران حقيقية ، بُنيت بالحجارة والملاط .

تل أسود

قرية **تل أسود** موجودة في **سورية** في واحة **دمشق** ، في منطقة كانت بالأمس القريب مستنقعية بين بحيرتين . حقبة الاحتلال أو التوطن التي تتوافق ، حسب تأريخات الكربون ١٤[٣٩] وحسب التيبولوجيا ـ «علم النماذج» ـ[٤٠] بآن معاً ، مع النيوليتي السابق للفخار A، هي المرحلة الأولى A، التي وجدت في استبار غطى ١٦ م٢ في القسم الشرقي من التل . المنشآت تمثل للتنقيب بوصفها تكديساً متراتباًومشدوداً من «أحواض» مستديرة مليئة بالرماد وبالمواد النباتية أو الغضارية المحروقة ، تتقاطع بشكل متواتر ، فالأحواض الأحدث «تأخذ» من الأسبق ، لايتخطى طول قطرها المترين ، وهي تتواجد مع حفر أسطوانية أضيق (صوامع ؟) . ولقد عثر على عدد كبير من قطع الآجر الغضاري المستوية ـ المحدّبة الشكل مع آثار نباتية (شجيرات القَصب) وبصمات أصابع على الوجه العلوي ؛ وجدت على الغالب كُفتات محروقة إلى هذا الحد أو ذاك ، مختلطة بالرماد ، وأحياناً مرتبة جنباً إلى جنب لتشكّل أرضيات أو «مصطبات صغيرة» . يغلب الانطباع بأننا إزاء تجمع من أكواخ صغيرة مستديرة كثيفة ونصف مدفونة ، يستخدم فيها الغضار في شكل قطع آجرية نيئة ، بخاصة من أجل تشكيل أرضيات أو سطوح مستوية أخرى[٤١] ، وكانت بناها الفوقية مكوّنة في قسمها الأكبر من مواد نباتية خفيفة وقابلة جداً للاشتعال ولقد تسببّت حرائق كثيرة على مايبدو في إعادات بناء متكررة للمساكن .

(٣٨) Marks et Scott 1976

(٣٩) كربون ١٤ : ٧٦٩٠ و ٧٧٩٠ ق م BC (Contenson 1976 a)

(٤٠) Cauvin M. - C. 1974 a

(٤١) إن وفرة فتات الآجر داخل «الأحواض» توحي بأنها كانت ربّما تساهم أيضاً ، الى جانب مواد أخفّ ، في تشييد جدران سكنية .

إذاً فمن الممكن هنا ، أكثر بكثير منه في النطوفي وعن مواقع أخرى للنيوليتي السابق للفخار A، أن نتكلم عن بنى فوقية «خفيفة» . مع ذلك لابدّ أنها كانت إلى حد كبير اضطرارية ، فرضتها المواد التي تقدمها البيئة المستنقعية ، وبالتالي من غير الممكن هنا أيضاً أن نخلص إلى نتائج فيما يتعلق بدرجة دوام القرية[٤٢] .

مريبط

نجد على الفرات بيئة في صالح البناء ، بالمواد الغزيرة والمتنوعة التي تقدمها : حراج من أشجار الحور والطرفاء (الأثل) على ضفاف النهر ، أشجار سنديان منثورة على السهب (البادية) ، غضار الضفتين ، حصى مصطبة الحقب الجيولوجي الرابع ، قوام صخري من الطباشير اللين القابل للقطع بسهولة : لم يكن للمعماريين من حرج سوى حيرة الاختيار ، لكن هذا التنوع في الموارد لن يستثمر بتمامه إلا في الألف الثامن : لقد رأينا في النطوفي أن الغضار والخشب كانا على مايبدو موضع تفضيلهم الحصري تقريباً . بقدر مايمكن الحكم بناء على مستندات مازالت نادرة بعض الشيء ، فإنّ الحجر قلّما استُخدم إلاّ من أجل صنع أغراض منقولة (أغراض الأثاث) . المريبط والشيخ حسن ستتيحان لنا تقدير التطور المتصل الذي سيقلب تقنيات البناء رأساً على عقب . إن مرحلتين رئيسيتين تسمان هذا التطور في مريبط[٤٣] . هنا المستوى الثاني (٨٢٠٠ ـ ٨٠٠٠ ق .م) يتوافق لاريب مع أريحا النيوليتي التمهيدي ، جلجال ، أبوسالم ، والمستوى الثالث (٨٠٠٠ ـ ٧٦٠٠) مع النيوليتي السابق للفخار A بحصر المعنى ومع أسود الأول A في منطقة دمشق .

المرحلة الثانية (أو المستوى الثاني) التي تمدّ مباشرة النطوفي الفوقي (أو النطوفي المضاف) الأول B[٤٤] قد أسفرت عن عدة بيوت مستديرة سواء في سنة ١٩٦٥[٤٥] أو في ١٩٧١ ـ ١٩٧٤[٤٦] . يُستنتج من ذلك أن هذه البيوت ، الصغيرة إلى حد لابأس به

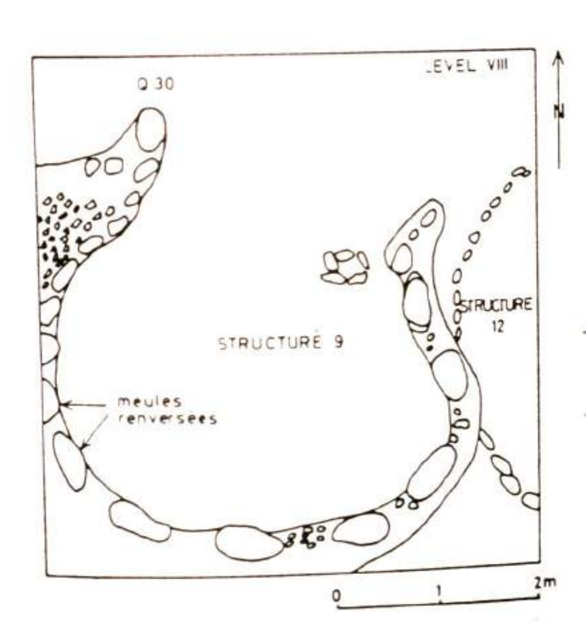
(٤٢) إن أكواخاً من شجيرات القصب كانت ، الى ما قبل قليل ، تؤلف قرى حضرية مستقرة تماماً في منطقة الغاب في سورية ، وهي ذات بيئة مشابهة .

(٤٣) Cauvin J . (a) ، يصدر لاحقاً .

(٤٤) هذا الاستمرار تشهد عليه الأدوات وإعادة تسوية مجالات السكن ذاتها .

(٤٥) المستويات I الى VIII (الأولى الى الثامن) : Van loon 1968 ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩ ، يصف فيها ثمانية بيوت من هذا النموذج .

(٤٦) حررت عشر قواعد لبيوت ، ولا واحدة منها كاملة : Cauvin J. (a) ، يصدر لاحقاً .

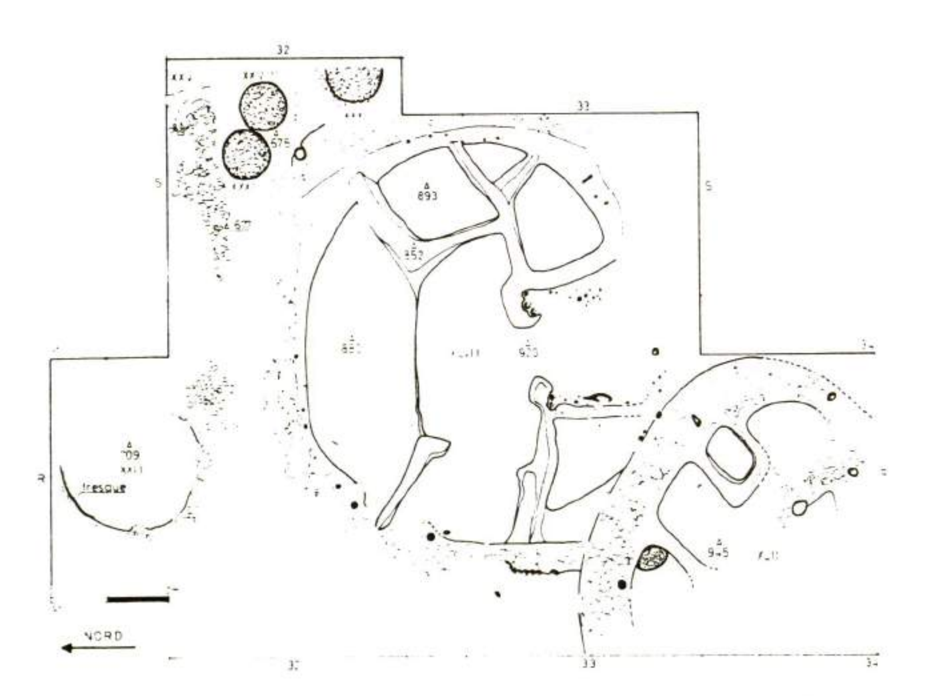


الرسم ٧ - بيت مستدير من المرحلة الثانية في مريبط (حسب فان لون) .

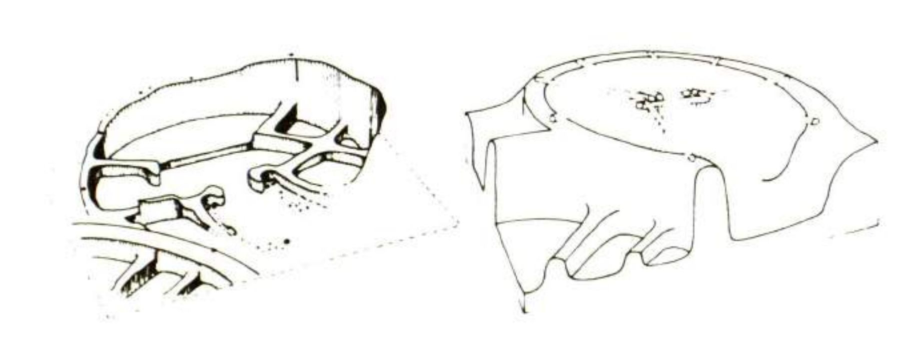
(٣ - ٤ م قطراً) ، كان يمكن أن تكون إمّا مدفونة ، وإمّا منشأة على السطح . الجدار المحيط ، وهو من الغضار ، قد تكون قاعدته معززة بصف من أحجار مسطحة وُضعت كحَزف على الوجه الأصغر في اتجاه الطول مشكّلة نوعاً من زاوية مركزية بارزة ، أو بقاعدة تحتية من أحجار كلسية ورَحيات استخدمت سابقاً ، ويربطها الطين . وكثيراً ماتفرش الأرض قبل البناء بسماط دائري من الحصى الصغيرة والرمل الخشن ثم تبلّط بأحجار مسطّحة وأخيراً تُلّيس بالغضار المكمّل . إن بيتاً حُرّر بالتمام على يد فان لون يُبرز في المخطط المستوي توسيعاً للجدار على جهتي المدخل (الرسم ٧) كذلك الذي لاحظناه في **وادي الفلاح** . لاتوجد أقسام داخلية ، ماعدا في حالة واحدة[٤٧] حيث نجد ستة ثقوب لأوتاد ، طول قطرها ١٠ سم ، ترسم على امتداد ١,٥٠م صفاً خطيّاً مستقيماً يقسم البيت اعتراضاً بحاجز كان خفيفاً بطبيعة الحال . أخيراً البيوت في الغالب تتراصف عن قرب بدون تلاصق ، علماً بأن **فان لون** يشرح[٤٨] مثالاً عن أرضيّتين لبيتين متزامنين تتلاصقان على امتداد يزيد عن المتر .

المرحلة الثالثة تتوافق مع المستويات العاشر - السابع عشر في حفرية سنة ١٩٦٥ والتي كان فان لون يدعوها «المستويات ذات البيوت المستطيلة» . الحفريات الأحدث قادت إلى تلوين وتدقيق هذا التعريف ؛ مع ذلك ، المرحلة الثالثة هي العصر الذي تحصل

(٤٧) البنية رقم ٥٤ : Cauvin J (b) ، يصدر لاحقاً .
(٤٨) Van Loon 1968 ، الرسم ٢ .



الرسم ٨ - بيوت مستديرة ذات تقسيمات داخلية من المرحلة الثالثة في مريبط .



الرسم ٩ - البيت رقم ٤٧ في مريبط (المرحلة الثالثة A) : مخطط حالة الاكتشاف ومحاولة إعادة تكوين هيكله حسب آثار الأوتاد .

فيه تبدلات كبيرة وهامة في عمارات الفرات . من جهة ، لاتقدّم أية قطيعة مع العصور السابقة ، بل توجد هي أيضاً في تواصل مباشر معها . من جهة أخرى تبقى البيوت المستديرة وتستمر حتى نهاية المرحلة . لكن الجديد الهامّ الذي يميّز بداية المرحلة (الثالثة A) هو فعلاً ظهور جدران مستقيمة الخط تتقاطع إلى هذا الحد أو ذاك بزاوية قائمة . غير أن هذا الأمر الجديد ليس بيوتاً مستطيلة (قائمة الزاويا) بل تقسيمات متعامدة (قائمة - مستقيمة) داخل بيوت مستديرة(٤٩) .

البنية رقم ٤٧(٥٠) ، المحفوظة جيداً والمحرّرة تماماً ، مثال ممتاز عن هذه البيوت المستديرة بتقسيماتها الداخلية . دُفن البيت إلى النصف في منحدر التل الموجود من قبل ، أي أن حائطه الشرقي ، باتجاه عالية المنحدر ، مكوّن بتمامه من حائط الحفرة المحفورة ، ومصون بأوتاد من شجر الحور ومُلَيّس بالغضار ، بينما نجد في جهة الغرب جداراً من اللبن الخشن(٥١) ، عرضه ٥٠ سم ، قسم كبير منه مشيّد في العراء ، وهو حدّ للبيت(٥٢) . أخيراً ، يحدّ هذا البيت جدار سميك في الجنوب الشرقي مبني بكامله بأحجار مسطّحة وملاط غضاري ينتمي لبيت مجاور من النوذج نفسه (البيت رقم ٤٢) ، وطول الحائط المشترك - الفاصل متران .

البيت رقم ٤٧ بيت كبير (ستة أمتار) مقسوم بجدَيْرات يتراوح ارتفاعها بين ٧٠، و ١ م إلى ستّ «سلّولات» أو «خلايا»(٥٣) مفتوحة أو مغلقة من الجهتين برواق مركزي (الرسم ٨) . الجديرات سميكة (٢٠سم) وهي مبنية إما بطبقات من الحجارة المتراتبة على صف واحد ، وإما بعناصر خشبية (ألواح) أفقية متراتبة هي أيضاً بعضها فوق بعض ومغمورة في الغضار .

من المؤكد أخيراً أن البيت رقم ٤٧ كان يغطيه سقف - سطح من اللبن الممدّد على

(٤٩) هكذا الحال حسب كل ترجيح بالنسبة لمستويات فان لون ١٠ الى ١٣ حيث توجد فعلاً جدران مستقيمة لكن ليس المخطط العام للبيوت واضحاً .

(٥٠) انظر (a) . Cauvin J ، يصدر لاحقاً ؟ وبخاصة Aurenche ، يصدر لاحقاً .

(٥١) المصنوع من أرض التل نفسها المزوجة بالحجارة والعظام .

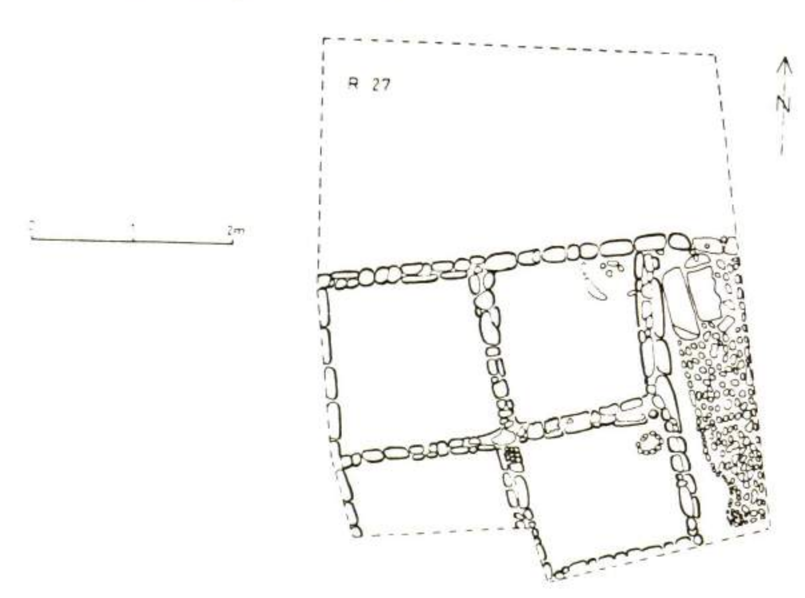
(٥٢) إن صفاً آخر من الأوتاد المتلاصقة يصون هذا الجدار ، لكنها هنا وُضعت على حافّته الخارجية (الرسم ٨) .

(٥٣) المفروض ان الخلايا الأكبر كانت للسكن ، كما تبين حفرة - موقد صغيرة تقع في زاوية بعضهن (الرسم ٨) . هنّ بوجه عام في شكل شبه منحرف . هناك خلايا أصغر مثلثية أحياناً ، لعلها صوامع .

عوارض مرصوفة(٥٤) ، كانت فتاتاتها المفحمّة تفترش أرضية المسكن . هذا السقف كان يرتكز على أعمدة قوية من الحور أو السنديان ، حسب المخطط المرسوم هنا (الرسم ٩) .

هكذا فصلابة البناء تجتمع مع تنوع كبير في مواد وتقنيات العمار المستعملة مما يشهد على درجة عالية في الانضاج الريازي . أما القرية نفسها فيمكن تصوّرها ، في تلك البداية للمرحلة الثالثة ، على أنها تجمّع من بيوت مستديرة متنوعة المقاييس(٥٥) تتدرّج على منحدر ، كما في وادي الفلاح ، وتتراصّ إلى هذا الحدّ أو ذاك حول مجالات تركت حرّة مع حفر - مواقد ومساحات محصّبة .

مما يثير الفضول أن المستويات العليا من المرحلة الثالثة B (أي نحو ٧٧٠٠ - ٧٦٠٠ ق .م) لم تسفر ، خلال تنقيبات ١٩٧١ - ١٩٧٤، إلا عن بيوت مستديرة بحفر صغيرة القطر (٣ - ٤ م) غير مقسّمة . إذاً فقد استمرّ هذا النموذج السكني النطوفي التقليد في المريبط حتى نهاية المرحلة الثالثة . بالمقابل ، إن البنى التي عُثر عليها عام ١٩٦٥ في



الرسم ١٠ - بني في شكل رقعة الضامة من المرحلة الثالثة B في مريبط (حسب فان لون)

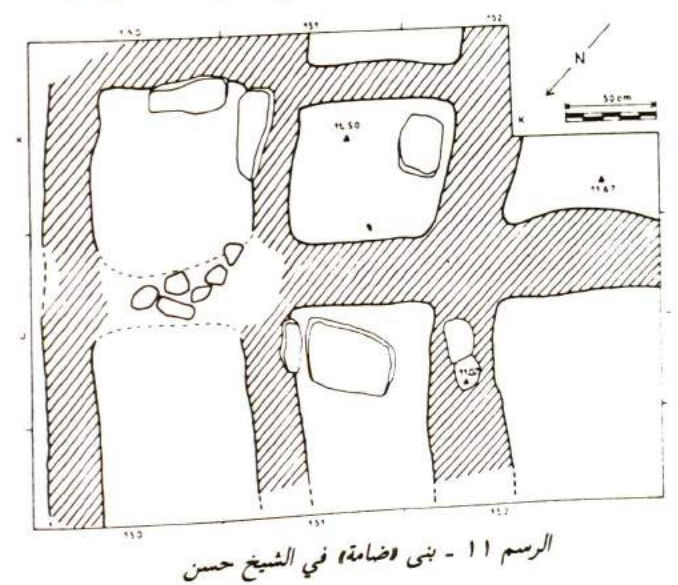
(٥٤) وهو هنا ، كما بالنسبة لطلاء الأرضيات أو الحيطان ، مزيج من الغضار المكتّل ومن القش . انظر Leroi-Gourhan Arl 1974 ، ص ٤٤٥ .

(٥٥) طول القطر من ٢,٥٠ الى ٦ م .

مستويات فان لون الموافقة (المستويات ١٤ - ١٧) هي نموذج مختلف جداً(٥٦) : إنها بنى يذّكر شكلها برقعة «الضامة» وهي مؤلفة من خلايا مربعة ، مرصوفة ، طول ضلعها ١,٥٠ م ، والأرضية مبلّطة (الرسم ١٠) . الجديرات التي تحدها ، المبنية من أحجار طباشيرية طويلة نُحتت بالصوان(٥٧) ولُحمت بالغضار ورُصفت على صف واحد ، تتقاطع حقاً بزاوية قائمة . ويبدو هنا أن هذه الجديرات ليست تقسيمات لبيوت مستديرة بل تقسيمات لبنى هي نفسها مستطيلة أي قائمة الزوايا . ليس استعمال هذه الخلايا موضحاً ، لكن من المثير للاهتمام أن نراها تتواجد مع مساكن دائرية . إن إيضاحات أخرى عن العصر نفسه يعطيها تل الشيخ حسن .

الشيخ حسن

إن استباراً أُجريَ في العام ١٩٧٤ في تل الشيخ حسن(٥٨) ، على مسافة ٢٠ كم



الرسم ١١ - بنى «ضامة» في الشيخ حسن

(٥٦) Van Loon 1968 ، ص ٢٧١ - ٢٧٥ .

(٥٧) نفس الأحجار الطباشيرية المقطوعة (المنحوتة) كانت موجودة من قبل في بعض جدران التقسيم الداخلي لبيوت مستديرة من المرحلة الثالثة A ، هكذا البنية رقم ٢٢ (Cauvin J . 1972 ، ص ١٠٩) .

(٥٨) Cauvin J . (b) ، يصدر لاحقاً .

شمال المريبط ، قد أسفر ، مع أثاث مشابه لأثاث مريبط الثالث B(٥٩) ، عن بنى «ضامة» مشابهة (الرسم ١١) ، فيها طول ضلع الخلايا المربعة متر واحد فقط : الجديرات التي تحدّها إما من اللبن أو مكوّنة من عصيّ خشبية أفقية ومراتبة مغموسة في الغضار . المستوى السفلي في استبار ثان أعطى ، مع معدات ربما تنتمي لدرجة أبكر في المرحلة الثالثة ، جديرات مستقيمة مبنيّة بأحجار طباشيرية طويلة منحوتة بالصوان ومراتبة على صف واحد مع قاعدة مساندة من حصى كبيرة . في المستوى العلوي الذي ينتمي فعلاً على مايبدو للمرحلة الثالثة B، وجد جداران كبيران من الأحجار متوازيان وهذا يستحضر بناء مستطيلاً وأكبر حجماً ذا أرضية غضارية .

إذاً في الشيخ حسن ، تبدو البنى «الضامية» الشكل غير صالحة بتاتاً للسكن ، نظراً لضيق حجم الخلايا ، ولاشك أنها كانت صوامع . من جهة أخرى ، ظهر جلياً أن هذا النوع من البنى لم يكن هنا مندرجاً في مجال دائري . أخيراً نجد أيضاً في الشيخ حسن أوّل بناء مستطيل موثوق في أنه ليس صومعة(٦٠) .

تلك هي الوثائق المتوفرة عن حقبة النيوليتي السابق للفخار A سواء في فلسطين أو في سورية . وهي تقود إلى نتائج هامة في ميادين ثلاثة :

الأول ميدان **تقنية الإنشاءات** . جوهرياً ، تبقى المساكن إذاً بيوتاً مستديرة وتستمر عادةُ إرساءِ قواعدها في أحيان كثيرة (أريحا ، المريبط ، أسود) ؛ لكن عدا عن أنه ، على هامش هذه البيوت المدفونة حتى نصفها ، يُشار إلى حضور أبنية على السطح في كل مكان تقريباً ، يظهر أن القرويين أضحوا يعرفون البناء بمواد غير الخشب . عملية «العمار» نفسها بالمعنى الحصري ، وخاصة التقنية التي تمكن جداراً بلحمها عناصر كتلية بواسطة ملاط ترابي ، أصبحت معروفة الآن : وهي تغني عن تكديس هذه العناصر بعضها فوق بعض كما في العصر النطوفي ، على (ضد) حاجز (حائط) موجود مسبقاً ، ويمكن بالتالي تطبيقها مباشرةً على البنى الفوقية هذه الجدران المبنيّة ، من الحجر ، موجودة منذ أواخر

(٥٩) كما يدلّ حضور فؤوس (بلطات) مصقولة من الحجر الأخضر : انظر لاحقاً ، الفصل السادس (التطور التكنولوجي) عند الرسم ١٦ والرسم ١٧ .

(٦٠) كانت الاستبارات في الشيخ حسن محدودة ولا تكفي لإعطاء فكرة صحيحة عن تنظيم المجال القروي او يقينات عن مساحة القرية . لكن صعود مياه البحيرة أثناء الأعمال حفر الجهة الغربية من التل متسبباً في انهيار أقسام ، الأمر الذي أدّى الى ظهور مقطع عبر مساكن وحفر - مواقد من المرحلة الثالثة أصبح مرئياً على طول ٢٠٠ م . وبما ان التل الأثري يمتدّ أيضاً على ٢٠٠ م من الشرق الى الغرب ، لذا نقدّر بحوالي ٣ - ٤ هكتار المساحة الاجمالية لمستوطنة الألف الثامن ق م .

الألف التاسع في أبو سالم بينما مريط المستوى الثاني تقيم آنذاك جدرانها اللبنية على قواعد من أحجار ملتحمة أيضاً بواسطة الغضار ، ربّما وقاية لها ، كما هي الحال اليوم أيضاً ، من الحتّ والانحفار عند القاعدة بسبب مياه السيلان . لقد رأينا أن العناصر الكتلية المدْخلة في جسم الجدار يمكن ، في الألف الثامن ، أن تكون لأوّل مرّة موضع معالجة مسبقة : طباشير مقطوع في شكل الخبز الفرنسي الطويل أو «السيجار» الطويل على الفرات ، قطع آجرّ نيئة لها الشكل نفسه في أريحا وأسود[٦١] ، استعمال الخشب نفسه ليس فقط في شكلٍ أو تاد عمودية كما في السابق ، بل مشغولاً في شكل ألواح أو عصي مدوّرة مكدّسة أفقياً وملحومة بالطين على غرار سواه من مواد البناء . إنّ التنوع الكبير في تقنيات إنشاءات **مريط المستوى الثالث** يشهد ، كعمائر أريحا سواء بسواء ، على سيطرة ريازية جديدة تماماً .

النتيجة الثانية تخصّ **مساحة القرى** نفسها . إن توسعاً مرموقاً في المساحات المستوطنة يتراءى في النصف الثاني من الحقبة المعنية ، أي في مطلع الألف الثامن . وهو واضح بالنسبة لأريحا النيوليتي السابق للفخار A، بالتعارض مع «تمهيد النيوليتي» . لقد رأينا اتساع الشيخ حسن في نهاية المرحلة الثالثة . وتوجد بضع إشارات في المريط أيضاً تنبئ عن توسّع كبير في اللحظة نفسها[٦٢] . ومن الصعب أكثر أن نقدّر لحظة توسع وادي الفلاح نظراً لعدم معرفتنا للصناعات المشاركة . مهما يكن من أمر ، يبدو أنّ سكّاناً أكثر عدداً منهم بالأمس قد اجتمعوا في قرى الألف الثامن في سورية كما وفي فلسطين . من جهة أخرى ، إن **برج وسور أريحا** ، أياً كانت مآلاتهما المحدَّدة ، يجعلاننا نستشفّ تنظيماً مغايراً ، «جماعياً» أكثر وأكثر تنظيماً ، لنشاطات البناء نفسها .

النقطة الثالثة تتعلق **بالانتقال من البيت المستدير إلى البيت المستطيل** . هذا التبدل الجذري في مخطط الريازات ذو أهمية سوسيولوجية سبق وجرى التأكيد عليها[٦٣] . في حين أن البيت المستدير يَكتب في المجال مساحة سكن نهائية وغير قابلة للتوسيع ، إن المسكن المستطيل يتيح كل الإنماءات بإضافة خلايا جديدة . بواسطته سوف تتمّكن البنى

(٦١) المقصود آجرّات (قرميدات) ما زالت مقولبة باليد وليس في قالب . البصمات الاصبعية الملحوظة على ظهر الآجرات في أسود هي جهاز هدفه تسهيل التصاق الملاط . انظر Aurenche 1977 ، ص٤٠ .

(٦٢) كان المنجم مكوّناً من تل مركزي مساحته نصف هكتار ويرتكز على قاعدة أدنى منه مساحتها ثلاثة هكتارات . هذه القاعدة ، حسب استبار أجراه فان لون عند حدها الشمالي وآخر قمنا به في الجنوب ، ظهرت مكوّنة جوهرياً من مخلفات المرحلة الثالثة التي تكون اذاً قد احتلت ٢ ـ ٣ هكتار .

(٦٣) Flannery 1972

العائلية الموسعة من الانضواء في مخطط البيت ذاته ، الذي يفسح الإمكان لنماذج جديدة من التساكن .

هذا الانتقال يحصل في شتى أرجاء العالم ، لكن في عصور بالغة التنوع . يبدو أنه كان على الفرات أبكر منه في أية منطقة أخرى ، إذ تطل بداياته هنا منذ مطلع الألف الثامن ، وعلى مراحل متتالية يتم فيها تعلّم تقنية الجدار المستقيم : في المرحلة الثالثة A بالمريط ، هذا الجدار يخدم في التقسيم وحسب ؛ وهنا نكتشف تقنيات قُطع (نحت) الأحجار والتسليحات الخشبية . في المرحلة الثالثة B فقط ، بموقعي المريط والشيخ حسن ، يُحْطم القيد الأصلي الذي هو المجال المستدير وتتراصف الخلايا المربعة في شكل «ضامات» غير مرسومة داخل دائرة . بما أن ضيق حجم هذه الخلايا يستبعد استعمالها السكني ويرجّح استعمالها كصوامع ، إذاً فالريازات الأولى المستطيلة فعلاً إنما تتظاهر بوصفها إنشاءات ملحقة ، متميزة في المريط عن البيوت بحصر المعنى[٦٤] . وأخيراً يكون لدينا في الشيخ حسن ، أيضاً في المرحلة الثالثة B، أوّل شهادة على مسكن مستطيل قائم الزوايا يُنبئ بالبيوت الكبيرة المتعدّدة الغرف التي ستظهر في المرحلة الرابعة بالمريط وأبو هريرة .

(٦٤) هذا قد يعلل واقع ان هذه البيوت التي كانت في المرحلة الثالثة A تحوي الصوامع عادت في المرحلة الثالثة B الى مقاييس أصغر .

الفصل الرابع

التطور المعماري (تابع) :
أواخر الألف الثامن والألفُ السابع

إن التسمية «Prepottery Neolithce B» أو «PPNB» أي «النيـوليتي السابق للفخار B» ، المأخوذة من تناضد (تراتب طبقات) **أريحا** ، هي التي تُستخدم دوماً في تعيين العصر الذي يشمل ، في المشرق ، أواخر الألف الثامن ومجمل الألف السابع . من الأنسب مع ذلك أن نحفظها إن لم يكن **لأريحا** نفسها فبالأقل لحضارة **فلسطين** التي تبدي مشابهات كافية مع حضارة **أريحا** . هنا أيضاً ، إن التوسّع الأخير للبحوث في سورية ، مع إلقائه ضوءاً جديداً على منشأ بعض السمات الثقافية لِـ «النيوليتي السابق للفخار B» ، قد أدى إلى اكتشاف مجموعة من الوقائع الأصيلة التي تتخطاه بشكل كبير .

أولاً بأوّل ، كرونولوجياً : في فلسطين لاتعود أقدم التواريخ كربون ١٤ المتوفرة بالنسبة للنيوليتي السابق للفخار B إلى ماوراء ٧٣٠٠ ق .م[1] . كما بالنسبة لأصول النيوليتي السابق للفخار A، تنطرح هنا معضلة «انتقال» (مرور ، عبور ، مضي) من حضارة إلى أخرى . في أريحا بالذات ، يأتي النيوليتي السابق للفخار B فجأة في خلاف تناضدي كامل مع النيوليتي السابق للفخار A، مفصولاً عنه بمستوى عقيم . إنه من صنع

(١) لا سيما بالنسبة لأريحا النيوليتي السابق للفخار B التي تتدرج تواريخها الموثوقة من ٧٢٢٠ الى ٦٧٢٠ ق م (Henry et Servello 1974 ، ص ٣٧) . هذه التواريخ ، التي اعتبرت في البداية مذهلة ومضيعة (Braidwood 1957) ، تبدو الآن مقبولة تماماً في ضوء التواريخ المحرزة في سورية .

قادمين جدد ، أتوا على الأرجح من سورية[٢] ، وتمازجوا إلى هذا الحد أو ذاك مع أقوام أصلية . في **البيضا** الاحتلال الجديد للموقع والمنسوب للنيوليتي السابق للفخار B (المستويات السادس إلى الثاني) يقع بتمامه بين ٧٠٠٠ و٦٦٠٠ ق .م[٣] . وموقع **المنحطة** على بحيرة **طبريا** يؤسس في هذا العصر[٤] . المواقع الفلسطينية الوحيدة التي يبدو فيها التوّطن متصلاً والتي يمكن فيها بالتالي البحث عن معطيات حول «انتقال» محتمل ، **كالخيام** أو **وادي الفلاح** من الصعب استخدامها لأسباب قلناها سابقاً[٥] .

في **سورية** يوجد بالمقابل موقعان ، هما **أسود والمريبط** يتحقق فيهما الانتقال من حضارة إلى أخرى تدريجياً ، بخاصة إبان الحقبة الذاهبة من حوالي ٧٦٠٠ إلى ٧٣٠٠ ق .م والموافقة لِ **أسود الأولى B ومريبط الرابعة** A . أسود الثانية ومريبط الرابعة B يواصلان هذه الاحتلالات بموازاة احتلال أريحا . وهكذا نرى ، حوالي منتصف الألف الثامن ، أي بالضبط حين تندر الوثائق في فلسطين ، نرى إنضاج وصياغة بعض خصائص النيوليتي السابق للفخار B الأساسية لاسيما في ميدان تقنيات قُطع الصوان[٦] .

في ميدان الريازات ، كان الباحثون حتى وقت قريب[٧] أمام الفكرة المعترف بها والتي فحواها أن المسكن المستطيل «يميّز» النيوليتي السابق للفخار B. وكانت النتيجة أنهم أوّلوا حضور بنى مستديرة في قاعدة بعض المواقع إمّا بأنها مؤشّر احتلال أصلي في النيوليتي

---

(٢) هذه الفرضية ، القديمة (Perrot 1968) ، عن أصل سوري للنيوليتي السابق للفخار B عززتها نتائج حديثة : حضور نموذج أنتروبولوجي جديد ، يقال له «متوسّطي رشيق» (Feremback 1973) في أريحا، سبق وجرى التعرف عليه في مريبط في الحقبة السابقة (المرحلة الثالثة A ، تحديد Ozbek ، يصدر لاحقاً) ، حضور قمح مزروع (Triticum monococcum) ليس نموذجه الأصلي البرّي موجوداً في فلسطين لكنه موجود على الفرات ، تقنيات تقصيب جديدة للصوان موجودة هي أيضاً في سورية منذ مريبط الثالثة : انظر لاحقاً ، الفصل السادس ، «التطور التكنولوجي» .

(٣) اربعة عشر تأريخاً . انظر Henry et Servello 1974 ، ص ٣٨ .

(٤) والأمر كذلك على الأرجح ، في النقب ، بالنسبة لقريتي نحال دفشون (Servello, Tchernov et Horovitz 1976) ونحال بوكر (Noy 1975 ، ص ٣٤) . يحتفظ بتاريخين بالكربون ١٤ عن نحال دفشون هما ٦٦٧٠ و ٦٩٥٠ ق م .

(٥) انظر آنفاً ، الفصل السابق ، عند الحاشية ٢٣ .

(٦) انظر لاحقاً ، الفصل السادس ، التطور التكنولوجي ، عند الحواشي ٢٢ - ٢٩ .

(٧) الا ان بيرو (Perrot 1968, col.400) كان يؤيّد اختلافاً ممكناً : حسب رأيه ، يمكن ان يظهر المخطط المستطيل بعد الخصائص الأخرى للنيوليتي السابق للفخار B .

السابق للفخار A[٨] ، وإمّا على الأقل ، بأنها مؤشر مرحلة «انتقال» بين الحضارتين[٩] . بالحقيقة ، لقد سبق لنا أن استشفَفْنا ، بالنسبة للحقبة السابقة ، كم أن مخطط السكن يظلّ محكوماً بعوامل محلية . من المناسب أن لانبالغ في دلالته الثقافية . إن مايعاين على امتداد الألف السابع هو اتجاه إلى تعميم المساكن المستطيلة ، لكن تظل المسافات الزمنية بين المناطق ذات شأن في هذه الحيثية ، ويبقى الانطباع الإجمالي الغالب هو تنوع كبير ، مستقل نسبياً عن العوامل الثقافية الأخرى[١٠] .

يجدر ، من جهة أخرى ، تقسيم العصر الذي يشغلنا هنا إلى حقبتين[١١] . الأولى ، من ٧٦٠٠ إلى ٦٦٠٠ ق .م ، تشمل في هذه الحال مع مراحل «الانتقال» السورية كل «النيوليتي السابق للفخار B القديم» و«الوسيط» حسب اصطلاح **كروفوت — بين**[١٢] **ونوي**[١٣] ؛ والثانية ، من ٦٦٠٠ إلى ٦٠٠٠، توافق بداية «الانقطاع الفلسطيني» أي توّسع التوطنات في «النيوليتي السابق للفخار B الحديث» نحو مناطق أكثر اعتدالاً ونحو الساحل[١٤] .

من ٧٦٠٠ إلى ٦٠٠٠ ق .م

لن نعنى هنا إلاّ بالمناجم التي أسفرت عن بنى ريازية معبرّة . إنها المريبط على الفرات ، وأسود في واحة **دمشق ثم أريحا** ، **منحطة** ، **تل الفرح والبيضا** في فلسطين الداخلية ، **وادي الفلاح** على الساحل (الرسم ١٢) .

---

(٨) هكذا **تل علي** حسب بروسنيتز Prausnitz (١٩٧٠) ، حيث مستوى القاعدة ذو البيوت المستديرة لا بدّ أن ينتمي فعلاً ، مثل الرماد الأولى ، للنيوليتي السابق للفخار B الحديث (انظر لاحقاً ، هذا الفصل ، عند الحواشي ٤١ - ٤٣) ، على حين ان موقع وادي ظُبّي ، في الاردن ، هو أيضاً على الأبكر ، نيوليتي سابق للفخار B رغم أكواخه المستديرة اذا ما حكمنا بناءً على رؤوس سهامه (Waechter et Seton - Williams 1938) .

(٩) مثلاً في البيضا V1 .

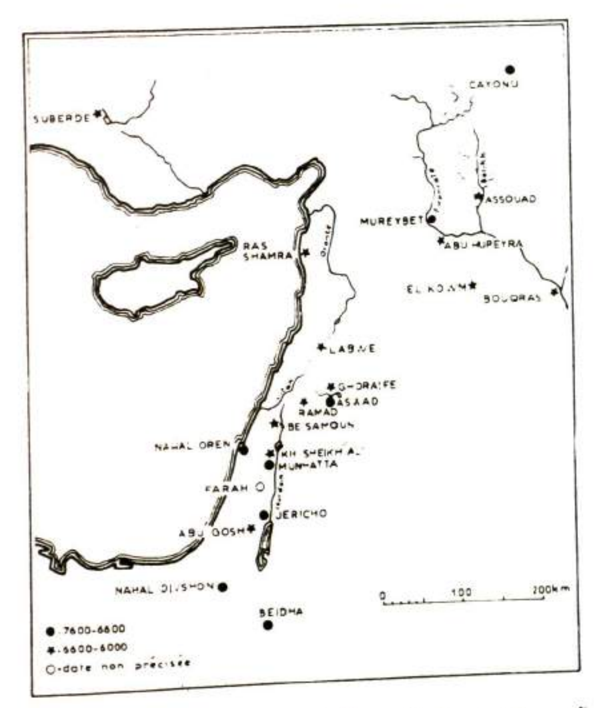
(١٠) انظر لاحقاً ، هذا الفصل ، عند الحواشي ٦١ - ٧٤ .

(١١) هذا ما اعتمدناه في عمل جماعي قيد الإعداد . انظر في لائحة المراجع : Hours وآخرون ، يصدر لاحقاً .

(١٢) Crowfoot - Payne 1976

(١٣) Noy 1975

(١٤) انظر لاحقاً ، هذا الفصل ، عند الحواشي ٣٨ - ٤٤



الرسم ١٢ خريطة المناجم المذكورة من ٧٦٠٠ إلى ٦٠٠٠ ق .م

الفرات الأوسط : مريبط الرابعة

المرحلة الرابعةA في المريبط[١٥] المحفورة عام ١٩٧٤ شرقي التل على مساحة ١٦ م٢ فقط ، لم تعط ريازات في هذا الحيز المحدود . إلاّ أن الصناعات[١٦] وأدلة غبار الطلع[١٧] قد بيّنت استمرار التوّطن في مريبط في النصف الثاني من الألف الثامن . يمكن

(١٥) بالكربون ١٤ : ٧٦٥٠ و ٧٠٨٠ ق م : Cauvin J . (a) ، يصدر لاحقاً .
بما انه يوجد تأريخ للمرحلة الرابعة B التي هي أحدث هو ٧٣٣٠ ، لذلك نحتفظ للمرحلة الرابعة A بالحقبة ٧٦٠٠ - ٧٣٠٠ .

(١٦) Cauvin J . (a) ، يصدر لاحقاً .

(١٧) Leroi - Gourhan Arl. 1974

أن نستنتج من التغيرات التي لُحظت من قبل في مريبط الثالثةB والشيخ حسن أن الريازات لابدّ كانت مستطيلة هنا .

أما الحفر في مستويات المرحلة الرابعة B وهو يكاد لايكون أكثر اتساعاً[١٨] فقد التقى بثلاثة جدران طويلة مستقيمة ومتوازية ، تفصل بينها مسافة ١م و١,٥٠م . كان يصل اثنين منها ، عند الحدّ الغربي للاستبار ، جدار يتعامد معهما (الرسم ١٣) . إذاً نحن فعلاً ، في الظاهر ، إزاء جزء من بيت كبير مستطيل ومتعدد الخلايا ، بغرف طويلة وضيقة ، كما سيصادف بعد ذلك بقليل في أبو هريرة . الجدران من اللبن (غضار أصفر وتبن) محفوظة على ارتفاع ١,١٠م ، وعرضها من ٢٠ إلى ٤٠ سم فقط . كانت تستند إليها جماجم بشرية وُضعت على أرضية الغرفة المطلية بغضار مائل إلى اللون الأصفر مع تلعات من الغضار الأحمر كانت بمثابة قواعد للجماجم . تلك هي الوثيقة المعمارية الوحيدة التي لدينا في منطقة الفرات بالنسبة لحوالي سنة ٧٠٠٠ ق .م .

غوطة دمشق : أسود الأولى B ـــ الثانية

كما في المريبط ، تشهد طبقات وصناعة تل أسود على تطور لاقطيعة فيه .

والحال ، إنه لايوجد ، حسب **كونتنسون**[١٩] أيّ فرق بين قاعدة وقمة التناضد من وجهة نظر البنى . إذاً يمكن أن نردد هنا ماقلناه عن «أحواض» المرحلة الأولى B. المساكن الدائرية و«الخفيفة» باقية في منطقة دمشق على حين أن الفرات شرقاً ووادي نهر الأردن جنوباً ـ غرباً قد بدأتا تماماً تحوّلهما الجذري في ميدان العمارة .

فلسطين الداخلية : أريحا النيوليتي السابق للفخار B ، المنحطة ٦ ـــ ٤ ، تل الفرح ، البيضا

بيوت النيوليتي السابق للفخار B هي في **أريحا** مختلفة جداً عن بيوت النيوليتي السابق للفخار A. رغم أن التنقيب لم يحرر أيّ بيت بتمامه ، فإن **كنيون** يصفها[٢٠]

(١٨) Cauvin J . 1974 b

(١٩) Contenson 1972

(٢٠) Kenyan 1957 ، ص ٥٣ - ٥٦

بأنها مستطيلة ، متعددة الخلايا ، مجتمعة حول باحات تكثر فيها المواقد . الجدران مبنية من قطع الآجر النيئ ، الطويلة في شكل «سيجار» مسطّح ، مع بصمات عميقة على الوجه العلوي من أجل تثبيت الملاط . هذه «القرميدات» ترتكز بوجه عام على قاعدة من الحجارة . الأرضيات من غضار مليّس بطلاء من الكلس مصقول بنعومة وفي أحيان كثيرة ، ملوّن بالأحمر أو بلون «الكريم» . وتكون السقوف ، حسب الفتات المسترجع من الأرضيات ، مصنوعة من الغضار والقصب . أخيراً يقدّم أحد البيوت كوّة مستديرة محفورة في أحد جدرانه ، يُفترض أن عموداً صغيراً من البازلت ، عُثر عليه بالقرب منها ، كان ينتصب فيها فوق حجر كبير كان قاعدة له[٢١] .

أكثر إلى الشمال في وادي الأردن ، على مسافة ١٥ كم إلى الجنوب من بحيرة طبريا ، نُقّب في موقع **المنحطة** على مساحة ٢٠٠٠ م٢[٢٢] . مستوياته الدنيا ٦ ـ ٣[٢٣] تلتحق من حيث الأثاث بالنيوليتي السابق للفخار B بأريحا . المستوى السادس ، القاعدي ، ليس فيه سوى أرضيات من التراب المخفوق (الطين المصلّب) على لبشات من حصى ، وقد أوّلت بأنها أرضيات «ملاجئ خفيفة» . اعتباراً من المستوى الخامس تظهر ، فوق أساسات من الحجارة ، بناءات من آجرّات نيئة مسطحة وطويلة لُحمت بملاط غضاري ، وجدارٌ مؤلف من حافتين حجريتين بينهما حشوة ترابية . في المستوى الرابع ، مساكن كبيرة مستطيلة لها الجدران الآجرية نفسها مع ، أحياناً ، حافة داخلية من الأحجار لحماية قاعدتها ، وأرضيات من الكلس ؛ عدة غرف فيها كوّة مليّسة ، نحو الشمال ، يحتلّها أحياناً حجر كبير . يُشار أيضاً إلى مُنَيْجة مستطيلة مبلّطة ومساحات محصّبة وأحواض . في المستوى الثالث أخيراً ، وهو الأحدث ، الأرضيات المليّسة ، المصبوغة أحياناً باللون الأصفر ، تمتّد بشكل متّصل تقريباً على الألفين من الأمتار المربّعة التي طالها التنقيب . إن أبنية كبيرة جداً ، دائرية إلى هذا الحد أو ذاك ، تبدو تكوّن مجموعات سكنية معقّدة ، تشتمل على باحة مركزية مبلّطة مع غرف مستطيلة في المحيط[٢٤] . إن

(٢١) هذا البيت فُسّر على أنه «حرم مقدّس» قبل ان تأتي اكتشافات مشابهة في المنحطة لتبيّن طابعه العادي نسبياً .

(٢٢) Perrot 1966

(٢٣) يأتي منها تأريخان بالكربون ١٤ : ٧٢١٠ و ٥٤٢٠ ق م ، ومن الجليّ أن هذا الأخير واطئ جداً (Henry et Servello 1974) .

(٢٤) يبقى شك حول العمر الفعلي للمستوى الثالث ، نظراً لعدم نشر تفصيلي للمواد بحسب المستويات. إن حضور نتف من الطين المشوي في قمة هذا المستوى ، اذْ يبشّر بصناعة الفخار ، قد يؤشّر بالأصح على نهاية النيوليتي السابق للفخار B .

ثباتاً ما في التقنيات (جدران من قطع الآجر وأرضيات من الكلس) لايَحول إذاً دون تنوّع في المخططات .

المستوى النيوليتي السابق للفخار B، الذي هو في قاعدة **تل الفرح** ، في السامرة[٢٥] ، لم يسفر إلاّ عن مسكن في حفرة بيضوية وأرضية «مكلّسة» . واستخدام الكلس هو هنا العلامة الوحيدة التي «تحدّث» هذا النموذج السكني العتيق بما فيه الكفاية[٢٦] .

إلى الجنوب من البحر الميت أخيراً ، يقدّم موقع **البيضا** في مستوياته الستة العائدة للنيوليتي السابق للفخار B مجموعة ريازية غنية[٢٧] ، يجعلنا تطورها ، مع أنه يقع برمّته بعد ٧٠٠٠ ق .م ، نشهد ، في وقت متأخر عن الفرات ، الانتقال من البيت المستدير إلى أشكال جدّ أصيلة ومنضجة من المساكن المستطيلة . في المستوى السادس ، القاعدي ، مازال لدينا البيت ـ الحفرة المستديرة ، بعمق نصف متر ، مع منفذ إليه بواسطة درج . في هذه الحفرة يبنى جدار حجري : ترصّع في جانبه الداخلي أوتاد من الخشب تباعد بينها مسافة ٣٠ إلى ٥٠ سم . على هذه الأوتاد ، التي يكمّلها وتد مركزي ، يرتكز سقف سميك من الغضار . الأرضيات والجدران مطلية بالكلس (Lime plaster) . هذه الأبنية ليست معزولة ، بل هي تشكل زمراً من خلايا مستديرة متلاصقة الحدود ، تصل بينها أروقة ومندرجات شتى[٢٨] ؛ هذه «الزمر» هي على الأرجح وحدات السكن الحقيقية و«البيوت» المستديرة غرفها[٢٩] . كل زمرة بدورها محوّطة بجدار سميك ، توجد في ماورائه باحاتٌ تجتمع فيها المواقد[٣٠] . وتحتشد خلايا أصغر (مستودعات للمؤن) في المجالات الضيقة التي تفصل جدران التسوير عن «البيوت» بحصر المعنى التي تحيط بها هذه الجدران . أخيراً ، تثبيتاً للكثيب الرملي الذي بنيت عليه القرية ، بُنيَ في ذلك العصر جدار داعم على امتداد جهته الجنوبية .

(٢٥) de Vaux 1961 ; de Vaux et Steve 1947 ، ص ٥٥٩ واللوحة ٣٥ .

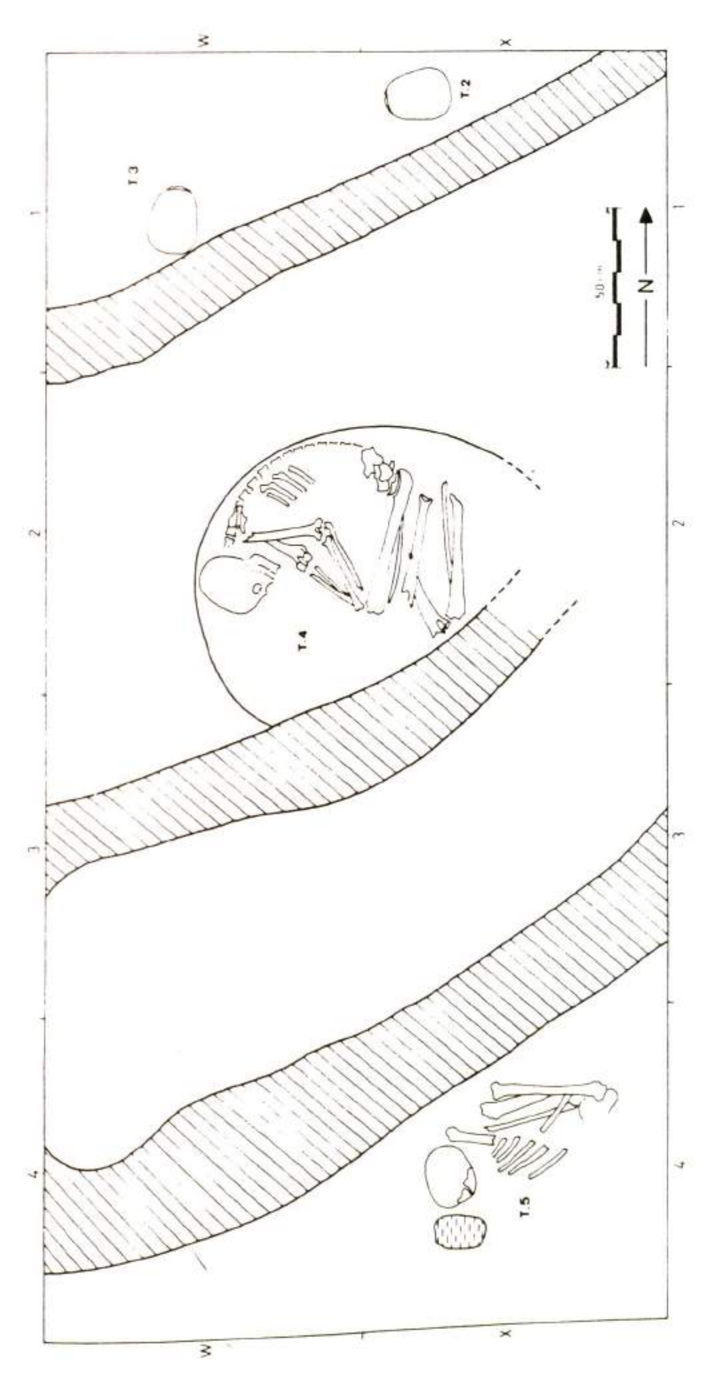
(٢٦) العتاد النموذجي لا يشمل سوى قاطع ومِنقر (مِعول ، مِنكش) ، وهذا لا يكفي بتاتاً لتحديد تاريخ الموقع الذي يمكن ان يكون أيضاً من النيوليتي السابق للفخار B الحديث على أفق رماد الأولى وتل علي ، وبيوتهما ايضاً مستديرة .

(٢٧) Kirkbride 1966, 1968a, 1968b . هناك موقع آخر بالقرب من البيضا ، هو الظهمان ، لم يحظ بأكثر من سبرة على يد العالم نفسه (Kikbride 1966، ص ٥٦) ، وأسفر عن عمارة مستطيلة ذات أقسام وأرضية مطلية .

(٢٨) Kirkbride 1987 ص٦

(٢٩) نُبشت تسعة بيوت في زمرة من هذه الزمر دمّرها الحتّ جزئياً .

(٣٠) هذه الباحات قد تكون مغطاة جزئياً وأرضياتها مطلية .



شكل (١٣) - الهندسة المعمارية لمريبط *BIV*

في المستويين الخامس والرابع ، تستمر البيوت المستديرة بالحفر ، لكن **كركبرايد** يلاحظ أن بعضها معزول ولم يعد مجموعاً ، وأن الأوتاد (الأعمدة الخشبية) ، وهي فريسة سهلة للحرائق ، باتت أقل استعمالاً ، وبخاصة أن مخططاً جديداً يظهر ، مستطيلاً ووحيد الخلية ، لكنه يحتفظ بانحناء خفيف جداً للجدران الأربعة ، مع تدوير للزاوايا أحياناً(٣١) .

يحصل تحوّل أوضح أيضاً ، وإن كان تدريجياً ، في المستويين الثالث والثاني . تبقى عادةُ إقامةِ البيوت في حفر ، لكن باتت المخططات جميعاً مستطيلة . يوجد في المستوى الثاني (الرسم ١٤) من جهة بيتٌ كبير وحيد الخلية ، ٩م × ٧م ، مع موقد مبني في الداخل مقابل المدخل ، أرضيات وجدران مطليّة بأبيض جيد اللمعة ، وشريط جداري عريض مصبوغ بالأحمر على مدار الغرفة ؛ من جهة أخرى زمرةٌ من بيوت ، مفصولة بباحة عن البيت السابق ، ومبنية جميعاً حسب مخطط واحد : رواق مركزي طويل - ٨ م - يطل في كل من الجهتين على ثلاث خلايا ، ١,٥٠م × ١م ، تفصل بينها جدران حجرية سميكة جداً . هذه الأبنية ، المدفونة كجميع أبنية البيضا ، كانت تؤلف بالحقيقة «أقبية» تُستعمل كمخازن أو كمشاغل(٣٢) وقائمة تحت أرضية طابق علوي أخفّ يُستعمل للسكن(٣٣) .

أخيراً لنفس الحقبة يجب ، حسب **نوي**(٣٤) أن ننسب ، على الساحل الفلسطيني ، نيوليتي **وادي الفلاح** السابق للفخار B الذي سلّم لِ **ستِكليس**(٣٥) عدداً من البيوت المستطيلة أو شبه المستديرة مع جدرانها الحجرية وأرضياتها المليّسة باللبن أو بالكلس .

إذاً فحضور بنى ريازية فائقة التعقيد ، مستطيلة في الغالب ، هو الواقعة البارزة في الحقبة المعنية . هذا على كل حال ماتعنيه اكتشافات فلسطين . وتنوّع هذه المساكن من جهة أخرى أمرٌ يُلحظ ، تقنياً ، الأرضيات الكلسية هي طابع مشترك لقرى القطاع الفلسطيني كافة(٣٦) . كذلك يبدو استعمال الآجرّ النيئ معمماً داخل نفس الحدود

---

(٣١) Kirkbride 1967 ، ص ٨

(٣٢) بالفعل تبدي الخلايا بقايا من نشاطات متخصصة : شغل العظم والقرن والصوان ، «دكّان جزّار» ، الخ ... (Kirkbride 1968b ، ص ٢٧١)

(٣٣) خمسة بيوت أخرى من النموذج نفسه تؤلف زمرة أخرى ، تقع جنوبي الزمرة الآنفة (الرسم ١٤) .

(٣٤) Noy 1975 . يكون النيوليتي السابق للفخار B «القديم» و«الوسيط» حسب المؤلف المذكور ممثّلين هنا بالتساوي . غياب التأريخ بالكربون ١٤ ونقص المادة المنشورة حتى الآن لا يسمحان لنا بإبداء حكم .

(٣٥) «الطبقة ١» حسب Stekelis et Yizraely 1963 .

(٣٦) لا يبدو انها بلغت آنذاك منطقة الفرات ، اذا ما حكمنا بناء على المثال الوحيد المتوفر وهو مريبط الرابعة .

0 5 10m

الرسم ١٤ - *ريازة في البيضا المستوى الثاني (حسب كركبرايد)*

الجغرافية . لكن مخطط البيوت يختلف من موقع إلى آخر ، لأسباب إيكلوجية (كما في تل أسود) لكن بالتأكيد لأسباب من نوع آخر أيضاً : فيما عدا بعض الملامح المشتركة ، مثلاً البيوت ذات كوّة في منحطة - أريحا ، تبدو كل قرية في إبداعاتها الأكثر إنضاجاً ، تصل إلى حلول خاصة بها ، رغم الوحدة الحضارية التي تشهد عليها من جهة أخرى الصناعات . إذاً فكلّما تعقّدت مخططات البيوت ، تنوعت جغرافياً .

أخيراً يستمر السكن الدائري في أماكن مختلفة ، أحياناً على امتداد الحقبة (تل أسود) ، أحياناً في بداياتها فقط (البيضا) . وبعد ، ليس لهذا «العتق» الريازي ، الذي يبقي على الصعيد التقني خيارات باتت قديمة منذ ذلك الحين ، أن يُوهِم هنا : فالمهم في البيضا ليس وجود خلايا مستديرة باقية في التقليد النطوفي بل واقع أن هذه الخلايا ، بدءاً من القاعدة والأساس ، متلاصقة ومتصلة فيما بينها لتشكل وحدات سكنية تضم عدداً منها . وهي بذلك عينه المكافئ ، إن لم يكن التقني فعلى الأقل «السوسيولوجي» للمساكن المستطيلة والمتعددة الخلايا في المنحطة أو أريحا أو المستويات العليا في البيضا نفسها . إذاً فهذه المساكن المستطيلة هي بمثابة حل «منتظَر» وأفضل تقنياً من أجل «نمط سكن» بات معقَّداً وهو موجود قبله في البيضا .

من ٦٦٠٠ إلى ٦٠٠٠ ق .م

نشهد في أواخر الألف السابع تحوّلاً عميقاً في خريطة المستوطنات (الرسم ١٢) . في فلسطين ، مع أن النيوليتي السابق للفخار B مازال وارداً ، وأن تقليده الثقافي يتواصل في هذا العصر ، إلاّ أن القرى التي يمكن أن تدرس عليها المرحلة الأخيرة هذه ليست هي نفسها كما في السابق . لقد رأينا أن البيضا لاتدوم بعد ٦٦٠٠ق .م . والأمر كذلك على مايبدو في أريحا[٣٧] والمنحطة في وادي الأردن الأسفل ، وكذلك أيضاً بالنسبة للمواقع الكبيرة التي لمْ يُصبها التنقيب بعد في النقب ، مثل نحال دفشون[٣٨] .

القرى ذات الصفة التمثيلية الآن تقع بمعظمها إما فوق المرتفعات الجبلية بمنطقة القدس (أبو غوش) ، وإما في الجليل الأعلى (يمسون) . خارج فلسطين ، لكن على مقربة منها ومنتسبة لنفس الثقافة ، إنها لبوة في البقاع والرماد في غوطة دمشق . كل هذه المواقع جديدة ، أي أن قوماً جاؤوا من أماكن أخرى يصلون ويقيمون . الانطباع العام عن إنتقال سكان يهجرون لحقبة من الزمن («الانقطاع الفلسطيني») مناطق الداخل ، وهي

(٣٧) رغم تأريخين بالكربون ١٤ للمستويات العلوية (٦٢٥٠ و ٥٨٥٠ ق م) يناقضهما عدا ذلك تأريخ ثالث (٦٧٢٠) ويرفضهما Henry et Servello 1974 (ص٢٥) على أساس ان المعالجة المسبقة للمسطرة المفحوصة لم تكن كافية ، وأيضاً رغم رأي Crowfoot - Payne 1976 غير المدعَّم على نحو كاف ، الآن ، بالحجج التيبولوجية (النماذجية) .

(٣٨) انظر أنفاً ، هذا الفصل ، الحاشية ٤ .

أكثر جفافاً ، لصالح مناطق أكثر رطوبة[٣٩] ينبع بشكل طبيعي من هذه المعاينات[٤٠] التي يمكن أن يثبتها أيضاً ، على مسافة أطول ، الاحتلال الجديد للساحل السوري مع تأسيس **رأس شمرة** .

غير أن فرضية «الخروج» أو «الهجرة الجماعية» ، وهي صحيحة بدون شك في جزء كبير منها بالنسبة لفلسطين ، لاتفصح عن كل شيء . في سورية الشرقية ، نشهد تجدداً للتوطنات من نوع مماثل : لاريب أن موقعاً جديداً كـ **(تل أسود)**[*] يقام في الجزيرة العليا الرطبة ، لكن ، بينما في المنطقة نصف ـ الجافة تُهجر **المريبط** ، فعلى مسافة ٤٠ كم منها فقط تُشْغَل **أبو هريرة** مرة ثانية في المنطقة الإيكولوجية نفسها ، وأبعد كثيراً إلى الجنوب تؤسَّس **بُقرص** على ضفة الفرات . في البلاد التدمرية ، أيضاً في أواخر الألف السابع على مايبدو تأسست قرية **الكوم** ومعها مواقع عديدة اكتشفت مؤخراً[٤١] في هذه المنطقة مع أنها شبه صحراوية . إذاًيتبدى أنه على الرغم من الجفاف العام المفترض فقد تمكنت بعض الشروط البيئية المحلية أو ربما بعض الممارسات الغذائية الجديدة من تخفيف الأضرار . سيجدر بنا أن نتساءل أية شروط[٤٢] .

في منطقة دمشق ، تُهجر **أسود** ثم **الغريفة** بينما تؤسس تل الرماد . في فلسطين نفسها ، مع أن هجر **المنحطة** يعزى ، شأنه شأن هجر اريحا والبيضا ، لمناخ غير مضياف ، فإنه على بُعد بضعة كيلو مترات يُحتل **تل علي** حيث نلتقي صناعة تل **الرماد**[٤٣] ، في سياق محلي مختلف أجل ، على ضفاف بحيرة **طبريا** ونهر **الأردن** الدائم الجريان ، بينما كانت **منحطة** مقامة في مكان أبعد عن البحيرة على واد موسميّ .

إذاً في المرحلة الراهنة من تحقيقنا لايمكن أن نخلص إلاّ إلى انقلاب عام في أماكن انغراس القرى . ويترجم ذلك ليس فقط بترحيلات في مستوى مناطق طبيعية بأسرها ،

---

(٣٩) Peroot 1968, col.404

(٤٠) في الرماد ، إن حضور عناصر ثقافية (قواطع «طاحونية» ، رؤوس سهام أريحا ، جماجم مطلية) جاءت بداهة من فلسطين يمكن ان يثبت هذا التحرك : انظر Cauvin M. - C. 1974 ، ص ٣٢١

• **تنبيه** : اعتباراً من هنا ، يصبح لدينا ، عدا عن تل أسود دمشق ، تل أسود الفرات (او الجزيرة العليا) . وقد مُيّزا في النص الفرنسي بالنقل اللاتيني لحرف الواو العربي Assouad/ Aswad . وسنميّزهما ، كلما اقتضت الضرورة ، بذكر المنطقة .

(٤١) Suzuki et Akazawa

(٤٢) انظر لاحقاً ، الفصل الخامس : «إنتاج القوت» .

(٤٣) لا سيما ، منذ القاعدة ، عناصر من مناجل ذات أسنان كبيرة وفأسٌ منحوت ذو قاطع مصقول . انظر Prausnitz 1970 .

كما ذكر من قبل ، بل ، في المناطق نفسها التي ليست هذه الترحيلات شأنها ، بمجموعةٍ ، ملفتة للنظر هي أيضاً ، من هَجْرات وتأسيسات جديدة ، سوف نحاول في الفصل التالي النفاذ إلى علة وجودها .

ماذا عن هذه القرى الجديدة في الصعيد المعماري بالذات ؟

الفرات الأوسط

أبو هريرة[٤٤]الواقعة ، على الفرات ، والمهجورة منذ النطوفي ، احتُلّت من جديد في الألف السابع . لايوجد تأريخ كربون ١٤ لهذا الموقع ، لكن الصناعة الموجودة تبدو لاحقة لصناعة مريبط الرابعة B ومماثلة جداً لصناعات تل اسود الجزيرة وبقْرص[٤٥] أي لصناعات مواقع من النصف الثاني للألف السابع .

مُيّزت فيها ثلاث مراحل :

في الأولى اللافخارية والتي مازالت محدودة الاتساع نسبياً ، الأبنية ذات جدران مستقيمة بآجرات النيئة ، وعلى الأرجح متعددة الخلايا . الأرضيات تحمل طلاء (plaster، لازبا) أسود لامعاً ، لم توضّح طبيعته الدقيقة ، وسوف نلقاه في المراحل التالية .

في المرحلة الثانية ، تحرز القرية اتساعاً كبيراً يصل إلى حوالي ١٢ هكتاراً . الآجرات النيئة مازالت تستعمل ، ومقاييسها تختلف حسب البيوت . لهذه عدد من الغرف المستطيلة ، يصل أحياناً حتى الخمسة ، وطولها ضعفا عرضها . التدبير الداخلي يشتمل على مصاطب منخفضة ، وأحياناً على موقد قريب من وسط الغرفة . الأرضيات المطلية ، السوداء بوجه عام ، مصبوغة أحياناً بالأحمر . ليست المساكن منثورة بل بالعكس مشدودة بعضها إلى بعض ، حول باحات وأزقّة .

أخيراً في مرحلة الاحتلال الأخيرة ، التي ترى ظهور الخزفيات الأولى ، يتقلص الموقع من جديد إلى نصف المساحة المحتلة آنفاً ، أي إلى حوالي ٦ هكتارات . وتبدو الريازات نفسها مواصَلة فيه .

بقْرص ، الواقعة عند ملتقى الفرات والخابور ، هي أيضاًقرية واسعة جداً[٤٦]

---

(٤٤) Moore, Hillman et Legge 1975

(٤٥) انظر لاحقاً ، الفصل السادس : «التطور التكنولوجي» .

(٤٦) طولها حوالي ٢٢٠ م

وتأريخها ، إبان سبرات كونتنسون وفان لير(٤٧) على مساحة ٣٢م٢ ، هو نهاية الألف السابع(٤٨) . مُيّزت فيها آنئذ ثلاثة مستويات . الأسفل أعطى جدراناً من اللبن مستقيمة وأرضيات من الكلس أو من الطين المقسّى ، مع آثار من الحصر المفحّمة . في المستوى الثاني ، أرضيات الكلس مستمرة . وتخدم آجرات نيئة مستطيلة ، مختلفة الألوان ، في بناء جدران مستقيمة وأعمدة كتلية مربعة . ويبدو اكتشاف قناة صنعت من «تربة آجرية»(٤٩) أوّل إشارة توفرّت لصالح «توزيع الماء» على نطاق القرية . أخيراً أعطى المستوى الثاني ، الذي يظهر فيه الفخار ، جدراناً مبنية بالآجرات المائلة إلى اللون الأحمر . حسب التنقيبات التي استأنفها مؤخراً فريق هولندي ، نحن على مايبدو إزاء أبنية متعددة الخلايا تشبه إلى حد لابأس به أبنية أبو هريرة(٥٠) .

تل أسود(٥١) موقع ، في الجزيرة العليا على ضفة البليخ ، لم يحظ بأكثر من استبار دَرَجيّ ، قُسّمَ إلى ثماني «درجات» رقّمت من ١ إلى ٨ ذهاباً من القمة . الدرجتان ٨ و ٦ أعطتا تواريخ كربون ١٤ تجاوِز ٦٥٠٠ ق .م(٥٢) ، وهذا من شأنه أن يوقّع مجموع الاحتلال في النصف الثاني من الألف السابع . الدرجتان السفليان ، ٨ - ٧ ، فيهما خزف ملمّع سابق لأوانه ؛ والمستويات الأحدث ، ٦ - ١ ، هي التي ليس **فيها فخار** ، لكنها أعطت معدّات حجرية تشبه بالحقيقة ماأعطته المستويات اللافخارية في ابو هريرة وبقرص(٥٣) . البنى المنشأة تشتمل على جدران مستقيمة مصنوعة من آجرات نيئة مستطيلة ذات شكلين متميّزين وألوان مختلفة (البيج والأحمر) كما في بقرص . واستعمال الكلس أمر مؤكّد إما في شكل طلاء للأرض قاس وإما في شكل قِطع هشة من طلاءات أخفّ لم يُعثر عليها في مكانها ، وهي للجدران على الأرجح ، وإمّا أخيراً في شكل أرضية «مكلّسة» رُويت برائب الكلس (الدرجة ٢) على الأرجح بقصد النظافة الصحيّة وحسب(٥٤) .

(٤٧) Contenson et Van Liere 1966

(٤٨) كربون ١٤ : ٦١٩٠ و ٦٢٩٠ ق م للمستوى الأول ، ٦٠١٠ للثاني ، ٥٩٩٠ للثالث . انظر Henry et Servello ، ص ٣٩

(٤٩) Contenson et Van Liere 1966 ، ص ١٨٤

(٥٠) إبلاغ شخصي من J. Roodenberg .

(٥١) Cauvin J. 1972

(٥٢) اي : ٦٥٠٠ (المستوى ٨) و ٦٦٧٠ (المستوى ٦) : انظر Cauvin J. 1974 a ، ص ٢٠٣

(٥٣) Cauvin M. - C. 1972 .

(٥٤) انكشف عند التنقيب بسرير متصل من جزيئات كربوناتية وعلى المقطع بشريط أبيض بسيط .

في البلاد التدمرية أخيراً ، في منتصف الطريق بين **تدمر** ومدينة **الرقة** على الفرات ، حظي تل **الكوم الكبير** هو أيضاً ، باستبار درجي على يد دورنمان(٥٥) . المستوى السفلي ، اللاخزفي ، لم يعط سوى آثار أرضيات وجدران غضارية . تظهر فوق ، مع آنية من الكلس كما في الرماد الثانية ، بنى مستطيلة ومتعددة الخلايا ، تبدو غرفها تتصل بواسطة أدراج ، ولها جدران وارضيات مطلية بالكلس .

إذاً تبدو ثلاثة خواص جديدة تفرّد قرى الفرات والبلاد التدمرية في النصف الثاني من الألف السابع : استعمال الكلس في السكن ، وهو أمر جديد في هذه المناطق ، واستخدام آجرات نيئة متوازية المستطيلات ، في منطقة الفرات ، أي أنها على الأرجح مقَوْلبة كما تقولب في أيامنا هذه(٥٦) ، وخاصة ، مع الكوم وأبو هريرة ، وكذلك ظهور قرى ذات مساحات هائلة نسبياً بالقياس مع قرى العصور السابقة .

سورية الغربية ولبنان

أتت حفريات **كونتنسون** بعناصر كثيرة عن أواخر الألف السابع في منطقة دمشق . وقد هجرت قرية **أسود** نحو ٦٦٠٠ ق .م كما رأينا ، فقد تواصل احتلال الغريفة ، الواقعة على مسافة ١٥كم أكثر جنوباً في المحيط نفسه والمعاصرة بداية لِ أسود المرحلة الثانية ، حتى نحو ٦٢٠٠(٥٧) . لم تصادف السبرات جدراناً لكنّ طبقات و«جيوب» الرماد و«الغضار المطبوخ إلى هذا الحدّ أو ذاك» التي يشير إليها كونتنسون(٥٨) تبدو تؤشّر على نموذج البنى الموجود في أسود .

نحو سنة ٦٢٠٠ ق .م تؤسَّس قرية **الرماد**(٥٩) ليس في الواحة (الغوطة) بالذات ، بل على مسافة ٢٠ كم إلى الجنوب من دمشق ، وعلى ارتفاع ٨٣٠م ، فوق هضبة بازلتية عند قَدَم جبل الشيخ . هذه القرية ، التي تبلغ مساحتها ثلاثة هكتارات والتي نقّب فيها على مساحة ١٥٠٠م٢ عرفت ثلاث مراحل ، اثنتان منها ، الأولى والثانية ، معنيتان

(٥٥) دورنمان (Dornemann 1969) ستبر التل الرئيسي . ارتفاعه ٢٥ م ، وهو لا يمثّل الاّ جزءاً من الموقع ما قبل التاريخي الذي هو أوسع بكثير .

(٥٦) انظر Aurenche 1977 ، ص ٤٠ .

(٥٧) Contenson 1976 b : كربون ١٤ : ٦٢٠٠ ق م **للغريفة** المرحلة الثانية .

(٥٨) Contenson 1975 ، ص ١٨

(٥٩) Contenson 1967, 1969, 1974 .

بحديثنا[٦٠] . تختلفان قليلاً في المعدات[٦١] وكثيراً في العمارة . في المستوى الأوّل ، وهو قاعدة التلّ ولم يعثر عليه في كل مكان ، مازالت المساكن أكواخاً بيضوية نصف - مدفونة ، طول قطرها ٣ - ٤ أمتار ، حائطها مطليّ باللبن ، وارضياتها من الكلس أو اللبن ومبلّطة . «افران في شكل كوّة» ، «صوامع في شكل أحواض طول قطرها ١,٨٠م ، مزودة بمسند عند الفوهة وربّما بقنطرة» هي التدبيرات الأخرى ، خارج الأكواخ[٦٢] .

الرسم ١٥ - ريازة رماد المرحلة الثانية (حسب كونتنسون)

(٦٠) كربون ١٤ : المستوى الأول : ٦٢٥٠ ، ٦١٤٠ ق م ؛ المستوى الثاني : ٥٩٧٠ ، ٥٩٥٠ ق م. Contenson et Van Liere 1966 .

(٦١) إبلاغ شخصي من M. - C. Cauvin الذي يدرس الصناعة .

(٦٢) Contenson 1967 ، ص ١٩

المستوى الثاني ، مع آنية من الكلس ، الذي يمتد على كل السطح موضوع التنقيب ، يضم نموذجين من العمائر : بيوت كبيرة مستطيلة مع جدران يبلغ سمكها ٠,٩٠ م إلى أم وأساسات من الحجارة وجدران من الآجرات النيئة المقولبة ، لكن بدون أرضيات مطلية ، وبيوت أصغر مع جدران أنحل (حوالي ٤٠ سم) من الحجارة أو الآجر النيئ ومع أرضية طليت بالكلس أو الغضار[٦٣] . هذه الغرف المستطيلة يستند بعضها إلى بعض أو هي في صفّ على امتداد الأزقة أو حول باحات (الرسم ١٥) .

بين سلسلتي جبال لبنان الغربية والشرقية ، في سهل البقاع العالي ، تبدو قاعدة **اللبوة** اللاّفخارية[٦٤] معاصرة لرماد المرحلة الثانية ، حوالي ٦٠٠٠ ق .م ، ومنها الآنية الكلسية نفسها . لم تعطِ ريازات ، لكنَّ بيتاً مستطيلاً أرضيته مطلية بالكلس يحضر بعدها مباشرة .

بالمقابل ، على الساحل السوري ، المستوى الأدنى ، أي الخامس C، في **رأس شمرة** ، الذي تأسّس نحو سنة ٦٢٠٠ ق .م[٦٥] ، فيه ريازات مستطيلة متعددة الخلايا ، تحدّها جدران حجرية مزدوجة (بحائطين أو واجهتين) عرضها من ٥٠ إلى ٧٠سم . لم تظهر فيه أرضيات كلسية ولن تظهر في رأس شمرة إلا خلال الألف السادس ، في المرحلة الخامسة (A) .

فلسطين

تقع **أبو غوش** فوق جبال منطقة القدس ، على ارتفاع ٧٠٠م . هذا الموقع اللاّفخاري ، الذي تبلغ مساحته ٢٠٠٠م٢ والذي سبره **بيرّو**[٦٦] ثم نقّب فيه على مساحة ٣٤٠ م٢ **دولفوس** و **لوشفالييه**[٦٧] ، أعطى أربع وحدات من مساكن مستطيلة (قائمة الزاويا) لها جدران من الحجارة وأرضيات مطلية بالكلس[٦٨] . البيت الأفضل حفظاً يبلغ ، في حالته الأخيرة ، ٨م × ٨م . الأرضيات المطلية ، المبسوطة فوق لبشات من

(٦٣) Contenson 1969 ، ص ٢٨ - ٢٩

(٦٤) Kirkbride 1969 . متوسّط ثلاثة تواريخ بالكربون ١٤ لمستوى القاعدة هو ٥٩٥٠ ق م (المرجع المذكور ، ص ٥٠) .

(٦٥) Conteson 1977 . كربون ١٤ : ٦٤١٠ و ٦١٩٠ ق م . نهاية المرحلة : ٥٩٥٠ ق م .

(٦٦) Perrot 1952

(٦٧) Dollfus et Lechevallier 1969 .

(٦٨) عن طبيعة هذه المادة بشكل دقيق ، انظر تحليلات بالفِهْ وآخرين (Balfet ..., 1969) المستندة الى وثائق تل الرماد .

الحجارة ، أعيد عملها مراراً . سماكة الجدران من ٥٠ م إلى ١,١٠م ، فالجدران الأسمك ذات واجهتين مع حشوة من الحجارة الصغيرة بينهما .

نجد صناعة تل الرماد من جديد في الجليل الأعلى غربي بحيرة الحولة ، في **بيْسمون**[٦٩] ، وهو موقع مساحته ١٢ هكتار ، حرّر فيه لوشفالييه ، المنقّب على ٨٠م٢ ، مسكناً مستطيلاً جدرانه من الأحجار ، مُشَكّلاً من غرفة كبيرة ، ٥م ، ٤م ، أرضيتها مطلية بالكلس مع آثار من الصباغ الأحمر . عمودان في الوسط كانا يسندان السقف . يوجد موقد معتّر في الداخل قرب المدخل . هذه الغرفة تنفتح في الغرب على غرفة دخول ، ٤م × ٢,٢٠م ، أرضيتها ، وهي في مستوى أدنى ، مبلّطة ؛ هنا عُثر على جمجمتين مقولبتين .

أخيراً ، إن صناعة تل الرماد أيضاً ، أي صناعة النيوليتي ماقبل الفخار B الحديث ، هي التي نجد في مستويي الأساس ، الرابع والثالث ، من **تل إيلي أو خربة الشيخ علي**[٧٠]* ، الواقع على انخفاض ١٩٠ م تحت مستوى سطح البحر ، على ضفة بحيرة طبريا . نقّب في هذا الموقع **بروسنيتز** على مساحة ٣٠٠م٢ . وما حُرّر في المستوى الرابع الأدنى ، بيوتٌ مستديرة على اساسات من حصى ، أما الريازة المستقيمة الخط (جدار واحد) فلا تظهر إلا في المستوى الثالث . إذا لم يكن ثمة خطأ حول نسب المعدات ، يجب القبول بأن تل علي ، رغم وقوعه في المنطقة شبه الجافة ، ينطلق مثل رماد المرحلة الأولى مع بيوت مستديرة عادية في أواخر الألف السابع ، في حين أن **المنحطة** كانت قد بسطت على مقربة من هنا ، في الحقبة السابقة ، البنى المستطيلة المعقدة التي نعرفها .

على اي حال ، وأكثر أيضاً من التنوع الريازي الذي يُلمح منذ الحقبة السابقة ، كانت رماد المرحلة الأولى تدعونا شكلاً وقطعاً إلى أكبر حيطة في مضمار التأويل الكرونولوجي والثقافي لمخططات المساكن ، إذْ أنّ أكواخاً مستديرة تسم فيها أيضاً بداية الإقامة ، بل وبدون أن تكون ثمرة إكراهات بيئية كما في أشود دمشق أو الغريفة . إذا قبلنا ، وراء **بيرو** بأنه في هذه النهاية للألف الثامن شرعت أقوام تتحرّك في فلسطين ، فليس أمراً عجيباً أن تبدأ إقاماتٌ جديدة بمرحلة بيوت مستديرة . تلك ظاهرة مشهودة على نحو متكرّر في الشرق الأدنى ماقبل التاريخي بل والتاريخي ، فالاستقرار الحضري ليس هنا في

(٦٩) Lechevallier et Perrot 1973 ; Feremback et Lechevallier 1973 .

(٧٠) • النص الفرنسي اعتمد الاسم الاول Tell Eli ، وذكر في هذه الحاشية الاسم الثاني «خربة الشيخ علي» ، وأحال هنا على Prausnitz 1970

يوم من الأيام واقعة كلّية ونهائية . المواقع القروية التي ينقّب فيها علماء ماقبل التاريخ إنْ هي إلاّ الهامش المرئي ، لأنه مثبّت في الأرض ، لقاع من «سكّان»(*) يبقى فيه التنقّل كبيراً ؛ وهؤلاء «الرحّل»(**) ، كما هو معلوم ، قلّما يتركون أثراً[٧١] قبل أن يستقروا بدورهم . والحال ، كلما جاء قوم ، كان بالأمس متنقّلاً ، إلى الإقامة وتأسيس قرية ، رأيناه ينزع إلى أن يعيش من جديد لحسابه الخاص التاريخ العمراني للنطوفيين الأوائل ، أي إلى مداواة جهله الطبيعي لتقنيات الريازة باللجوء إلى الحفرة وإلى الكوخ الدائري ، الذي قيل عنه كثيراً إنه مشتق من الخيمة . تلك ستكون الحال في رماد الثالثة في مطلع الألف السادس ، حين سيلجأ قادمون جدد يحملون خزفيات ملمعة إلى حفر حفرهم في مستويات المرحلة الثانية . وتلك ستكون الحال بشكل أوضح أيضاً ، في نهاية الألف السادس وفي الألف الخامس حين ستحلّ في فلسطين من جديد ، بعد نهاية «الانقطاع» ، أقوام جاءت هنا أيضاً من مكان آخر[٧٢] ، بل وأيضاً في الألف الرابع مع حضارة بئر السبع الذي شدّد بيرو على أصلها البدويّ . وفي كل مكان[٧٣] ، بعد زمن مرجّح للتكيّف مع شروط الحياة الجديدة ، يعيد القرويون الجدد وبسرعة كبيرة اختراع المساكن المقسومة ذات الجدران المستقيمة الخط التي هي أكثر ملاءمة لحاجاتهم . نفهم بالتالي أن تكون بعض المواقع كالرماد وتل علي وربما تل الفرح[٧٤] نحو سنة ٦٢٠٠ قد استطاعت الانتقال عبر هذه المرحلة المدخلية المقتضبة التي هي السكن بالحفر إلى حياة حضرية جديدة . **تل علي** لاينتج إذاً عن محض انتقال لأقوام حديثوا الاقامة في **المنحطة** المجاورة ، بل هو ينتمي إلى مايمكن أن نسميّه «أفق الجزْر» ، أي سبقتْه ، بالفرَضْ ، شريحةٌ متفاوتة الطول من حياة متنقلة هي تعليل التقهقر الظاهر في ميدان المساكن .

• population . ـ لنذكر ان المصطلح الفرنسي يأتي من اللاتينية بمعنى peuple ، شعب ، قوم ، وانه (بخلاف «سكان» العربية) اسم مفرد وله جمع ، وانه يستخدم أيضاً للحيوانات والنباتات ولكل مجموعة يتعامل معها علم الإحصاء . المترجم .

•• ((nomades)) . ـ لنذكر أن الأصل اليوناني = رعاة . معنى المصطلح بالمفرد : شارد ، بلا إقامة ثابتة ، وعمله مجهول . وبالجمع : بدو ، رحّل ، غير حضريين . وهو الأشهر . المترجم .

(٧١) انظر Hole 1976

(٧٢) هكذا في فلسطين الداخلية ، المنحطة ٢ ب ٢ ، شعر الجولان ، أريحا النيوليتي السابق للفخار A ، وعلى الساحل الزريعة المرحلة الخامسة ، بَطَشي ، جيفا الفرسا ، نيتزانيم .

(٧٣) في المنحطة ٢ ب ١ و٢ آ ، أريحا النيوليتي السابق الفخار B ، بطشي العليا ، الزريعة .

(٧٤) بالنسبة **لتل فرح** ، انظر أعلاه ، هذا الفصل ، الحاشية ٢٦ .

رأينا مع ذلك أن فلسطين والمناطق المتاخمة مباشرة ، بالنسبة للأمر الجوهري ، إنما تملك في النيوليتي السابق للفخار B الحديث (أو سرعان ماتتبنّى) المساكن المستطيلة ذات الأرضيات الكلسية والموروثة من المرحلة السابقة . كما على الفرات ، تستعمل الآن في رماد الثانية الآجرّ النيئة المقولبة ؛ في أماكن أخرى (أبو غوش ، بيْسمون) لايذكر المنقبون سوى جدران من الحجارة(٧٥) . المعطيات أقل عن تنظيم القرى العام ، فيما عدا الرماد نفسها حيث يحصل تجمّع العناصر السكنية ليس فقط حول «باحات» ، بل على طول «شوارع» ، كما على الفرات في أبو هريرة . يمكن اعتبار «الشوارع» ، و«القنوات» التي لحظناها سابقاً في بقْرص ، تجلّياً لدرجة عليا في التنظيم القروي(٧٦) . غير أن هذه الوثائق بحاجة إلى تثبيت بتنقيبات على نطاق أكبر .

نتائج عن التطور المعماري

على الصعيد التقني ، أي في فن البناء ، سلّطنا إذاً الضوء ، بين سنة ١٠٠٠٠ وسنة ٦٠٠٠ق .م ، على تقدّم دائم مع أوقاته القوية وأحياناً رجعاته إلى الوراء . الحفرة النطوفية العادية ، المتدبّرة كبيت بعون قويّ من الأخشاب ، تخدم أيضاً كإسناد وكـ «قالب» لأوائل «الجدران» المدوّرة والتي ماتزال مصنوعة بأحجار جافة . لا «يعمّرون» حقاً إلاّ في النيوليتي السابق للفخار A (أو مايوافقه في سورية) حين يظهر الملاط ، مصحوباً في كثير من الأحيان بمواد عولجت مسبقاً . الجدار المستقيم الخط بوصفه عنصراً داخلياً بادئ ذي بدء في البيت المستدير ، ثم خارجياً ، حين يحصل الانتقال إلى المخطط المستطيل (القائم الزوايا) ، ينضج أولاً على الفرات بين ٨٠٠٠ و٧٦٠٠ق .م . بفضله يُفسَح مجال الممكن في النيوليتي السابق للفخار B لمخططات سكنية أصيلة أكثر فأكثر ومعقدة أكثر فأكثر ، تستجيب على الأرجح لنماذج جديدة من التجمعات العائلية يبيّن مثال **البيضا** السادسة رغم أنف كل شيء إنه كان بإمكانها أن تكون موجودة - مسبقاً قبل هذه الطريقة الريازية في تجسيدها على الأرض . علم تقني وحاجة اجتماعية يظهران هنا مربوطين بعلاقة جدلية تفجّر كلاً منهما على الآخر .

من جهة أخرى ، نقدم الفرضية التي ترى أن «العودات» المتكررة والمثبتة في نماذج السكن بالحفر ، القديمة العتيقة ، قد لاتكون في بعض الحالات إلا تجلياً لنوع من «تجربة

(٧٥) قد لا تكون سوى قواعد لجدران مبنية بمواد أخرى .

(٧٦) انظر لاحقاً ، نهاية الفصل السادس .

مراجعة» ، شبه الزامية ، حين تجيء اقوام طال ترحلها لتستقر بدورها وتتحضر حتى إذا كانت تحمل بالنسبة للباقي جميع العناصر الثقافية التي أُنضجت في القرى الحضرية التي سبقتها .

الملاحظة الثانية العامة هي نمو حجم القرى الذي يترجم تمركزاً ديموغرافياً متنامياً . رغم اضطرارنا فيما يتعلق بهذه النقطة إلى الاكتفاء بوثائق نادرة بعض الشيء ، نظراً لنقص عدد التنقيبات الواسعة ، تبدّى لنا أن حقبتين اثنتين يمكن أن تمثلا «عتبات» ذات دلالة في هذا النمو : الأولى بين ٨٠٠٠ و ٧٦٠٠ ق .م ، حين تبلغ القرى ، التي لم تكن في النطوفي تتجاوز ٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ م ، ٢ ـ ٣ هكتار (أريحا النيوليتي السابق للفخار A، مريبط الثالثة ، الشيخ حسن) ؛ والثانية في نهاية الألف السابع ، حين يمكن أن تبلغ عشرة هكتارات (أبو هريرة ، بيسمون ؟) . هذا الفصل الأخير يرافقه ، كما رأينا ، تغيّر عام في أماكن الانغراس ، بل أحياناً على مسافة قريبة ، بحيث أن فرضية تقول بتغيّر المنطقة الايكولوجية بين الأقوام الحضرية ليس بإمكانها الإفصاح بشكل تام عن الذي حصل .

تلك للوقت الراهن وقائع خام ، مدركة في تطور القرى نفسها بوصفها تجمعات حضرية مبنية . ومن السابق لأوانه أن نؤوّلها قبل تحليل نمط حياة سكانها وفي المقام الأوّل الموارد الغذائية المتوفرة لهم وممارستهم اليومية للبيئية المحيطة . وذلك هو «المتحوّل» الجديد الذي سنسائله الآن .

الفصل الخامس

إنتاج العيش

أنتاج العيش استراتيجية جديدة ستتيح للانسان عن طريق زراعة الأرض وتربية الحيوان ، التحكم بموارده الغذائية . هذا سيتعيّن ، في الميدان النباتي ، بفعل زرع الأنواع الغذائية في أماكن مختارة حيث ستُمركز اصطناعياً ، وتسهيل نموها بتهيئة وصيانه التربة ، وحصدها أخيراً عند نضجها ، بكمية قابلة للتنبؤ إلى هذا الحد أو ذاك ومُرادة ، مالم يقع طارئ جوّي . كذلك ، في الميدان الحيواني ، ستكون القضية تحويل الحيوان «الوحشي» أو «البري» الذي يفلت بحكم التعريف من رقابة الانسان ولايمكن الحصول عليه إلاّ بمطاردة مشكوك فيها إلى هذا الحد أو ذاك (الصيد) ، إلى احتياطي غذائي متوفرّ على الدوام ، وذلك بفضل سيطرة على سلوكه وتحكمّ بإعادة إنتاجه اي تناسله وتكاثره .

ذلك هو المبدأ العام لهذه الاستراتيجية ، التي يقال لها أيضاً «تأهيل» أو «تدجين» ، لأنها تنتهي إلى أنواع نباتية وحيوانية «أهلية» أو «داجنة» . بالفعل إن نتيجة مباشرة لهذه المعالجة ستكون خلق أنواع جديدة ، معدّلة مورفولوجياً نسبة إلى أجدادها البرية ، وبالتالي ، حين يجمع علم الآثار بقاياها ، فهو يتعرّف عليها بسهولة .هذه التغيرات تنجم عن الإخلال الذي يحمله الانسان إلى شروط التناسل الطبيعية بالاصطفاء ، الواعي أو غير الواعي ، للأفراد المنجبين[١] . الرأسمال التوريثي يعدَّل بإنماء الخصائص «المتراجعة» ، أي بالضبط تلك التي تمثّل معوّقاً لبقاء النوع أو توالده الطبيعي لكنها في صالح الانسان ويصطفيها الانسان . هكذا بالنسبة للحبوب ، إن صلابة الراشة التي تبقى الحبّ على

---

(١) Zeuner 1963

السنبلة التي بلغت النضج هي سمة متراجعة تعيق التناثر والانبذار التلقائي للنوع بينما هشاشة الراشة تسهلهما[٢]، لكن تلك السنابل هي التي سيجدها الانسان القاطف ليحصدها وحدها إذا كان ينتظر نضج الحصاد وهي التي ستكون إذاً بذاره المصطفى من غير إرادة حين سيريد أن يزرع[٣] .

كذلك فإن سلوكه العفوي تجاه أنواع حيوانية خطرة ، كالبقر الوحشي مثلاً ، سيكون بادئ ذي بدء السعي إلى السيطرة على الأفراد الأصغر حجماً والأقل تسليحاً ، أي أولئك الذين هم ، داخل الاصطفاء الطبيعي ، الأقل قدرة على تأمين بقائهم . من هنا انخفاضات القامة (الحجم العام وطول القرون) التي تسجّل في الأنواع الأهلية المشتقة من الأنواع السابقة عن طريق تبدّلات موجّهة بصورة غير واعية[٤] .

إلاّ أن هذه التغيرات المورفولوجية ، التي تسمح بتعيين وضعيّة «الأهليّ» أو «الداجن» للبقايا المكتشفة في التنقيبات بلا خطأ ، لم تتحقق بين عشية وضحاها . بالحقيقة لم تكن الحيوانات الأهلية الأولى تتميّز كثيراً عن أجدادها الوحشية : أمكن لتحوّل الأنواع أن يستغرق زمناً متفاوت الطول ، علماً بأن المتخصّصين في علم الحيوانات الآثاريّ يحملون آراء مختلفة حول مدّته . هذا يقتضي على أي حال استخدام معايير أخرى غير المعايير المورفولوجية لتحديد وضعيّتها الحقيقية . المنهج الرئيسي هنا هو الدراسة الإحصائية لبنية المجموعات المقتولة المحدَّدة حسب العمر والجنس ، بغية الكشف ، في «اختلالات» توزّع الطبقات المختلفة ، عن وجود وطبيعة الخيارات التي أجراها الانسان ، والتي لايمكن أن تسمح بها إلاّ تربية الحيوان ورعايته[٥] .

كذلك في علم النبات الآثاري ، بعدما اعتقدوا ولمدة طويلة أن التبدلات التابعة للممارسات الزراعية الأولى كانت سريعة تمتدّ إلى «بضعة أجيال» من الحبوب لاأكثر ، ظهرت الفكرة التي فحواها أن هذه التحولات ربّما كانت أطول[٦] .

(٢) Zohary 1969

(٣) Flannery 1963, 1969

(٤) هذه التبدلات قد يكون أصلها أيضاً تصرفات بشرية من نوع آخر لكنها فاعلة في الاتجاه نفسه . مثلاً آثار تغيير اصطناعي للنظام الغذائي على مورفولوجية الحيوانات الاولى التي أسرها الانسان .

(٥) Ducos 1968

(٦) هكذا فقد بيّن هلبك ان الشعير في البيضا طالما زرع بدون ان يفقد خصائصه المورفولوجية البرية . انظر Helbaek 1966 .

بتعبير آخر من الضروري قبل الكلام عن نبات أو حيوان «أهلي» أن نميّز معنيين لهذا المصطلح ، أحدهما ينتسب لتسمية الأصناف في العلوم الطبيعية ويستند إلى الخواص المورفولوجية المحدّدة التي تعرّف الأنواع الخاصة ، والآخر «إتنولوجي» وحسْب ، ليس مرجعه سوى نموذج ما من السلوك البشري حيال النبات والحيوان ، وليس لوقوع التغيرات المورفولوجية أو عدم وقوعها بعد شأنٌ كبير بالنسبة له ، في الحاصل[٧] . هذا المعنى هو الذي يهمنا هنا ، بقدر ما أننا نبحث عن أصول الشعير السّداسي الصف أو البقر القصير القرن ، اللذين ليس ظهورهما المزدوج بحد ذاته إلا نتيجة معالجات طويلة بلا آثار مباشرة .

أخيراً ، بعد وضعنا التشديد على المعنى الإتنولوجي للتأهيل ، يجدر بنا أيضاً توضيح محتواه . إذْ حتى إذا اقتصرنا على السلوك البشري وعلى «العلاقة المعيشة» التي تقوم مع الحيوان والنبات ، فالتربية والزراعة لم تظهرا دفعة واحدة وبدون مراحل متوسطة . إن بعض العبارات المخففة مثل « protoelevage، تمهيد تربية» أو « protoagriculture، تباشير زراعة» (لوروا - غورهان) ، بل « vegeculture، ثقافة نبات» (بريدوود) ، تشهد على التطور الشديد التدرج للاستراتيجيات الغذائية نفسها وعلى صعوبة أن نقبض هنا بوضوح ودقة على بدايات . أمكن مؤخراً[٨] التشكيك في فكرة وجود بؤرة للتأهيل شرق - أدنيّة ، وذلك باعتماد الفكرة القائلة إنّ التأهيل هو البسْط أو التطوّر الطبيعي ، على النطاق العالمي ، لشتى أشكال «المنادمة» ، «commensalisme» (أو المزاوجة husbandry) ، حيث أن صوناً ما لموارد حيوانية ونباتية إنما يؤمنه الانسان إرادياً وتمتد جذوره إلى الوراء في العصور الباليوليتية بل وحتى مملكة الحيوان نفسها . لكن التأكيد على استمرارية عملية مساريّة لاينفي الانتباه إلى بعض «العتبات» وإلى الجدّة أو البدْعة التي تمثّلها هذه العتبات . إنتاج العيش والتأهيل بالمعنى الحقيقي الخاص يؤشران بالضبط إلى إحدى هذه العتبات ، التي يصح أن نعرّفها جيداً قبل البحث عن هذا الذي كان تمهيداً لها أو صورة أولية عنها .

سنعتمد بالنسبة لتربية الحيوان على تعريف **دوكو** : «يوجد تأهيل . . .حين تُدْمج حيوانات حيّةٌ في التنظيم الاجتماعي - الاقتصادي لزمرة بشرية كموضوعات - أغراض ، بمعنى أنها ، وهي حيّة ، موضوعاتٌ للملك وتوريث وتبادل الخ . . . إن العلاقة إنسان - حيوان لم تعد من «سكّان» إلى «سكان» (من «قوم» إلى «قوم» ، من «جماعة» إلى «جماعة») ، بل تتجه إلى أن تكون علاقة من فرد إلى فرد . ينجم عن ذلك أن الانسان في

(٧) انظر Jarman 1972 ، ص ١٩ . سنرى هنا ان نتائج المريط تثبت هذه النظرية .

(٨) Higgs et Jarman 1972 .

استثماره للجماعة الداجنة ، يمكن أن يمارس . . .خياراً تاماً حين المطلوب «طرح» حيوان من أجل استهلاكه مثلاً . . . . وهذا الخيار تحديداً هو الأمر الذي تريد الطريقة الإحصائية جلاءه»[٩] . وكما يرى القارئ ، هذا يقع في درجة أخرى من التطوّر هي غير الأشكال الألف للتعايش (أو الطفيلية المتبادلة) بين الانسان والحيوان الوحشي الذي يقدّم لنا علم ماقبل التاريخ وعلم الاتنولوجيا أمثلة شتى عنه .

في ميدان النبات ، ، كان بريدوود[١٠] قد انطلق من مسلّمة أنه توجد ، قبل تمام الفعّالية الزراعية بالمعنى الحقيقي والحصري ، مراحل متوسطة سمّاها «ثقافة - نبات» أو «بدايات زراعة ، incipient cultivation»[*] ، تبعاً لوجود أو عدم وجود «حقول» مزروعة .

الواقع أنّ من الممكن التساؤل ، هنا أيضاً ، أين تبدأ الزراعة الحقيقية ، مادام هناك ممارسات ممكنة (عزق ، سقاية ، إبادة الأعشاب ، الخ . . .) ، حتى بدون أن يمثل في عدادها فعل الزرع (planter) المركزي ، من أجل تسهيل تكاثر ونمو أنواع هامة للغذاء (أو لغيره) في مكان مختار . وللأسف قد تبقى هذه التمييزات نظرية جداً لعدم وجود وسائل منهجية من أجل تحديد الأساليب المستخدمة ، خاصة إذا كان الفعل الزراعي ، كما راينا ، لايستتبع ، إلاّ بعد أجَلٍ متفاوت الطول ، النتائج المورفولوجية التي تسمح بتحديد هوية النبات المعني تحديداً مؤكّداً .

إذاً نحن متفقون على طرح «فعل الزرع» جانباً ، لأنه الآن غير قابل للبرهنة عليه في المراحل الأقدم التي تعنينا[١١] ، ولنبدأ بالزراعة (ثقافة الأرض) كلما ظهر تركيز اصطناعي ومحدّد طبوغرافياً لنباتات مستثمرة . هذا التموقع النباتي الذي مرده للانسان يعرّف **الحقل** ، مقابل التوزع المتفشّي لنوع غير متحكّم به الذي يفرض على حالة القطف العادية استراتيجية جمع متناثرة ومتنقلة بآن معاً[١٢] . هذا التعريف ، وإن كان ناقصاً ، يسمح

(٩) Ducos 1976 ، ص ١٤٨

(١٠) Braidwood et Braidwood 1953

• نذكّر بأن Culture = ثقافة ؛ زراعة . agriculture ، الزراعة ، زراعة الأرض ، ثقافة الأرض ، تثقيفها. planter : زرع ، غرس ، بذر . المترجم

(١١) إلاّ أن ذلك بطبيعة الحال حين تكون بعض النباتات مثبتة بشواهد علم الآثار خارج الحيّز الطبيعي لتطورها .

(١٢) انظر آنفاً ، الفصل الثاني ، الصفحة الأخيرة .

على الأقل بأن نُدخل في النقاش انضباطات علمية كعلم البالينولوجيا (دراسة غبار الطلع) الذي لايمكّن كما هو معلوم من الصعود بالنسبة للحبوب حتى النوع لكنه بالمقابل يستطيع إظهار تركّزات اصطناعية للعوامل الطّلْعية . من جهة أخرى إن «حدّ البداية» المقترح يمكن أن يتقاطع مع تحوّل أساسي لتصوّر المجال المحيط بالقرية ، إذْ أن فكرة «الاقليم» (إقليم الصيد أو القطف) الغامضة والمتفشية سيعقبها الآن الاضطلاع والنهوض ببعض المجالات المختارة ، التي يقيمها **الشغل** النوعي الموظّف فيها ، وأياً تكن في البداية طبيعة هذا الشغل الدقيقة . منذئذ يمكن أن تدخل «قِطع» الأرض التي يحدّد هذا الكدح محيطها ، شأنها شأن الحيوان الداجن حسب دوكو ، يمكن أن تدخل في «التنظيم الاجتماعي - الاقتصادي» لجماعة في شكل موضوع ممكن للتملّك والنقل الوراثي» .

هذه التعريفات القليلة والبالغة العمومية ستتيح لنا تناول المسألة الجوهرية في هذا الفصل : متى تظهر زراعة الأرض وتربية الحيوان في قرى بلاد الشام ؟ لكن يجدر أيضاً أن نوضح كذلك أن الأصول الحقيقية لهذين الاتجاهين في إنتاج القوت لايمكن إدراكها بالتساوي في هذا الاطار القروي الذي نبحث عنها فيه . فزراعة الأرض هي على سبيل التفضيل نشاط حضريين مستقرّين . أجل توجد زراعات متنقلة حيث القوم لايحط رحاله في مكان من الأماكن إلاّ وقت الزرع والحصد ، لكن الزراعة ، وبخاصة زراعة الحبوب ، لاتأخذ تمام جدواها وفعاليتها إلا بفضل إمكانات التخزين التي يسمح بها الحفظ الجيّد للحبّ الناضج . والحال ، يفترض هذا التخزين من فصل تلو آخر ثبات السكن . وبالتالي فالقرى المستقرة ماقبل الزراعية تشكّل ، مبدئياً ، بيئة ملائمة جداً لنشوء الزراعة . على العكس ، إنّ تأهيل الحيوانات ، لاسيّما حين يتصل بالأنواع التي هي جمعية - قطيعية ومتنقلة - مهاجرة معاً بآن (البقريات ، المعزيّات ، الخ) والتي تؤلف قوام موارد اللحوم في الشرق الأدنى ، لايمكن أن ينشئه الانسان تدريجياً إلاّ إذا ارتضى اللحاق بالقطيع أولاً قبل قيادته[١٣] . تدجين الحيوانات «متحرّك» بادئ الأمر[١٤] وهو من جهة أخرى يبقى كذلك طوعاً (الشعوب الرعاة) . حين يكون الحضريون هم أنفسهم من مربّي الحيوان ، فهذا معناه أن سيطرتهم على الأنواع المرعيّة بلغت مرحلة متقدّمة تمكّن من إبقائها في جوار القرية . وبالتالي فإن المراحل الأكثر ابتدائية قد تستعصي على معرفتنا .

(١٣) Leroi - Gourhan 1973 ص ٩٦ - ٩٧

(١٤) بدون شك ما عدا بالنسبة لأنواع غير «بدوية» (غير رعوية) كالخنزير pore .

مسألة الغزال في العصر النطوفي

رأينا[١٥] أن اقتصاد **النطوفين** كان يرمي قبل كل شيء إلى تنويع الموارد الغذائية البرية[١٦] . لايوجد إذاً أيّ مؤشر على زراعة في أفق قراهم . كذلك لايوجد مؤشر على تربية ، بالمعنى الذي عرّفنا به هذه الكلمة لتوّنا ، علماً بأن العلاقة الوثيقة التي تتظاهر هنا بين الانسان ونوع خاص ، هو الغزال ، قد أثارت تأويلات مختلفة . فلقد أسفرت جميع المواقع النطوفية[١٧] ، سواء كانت بكهوف أو بقرى ، عن لوائح بالأنواع المقتولة ، وتنوعها يعكس تنوع البيئة ، لكن للغزال غلبة قوية جداً بين اللبونات ، مهما تكن البيئة الخاصة المحيطة . في جبل الكرمل ، تمثّل هذه الغلبة في العصر النطوفي : ٩٧,٣٪ من البقايا في **إلواد**[١٨] ، ٤٨,٢٪ في كباره[١٩] ، ٨٥,٣٪ في راكفيت[٢٠] ، ٨٣,٣٪ في وادي الفلاح[٢١] . في هايونيم ، حيث عُثر بشكل خاص على الحيوان الصغير (زواحف ، طيور) ، يهيمن الغزال أيضاً بين آكلات العشب المقنوصة[٢٢] . على نهر الأردن تصل نسبته إلى ٤٤,٦٪ من البقايا في عين ملاحة[٢٣] . وعلى الفرات أخيراً تبلغ ٦٥,٣٪ في أبو هريرة[٢٤] وتبدو أيضاً مهيمنة بقوة في قاعدة المريبط[٢٥] .

لسنا إذاً أمام ظاهرة خاصة بالقرى ، بل أمام ظاهرة تطبع مجموع الثقافة . من جهة أخرى هذا الإيثار للغزال موجود منذ الكباري ويتواصل في النيوليتي السابق للفخار

(١٥) الفصل الثاني .

(١٦) إنه الاقتصاد ذو «الطيف العريض» عند Flannery 1969 .

(١٧) باستثناء **البيضا** وحدها حيث **العنزة** تغلب منذ النطوفي وهي موضوع لِـ «تحكّم ثقافي» ما ، حسب Hecker 1975 .

(١٨) حسب بيتس في Garrod et Bates 1937 .

(١٩) Saxon 1974 ، ص ٤١ .

(٢٠) Vita - Finzi et Higgs 1970

(٢١) Noy, Legge et Higgs 1973 ، ص ٩٠ .

(٢٢) Bar Yosef et Tchernov 1966

(٢٣) Ducos 1968 ، ص ٧٣

(٢٤) ليج في Moore, Hillman et Legge ، ص ٧٥

(٢٥) الحيوان النطوفي لم يدرس بعد ، لكن **الغزال** يهيمن مباشرة بعد ذلك (المرحلة الثانية او المستويات ١ ـ ٨ عند فان لون) .

A[٢٦] . في وادي الفلاح ، **يؤوّلها ليج**[٢٧] على أنها ظاهرة تأهيل بموجب المعيار نفسه الذي يعتبره **بركينس** حاسماً بالنسبة لخروف **زاوي شيمي شانيدار** في الألف العاشر وأغنام ـ ماعز **البيضا** الا وهو نسبة عالية (٤٥,٣٪) من الصغار ذوات المشاشة التي لم تلتحم بعد . يبقى أن كيان خروف زاوي شيمي شانيدار والتأهيل المبكر بشكل عجيب الذي ربّما يشهد عليه هذا الخروف بعيدان عن تحقيق الإجماع بين المتخصّصين في علم الحيوان القديم ، وكذلك من جهة أخرى كفاية المحكّ المذكور (كثرة الصغار غير الناضجين) لاستنتاج وجود تربية حقيقية[٢٨] . لاتزال فرضية صيد يفضّل الغزال ، تفضيلاً يعكس خياراً ثقافياً أكثر مما يستجيب لضغط بيئي[٢٩] ، تبدو هي الأفضل في الحالة الراهنة لهذه المناقشات . لاريب ثمة هنا مثال عن «منادمة» («مزاوجة») تربط برباط تعايشيّ ثقافةً بشريةً ونوعاً حيوانياً وتترجم من الآن في اختلالات في مستوى منحنيات الأعمار . لكن لاشيء يقترب من تأهيل بالمعنى الحقيقي يتيح ، كما رأينا ، إجراء «اختيار كامل» للحيوانات التي يجب أن تُقتل[٣٠] .

أخيراً إن حيواناً واحداً ، بلا فائدة غذائية ، يمكن أن يكون قد دُجّن في العصر النطوفي ، وهو الكلب . لايوجد بعد برهان مورفولوجي ، لكن يمكن أن نؤوّل على هذا النحو دفن كلب في وقت واحد مع رجل في عين ملاحة[٣١] .

بدايات الزراعة في الألف الثامن

إن دراسات جامعة حديثة العهد[٣٢] قد استبعدت أيضاً ، على الأقل في الحيز

(٢٦) مثلاً في أريحا (Clutton - Brock 1971) **وفي وادي الفلاح** . (Noy, Legge et Higgs 1973، ص ٩٠)

(٢٧) المرجع نفسه ، ص ٩١ .

(٢٨) هذه الخاصة نفسها تلاحظ في المستوى السفلي (D) الباليوليتي في كهف **شانيدار** ، حيث لا تؤوّل الا بوضعها مؤشراً على صيد اصطفائي (هوبكنس ، ذكره Bokonyi 1969 ، ص ٢٢٢) ، كما في **بارادوستيّ يفتح** الذي درسه موري Murie .

(٢٩) Henry 1975 يتكلّم بحق عن «فيلتر ثقافي» لشرح هذا التفضيل .

(٣٠) بالأحرى لعل زيادة في البالغين متوسطي العمر بين الحيوانات المقتولة شاهد أفضل على هذا الاختيار في التربيات الاولية الرابعة الى إنتاج اللحم (Ducos 1979 ، ص ١٤٩) .

(٣١) Perrot 1976

(٣٢) Perrot 1968 . مع ذلك ، كان برّو في سنة ١٩٦٢ يؤيد ، رغم رأي **زوينر** ، انه من الصعب ان نستبعد بالنسبة لأريحا النيوليتي السابق للفخار A «مستوى معقولاً من إنتاج القوت» (Perrot 1962 ، ص ١٥٢)

الفلسطيني ، الذي كان معروفاً على النحو الأفضل ، كل إنتاج للعيش في الألف الثامن . من جهة في الميدان الحيواني لاتتغير كثيراً لائحة الأنواع المقنوصة ، كما رأينا ، عنها في العصر النطوفي . أما الفرضية التي تقدّم بها كينيون[٣٣] في الماضي والقائلة بوجود الزراعة كتعليل للتركّز الديموغرافي القوي في أريحا النيوليتي السابق للفخار A، فقد نُحّيت هي أيضاً لأسباب إيكولوجية .

بالفعل إن معاينات علماء الطبيعة والاستنتاجات الايكولوجية التي استخلصوها منها هي في أصل هذا الرفض ، أما علماء الآثار فقد ساروا وراءهم . إن مواقع النيوليتي ماقبل الفخار A تقع جميعاً داخل الحيز الطبيعي للحبوب البرية . والحال ، نعرف تجربة **هارلان**[٣٤] في جبال تركيا ، التي تبيّن أن من الممكن ، في مناطق الكثافة الطبيعية للحبوب ، حصدْ كيلو غرام من الحبّ في ساعة بمنجل من الصوان ، أي ، بالنسبة لجماعة مستقرة ، تأمين احتياطيها السنوي من البروتيين ، من غير صعوبة باقتصاد القطف وحسب . كانت هذه التجربة فاتنة بالنسبة لباحث حديث لاسيما وأنها تقدّم أرقاماً وتوفّر جميع ضمانات الموضوعية . فهي بالفعل تبيّن كيف استطاعت القرى النطوفية أن تعيش وأن تزدهر في مرحلة ماقبل الزراعة . ولكن **هارلان** استخلص أيضاً من هذه التجربة نتيجة أكثر جسارة ، ويؤيدها كذلك معظم المؤلفين : «قد لايكون التأهيل وقع حيث تتوفّر الحبوب البرية بكثرة . لماذا يزرع المرء حبّاً حيث المواقع الطبيعية لاتقلّ كثافة عن حقل مزروع ؟ . . .»[٣٥] . هذا «اللانفع» للزراعة حيث تكثر الحبوب البرية يجعلهم يستنتجون أنه ليس هنا أمكن أن تولد ، بل كحدّ أقصى في المناطق المتاخمة حيث تغيب هذه الوفرة .

فلانري[٣٦] ينطلق بدوره من هذه النتائج ويرى تثبيتاً لها في واقع أن الآثار الأولى لحبوب أهلية مورفولوجياً ومعروفة إنما تأتي من هذه المناطق المتاخمة ، ألا وهي **وادي العربة** (موقع البيضا) **وحوزستان** (علي كوش) . وتكون الزراعة في نظره محاولة إنتاج اصطناعي ، على هوامش المنطقة «المثلى» ، لحبوب لاتقلّ كثافة عن تلك التي في قلب هذه المنطقة ، أي نوعاً ما الردّ باستراتيجية جديدة على نقيصة في البيئة .

بنفورد[٣٧] ، إذْ يلاحظ من جهته أن أقوام الصيادين ـ القاطنين تنزع بشكل طبيعي

(٣٣) Kenyon 1957 ، ص ٧٤

(٣٤) Harlan 1967

(٣٥) Harlan et Zohary 1966 ، ص ١٠٧٨

(٣٦) Flannery 1969 ، ص ٨٠ - ٨١

(٣٧) Binford 1968 ، ص ٣٢٨ - ٣٣٢

إلى إحكام ديموغرافيتها تبعاً للموارد المتوفّرة فعلياً ، فهو يتساءل عن العامل المعكّر الذي أمكن أن يجيء ليكسر بشكل مفاجئ توازناً سابق الإقامة بين الأقوام والموارد ، إلى درجة جعلت من الضروري لإعادته ظهور معالجات جديدة للبيئة المحيطة . يجد هذا التعليل في ظاهرات الهجرات التي اضطّر الحضريون النطوفيون الأوائل للجوء إليها كي يتلافوا الزيادات الديموغرافية وانكسار توازنهم . وتكون هذه الزمر المهاجرة بالمقابل عكّرت توازن الشعوب المحيطية التي كانت تستقبلهم ، والتي كانت أقلّ استقراراً منهم ، الأمر الذي يؤدي إلى اكتشاف تكنولوجيات جديدة أكثر إنتاجيّةً من أجل تلافي المجاعة .

هكذا يكون تعليل أصل إنتاج العيش ، مع تموقع مشابه للذي نجده عند هارلان وفلانري : الأطراف المحيطة بمنطقة الحبوب البرية ، مسكن «مبتدئي الاستقرار» النطوفيين . هذا الحيّز الأطرافي ، المدعوّ «منطقة توتّر» بسبب الحالة المأزومة التي يُفترض أنه مسرحها ، لابدّ أن يُظهر ، حسب بنفورد ، علائم آثارية جلية تدلّ على اختلالات ثقافية ناجمة عن تدخل القادمين الجدد . هنا يتوسّع «الموديل» ويصير نبوءة . . . والحال ، إن مصادرة (مسلّمة) غير مفقودة هي في أساس كل هذه الاستنتاجات بدءاً باستنتاج هارلان : مسلّمة أن إمكان الاستغناء عن كل زراعة لتأمين العيش هو سبب كاف لكي لاتوجد ، والعكس بالعكس أن ضغط نقص غذائي هو الباعث الوحيد الممكن لتعليل اختراعها . باقتضاب ، ينبغي أن يكون كل شيء قضية إحكام بين جماعة معطاة من السكان ومواردها الغذائية الممكنة . إذا كانت البيئة أفقر ، أو إذا ازداد فجأة عدد الأفواه التي يجب إطعامها ، بسبب حركة هجرات وافدة (وهذا خيار بنفورد الخاص) ، عندئذ لاتعود النباتات البرية كافية وهكذا يصير الناس مزارعين . .

معطيات المريط

بقي أن تُخضَع هذه الفرضيات لامتحان الوقائع . والحال ، إن النتائج التي حصلنا عليها مؤخراً في المريط لم تثبتها ، كما ولم تثبتْ المسلّمة المشتركة القابعة في منبعها[٣٨] .

مع أن التحديد الذي حققه **فان زَيست وكاسباري**[٣٩] منذ سنة ١٩٦٨، لهوية شعير وقمح برّيَّيْن مورفولوجيًا في مستويات الألف الثامن موضوع تنقيبات **فان لون** كان

(٣٨) Cauvin J . (a) ، يصدر لاحقاً .

(٣٩) Van Zeist et Casparie 1968

لايزال يجعل فرضية قطف مديد فرضية معقولة ، وإن كان غياب هذا القمح البري «الثلاثي» «(تريتيكوم بويتيكم ثودار) Triticum boeticum Thaoudar» اليوم على الفرات الأوسط قد أثار مشكلات[٤٠] .

إن التنقيبات الأخيرة ، لدى بلوغها قاعدة التل النطوفية ، قد بيّنت من جهة أن هذا القمح كان حاضراً منذئذ[٤١] ، وبالتالي أنه كان ، بشكل أكيد تقريباً ، محلياً غير مستورد : إذاً فالخرائط النباتية التي تخلص من التوزع الحالي لمناطق الحبوب البرية إلى اتساعها القديم يجب أن تُستخدم بحذر وحيطة ، فقد تغيّر التوزع خلال آلاف السنين . من جهة أخرى ، في العصر النطوفي ، المرحلة الثانية وحتى بداية المرحلة الثالثة ، مازال حضور هذه الحبوب قائماً في إطار اقتصاد غذائي «ذي طيف عريض» حيث ، إلى جانب نباتات برية شتى ، تُستثمر الطرائد الأكثر تنوعاً والموارد السمكيّة على نطاق واسع ،طبقاً لكل مارأينا عن الصيادين ـ القاطفين النطوفيين بمجملهم . في المرحلة الثالثة B، أي اعتباراً من حوالي سنة ٧٧٠٠ ق .م ، يجري تبدّل كامل في الاستراتيجيات الغذائية ذو دلالة بالغة في أهميته وسياقه .

ولقد أتاح تدخّل علم دراسة غبار الطلع ، وكثيراً ماهو غائب عن ميادين تنقيبات ماقبل التاريخ في الشرق الأدنى ، أتاح لِ **أرليت لوروا غورهان**[٤٣] أن تكشف ازدياداً غير طبيعي في غبار طلع الحبوب يصل إلى ٨٪ ، مما يوحي بتركيز اصطناعي لهذه الحبوب في الجوار المباشر للتل . إنّ فكرة وجود «تمهيد زراعة» protoagriculture التي تقترحها هذه الباحثة تبدو معقولة ، لاسيما وأن الهيئة البرية مورفولوجياً للحبّ المكتشف لم تعد تُعتبر مقرّرة لرفض التدخّل البشري[٤٤] ، لاسيّما أيضاً وأن هذه الواقعة الجديدة ، التي يراها علم

(٤٠) أمكن التساؤل ما اذا لم يكونوا يعودون بهذا القمح من حملات نائية في جبال تركيا ، حيث ينمو في أيامنا ، وفي النهاية أمكن الطعن في ديمومة قرية المريط .

(٤١) إبلاغ شخصي من Van Zeist . يُعثر عليه ايضاً منذ قاعدة ابو هريرة النطوفية (Moore, Hillman et Legge 1975) .

(٤٣) Leroi - Gourhan Arl. 1974. [يجب عدم الخلط بين هذه الباحثة الآثارية المعروفة في سورية وبين سميّها عالم ما قبل التاريخ والأنتولوجيا الشهير : **أندره لوروا ــ غورهان** . انظر لائحة المراجع]. (المترجم)

(٤٤) في الوقت نفسه أمكن لشغل الارض ان يسهّل ظهور نبات «آذان الجدي» ، الغائب حتى ذلك الحين ، وإن كان يمكن لهذا النبات ، في الشرق الأدنى وبخلاف أوروبا ، ان لا يكون بالضرورة مرتبطاً بنشاطات زراعية : انظر Van Zeist 1977 ، ص ٣٠ أخيراً لنذكُر انه اعتباراً من المرحلة الثالثة B نفسها، نجد في المريط بضعة أقراص حجرية مثقوبة يمكن ، بدون دليل حاسم ، تأويلها على أنها أوزان عصي الحفر .

غبار الطلع ، تندرج في جملة من الاختلالات الاقتصادية تتخطاها من جميع الجهات .

بالفعل ، لفي مجرى المرحلة الثالثة ، منذ المستويات ١٠ إلى ١٣ عند فان لون (أي في الثالثة A) ، يكتشف دوكو[٤٥] تحولاً تدريجياً في تقنيات الصيد : من قتل بالغ التنويع ، يشتمل على البقر والحمار البريين لكن مازالت تهيمن فيه المجترات الصغيرة (الغزال) ، ينتقل أهل المريط إلى صيد «متخصص» ستكون الغلبة فيه وبقوّة ، داخل لائحة عامة لم تتغيّر ، لأكبر هذه العاشبات : حمار الوحش والبقر البري . كما يبيّن دوكو بشكل جيد[٤٦] ، لسنا هنا أمام تغيّر للمحيط الحيواني ، بل أمام استراتيجية مختلفة هي من صنع الصيادين أنفسهم ، استراتيجية أكثر «ريعية» من الناحية الغذائية ، مادامت توفر كمية من اللحوم أكبر بكثير وذلك بعدد من الحيوانات المقتولة لم يتغير .

من جهة أخرى ، لوحظ عند التنقيب أن عدد فِقرات الأسماك ، التي تجنى بواسطة الغربال ، يصير في العصر نفسه تافهاً بالمقارنة مع ماكان يجنى عن المراحل السابقة . إذاً فصيد الأسماك ، الذي كان تكملة مرموقة في الاقتصادات النطوفية ، إن ليس يُهجر تماماً فهو بالأقل يُخفّض إلى مرتبة مورد ثانوي جداً . بالتالي فنحن فعلاً أمام توجّه مختلف في مجموع النشاطات الغذائية ، أي أمام تضييق أو توثيق لِ «الطيف» المعرّف سابقاً بأنه عريض .

هذا التوثيق يعبّر ، من جانب قرويّي المريط ، عن **خيار** دقيق أجروه داخل مواردهم الممكنة ، التي باتوا يهملون بعضها . ولئن كان هذا الخيار الجديد ، في الميدان الحيواني ، لايفترض بأي حال التأهيلَ ، فلعله في ميدان النبات يمثّل الخطوات الأولى للزراعة . هذا معناه أيضاً وجوب الانتباه إلى سياق هذا الظهور ، عند الرجوع إلى الفرضيات السابقة . ليس هذا التغير نتيجة إفقار أصاب البيئة ، فبالعكس تكتشف دراسة غبار الطلع اعتباراً من ٨٠٠٠ ق .م بعض الازدياد في رطوبة المناخ ، الأمر الذي يغني السهب المجاور بالنجيليات وبالتالي يساعد التكاثر الطبيعي للحبوب البرية[٤٧] . وهو من جهة أخرى لايرافق أياً من

(٤٥) Ducos 1975, 1976 .

(٤٦) Ducos 1976 ، ص ١٥١

(٤٧) هذا التغير المناخي يبدأ منذ ٨٠٠٠ ق م (المرحلة الثالثة A) بانخفاض السرمقيات وصعود النجيليات ، ويشتد نحو ٧٧٠٠ ق م (الثالثة B) في الوقت نفسه مع ظهور علائم زراعة الأرض (Leroi - Gourhan Arl. 1974) . من المفيد مجابهة هذه النتائج مع نتائج الباحثة نفسها (١٩٦٩) في زاوي شامي **شانيدار** على نهر الدجلة الأعلى ، حيث نجد الملاحظات نفسها : إن كون الآثار الطلعية الاولى للزراعة تتطابق هنا أيضاً، كما في مريط الثالثة B ، مع الفؤوس المصقولة الأولى (انظر أدناه ، ←

هذه الاختلالات الثقافية التي يفترض **بنفورد** أنها تشير إلى دخول زمر مهاجرة جاءت من مكان آخر . بالعكس ، تشهد هذه المعطيات الآثارية كافة على التطور المتصل لزمرة بشرية محميّة نسبياً من المؤثرات الغربية[٤٨] .

بالمقابل ، يبدو وجود علاقة بين هذه التحولات والتنامي الديموغرافي لقرى الفرات أمراً مؤكداً . توحي بهذه العلاقة «عتبة» الـ ٢ إلى ٣ هكتار التي تبلغها آنذاك مساحة المريبط والشيخ حسن[٤٩] . قبل محاولة استشفاف هذه العلاقة بشكل صحيح ، من المناسب مجابهة نتائج الفرات هذه مع مانعلم عن فلسطين في الألف الثامن .

معطيات أريحا

رأينا أن مواقع النيوليتي ماقبل الفخار A نادرة جداً . أندر أيضاً المواقع التي جاءت فيها أعمال علماء الطبيعيات لتوضح فعلياً نظام القرى الغذائي . إن حضور الزراعة في أريحا قد اقترح ثم استبعد على أسس استنتاجية بحتة وقبل أي تحليل للبقايا النباتية . لئن ثبت فعلاً غياب تدجين الحيوان منذ أعمال **كلوتون ــ بروك**[٥٠] ، فالدراسة النباتية التي قام بها **هوبف** [٥١] كانت موجبة فيما يخص الزراعة . بالنسبة للحنطة ، الوثائق بحقيقة القول فقيرة إلى حد كاف ، إذ أن القضية هي تحديد حبتين اثنتين من القمح النشوي ، «تريتيكوم ديكوكوم» ، النوع المعتبر حتى الآن الشكل المزروع للقمح النشوي البري «تريتيكوم ديكوكويدس» الذي ينبت تلقائياً على ضفاف نهر الأردن . عثروا أيضاً على ست حبّات من الشعير المزدوج الصف ، «هورديوم ديستيشوم» ، وهو نوع مدجّن أيضاً . إذاً فأريحا النيوليتي ماقبل الفخار A تشهد شهادة رصينة لكنها نافذة على زراعة قائمة إلى

← الفصل السادس ، عند الحواشي ٢٢ - ٢٩) في مستويات التنقيب العلوية يوحي بأن احتلال هذه القرية ، التي لا يوجد عنها سوى تاريخ واحد بالكربون ١٤ (هو ٨٨٥٠ ق م) قد تواصل على الألف الثامن بموازاة مريبط الثالثة .

(٤٨) هذا التواصل يدرَك في الاساليب المعمارية كما وفي الصناعات الحجرية : Cauvin J. (a) يصدر لاحقاً ، والعظميّة : Stordeur ، يصدر لاحقاً .

(٤٩) انظر آنفاً ، نهاية الفصل الثالث .

(٥٠) Clutton - Brock 1971

(٥١) Hovf 1969

حد كاف لتوليد أنواع جديدة[٥٢] . هذه النتائج ، التي لم تُستثمر إلاّ قليلاً جداً بالأمس لأنها كانت تبدو نادرة ومعزولة معاً ، أصبحت الآن معزَّزة بنتائج المريبط[٥٣] .

أسباب الزراعة

في أريحا كما في المريبط ، المعطيات المتوفرة عن ظهور الزراعة تتطابق زمنياً مع مرحلة توسّع ديموغرافي وتفتّح ثقافي أيضاً ، كما بيّنت لنا دراسة الفنون المعمارية . العلاقة مع الديموغرافيا لاتعني أنه يجب أن نرى في هذا الحدث الجواب على مسألة غذائية وحسب . من المرجّح جداً أن الاستراتيجيات التقليدية كانت ستكفي لإطعام سكّان زاد تعدادهم ؛ على كل حال ، ماكانوا سيتخلون عن بعضها ، كصيد الأسماك في المريبط . ليس الجرار المحيط ، في مريبط الثالثة ، مستثمراً استثماراً مشبعاً ، بل بالعكس أصبح الاستثمار اصطفائياً أكثر من ذي قبل .

بالمقابل إن **فلانري**[٥٤] ، وقد استأنف فكرة قديمة من حدْس **ماركس وإنجلز** قد رأى بشكل جيد أن المعضلة الجوهرية في النموّ الديموغرافي لجماعة أو متّحد بشري إنما تنطرح بشروط وحدود ومفردات بنى اجتماعية . إن مايجعل أن زمرة بشرية تنفجر وتنشقّ ابتداء من عتبةٍ كميةٍ ما هو قبل كل شيء مسألة تنظيم وممارسة للسلطة autorite. الزمرة تنجزئ تلافياً لتوتّرات في داخلها لايسمح لها نضجها السوسيولوجي بأن تجابهها . بالتالي ، إذا كنا نرى القرى في لحظة من اللحظات تكبر في الحجم والسكان فثمة هنا فوراً تخمين قويّ ، قبل أيّ بحث آخر ، بأن تكون حلول جديدة قد تمّ اختراعها آنذاك في ذات مستوى حياة الزمرة وتلاحمها .

لاريب كان شيء من هذا القبيل قد حصل في عصر سابق حين انتقل النطوفيون من الكهف إلى القرية ، لكن من الصعب تقديم الأدلة على ذلك . بالعكس ، إن القفزة الكمية الجدية التي تحصل في قرى الألف الثامن تتركنا أقلّ عرياً وأكثر تسليحاً : هذا ماستبيّنه لنا مجابهة أولى بين «المتحولات» التي سبق أن حللناها .

(٥٢) هذا يثبت اذاً انطباع كنيون الأوّل (Kenyan 1957 ، ص ٧٤) ، الذي أيّده **بريدوود** (Braidwood 1957) ، ومفاده ان موقعاً بهذا الحجم وبهذا المستوى الثقافي ما كان يمكن ان يعيش على الجمع وحسب .

(٥٣) يوجد أيضاً «تريتيكوم ديكوكوم» في النيوليتي السابق للفخار A بوادي الفلاح .

(٥٤) Flannery 1972 ، ص ٤٨ .

بالفعل ، إن مايميز النشاطات الجديدة التي يشهد عليها عصر النيوليتي السابق للفخار A إنما هو التنظيم الذي تقتضيه : سبق أن لاحظناه بالنسبة للانجازات المعمارية في أريحا . من جهة أخرى ، إن مايميز نشاطاً زراعياً عن قطف الحبوب البرية هو ، وقد رأينا ذلك ، إن هذه الأخيرة متفشيّة وتقتضي سعياً منثوراً ومشتّتاً(٥٥) ، على حين أنه يظهر مع «الحقل» التموقعُ في نقطة مختارة من المجال ، تموقع شغل جماعيّ ومتآنٍ ، إذن منظَّم(٥٦) . ولعلّ الاختيار الأفضلي للطرائد الكبيرة ، وهي أصعب على الاقتناص ، يعبّر عن اتجاه مشابه في ميدان الصيد ، فتقنيات القنص هي التي تبدو موضع المسألة أكثر من طاقة البيئة الحيوانية الخام .

إذاً من غير الصحيح القول بعدم توازن بين الانسان والجوار المحيط يكون ضغطاً لصالح التأهيل . من الأصح أن نقول أن زمراً بشرية ، إزاء التوترات الداخلية التي ترافق النمو الديموغرافي بشكل طبيعي ، قد تجنّبت آنذاك ، لأوّل مرّة ، الانفجار ووجدت حلاً للتناقضات التي كانت تجتازها باكتشافها ، خلال الممارسة اليومية لبيئتها الطبيعية ، نماذج جديدة من العلاقات الاجتماعية(٥٧) . وهكذا ، تكون الزراعة شكلاً لتلاؤم المجتمع الانساني **مع ذاته** أكثر مما مع بيئته الخارجية .

الانتاجية المنمّاة يستتبعها مع كل تنظيم لها ، بالتأكيد ، نتائج اقتصادية جلية مادامت تضاعف التموين ، وهي تبدو إذن ترافق بل وتسهّل النمو الديموغرافي . لكنه وهم بصريّ أن نرى هنا الظاهرة الجوهرية . لقد بيّن سالين(٥٨) بشكل جيد أنه ، بعكس حكم مسبق رومانسي يجعل من الصياد ـ القاطف كائناً بائساً يتسلّط عليه هاجس السعي وراء الطعام ، لاتتطلب اقتصادات الصيد ـ القطف ، خاصة حين تكون منغرسة في مناطق غنيّة(٥٩) ، سوى نشاط محدود من المشاركين . فهي جوهرياً غير مستثمرة ، وإن صحّ القول ، بلا زرع ، وبهذا القدر أرض عذراء ، رأسمال كبير من الموارد غير المستثمرة ومن الزمن غير المستخدم . المجتمع ماقبل الزراعي «مجتمع وفرة» يكفي فيه شغل محدود لتغطية

---

(٥٥) انظر آنفاً ، نهاية الفصل الثاني .

(٥٦) عن زمر العمل الكومونية (الجماعية) في القرى الزراعية الأولى ، انظر Flannery 1972 ، ص٤٠ .

(٥٧) 1977 ... Malenfantet . هذه النتائج ، التي مآلها إعطاء العوامل السوسيولوجية الامتياز على الأسباب الايكولوجية البحتة ، هي في الحاصل بمثابة رجوع الى فرضية بريدوود التي تجعل من نشوء الزراعة مسألة مستوى ثقافي (Braidwood et Willey 1962 ، ص ٣٤٢)

(٥٨) Saklins 1972

(٥٩) وليس في المناطق غير المحظوظة حيث حصَرَها في أيامنا التقدم العام .

حاجات تُبقيها الثقافة في مستوى ضعيف . تلزم إذاً ، لكي يتغير الانسان على هذه النقطة ، حوافز من نوع آخر . والحال ، إنّ المختصين في سيكولوجية الزمر يعلمون جيداً أنه لاتوجد وسيلة أخرى لمجابهة المنازعات الداخلية التي يثيرها نموّ زمرة من الزمر سوى توجيه التوترات في قناة **براكسيس** جديدة . كان مجتمع المريبط في الألف التاسع منظومة متوازنة مع وسطها ومع نفسها . وإن تغيرات الألف الثامن تستجيب فعلاً لاختلال في التوازن ، لكنه غير إيكولوجي : إنه اختلال داخلي لم تكن مجتمعات الماضي تعرف جواباً عنه سوى الإفراق (الهجرة والانتشار والتوزّع) . ولقد ردّت قرى بلاد الشام على نحو آخر ، بتغييرها لبناها **عبر** نشاطاتها . يبدو ظهور الزراعة واحداً من هذه الأجوبة ، في الوقت الذي كان فيه ، من جهة أخرى وكما رأينا ، مجتمعٌ ـ في مخاض يسعى ، من جهة أخرى ، إلى أن يحقق في عماراته طرقاً مغايرة هي أيضاً في العيش معاً . وماسيفعله النيوليتي السابق للفخار B ليس ، في هذه الحيثية ، سوى إنماء وتجسيم التطور الذي ارتسمت خطوطه في النيوليتي السابق للفخار A.

النيوليتي السابق للفخار B وظهور تربية الحيوان

إذاً في الألف الثامن وفي نصفه الأوّل ظهرت الآثار الأولى لإنتاج القوت في بلاد الشام . كانت محصورة في نشاطات زراعية . العصر التالي يُظهر بشكل مؤكّد ، مع توسّع البيوت المستطيلة ، تعممَ الزراعة في الجماعات القروية ، في كل المرات التي حظيت بدراسات لمختصين في ميدان النبات . والواقعة الجديدة ، المثبتة ، هي تربية الماشية الصغيرة في هذه القرى نفسها .

الوثائق قليلة عن سورية (الجمهورية العربية السورية) ، فحبوب وحيوانات **مريبط الرابعة وأسود دمشق الثانية** لم تدرس بعد . إن التركز «غير المعياري» لغبار طلع الحبوب في مريبط الثالثة يتواصل في مريبط الرابعة A، لكنه بالمقابل ينقطع في مريبط الرابعة B، وذلك بدون أن تكون الشروط الطبيعية (وبخاصة الوفرة الاجمالية لغبار طلع النجيليات) قد تغيّرت . قد يعني ذلك ببساطة أن الحقول لم تعد قرب التل مباشرة بل أصبحت أبعد ، وهو انتقال يُفهم بسهولة في إطار ممارسات التبوير البدائية(٦٠) .

خارج سورية ، لكن قريباً جداً من حدودها الشمالية يُزرع البُرّ أو القمح «(تريتيكوم

---

(٦٠) Mortensen

مونوكوكوم») في موقع تشايونو التركي[٦١] . وهو أيضاً العصر الذي تتظاهر نيه ، نحو ٧٠٠٠ق .م ، الآثار الأولى لزراعة يُتعرّف عليها مورفولوجياً في إيران بموقعي **غنج داره**[٦٢] **وعلي كوش**[٦٣] .

في **فلسطين** ، إن وفرة القمح الأهلي («ترينيكوم مونوكوكوم») في أريحا النيوليتي السابق للفخار b[٦٤] دليل على الزراعة ، ليس فقط لأن هذا النوع غير موجود في الحالة البرية ، بل لأن الحنطة البرية التي يأتي منها لاتنبت عند هذا الخط من خطوط العرض . نحن إذاً أمام إسهام جاء من الخارج ، حمله إلى سورية قادمون جدد[٦٥] . ينضم إليه شعير مزدوج وقمح نشوي ، هما أيضاً مزروعان .

في موقع البيضا ، حدد **هلْبك**[٦٦] قمحاً نشوياً وشعيراً مزروعاً ، مازال من الناحية المورفولوجية قريباً جداً من النموذج البري لكن حبّاته أكبر[٦٧] .

تلك هي المواقع الوحيدة التي حظيت بتحاليل نباتية . من المرجّح ترجيحاً عالياً أن موقعاً كتلّ المنحطة ، الذي لم يحظ بها ، كان هو أيضاً موقعاً زراعياً .

من جهة أخرى ، إن جميع قرى فلسطين تقريباً تشهد على علاقة مع العالم الحيواني مختلفة عن عصر النيوليتي السابق للفخار a: ثمة صعود عام في الماعزيات ، يُدرك في النسب المئوية للحيوانات المقتولة ، على حساب الغزلان والأيْليات التي كانت هي الغالبة حتى العصر المعني .

في **أريحا** تشتمل الماعزيات[٦٨] على «العنزة بيزوار» («كابراهيركوس اغاغروس») والخروف . العنزة يعتبرها كل من **زوينر**[٦٩] **وكلوتون** - بروك[٧٠] أهليه وذلك على أسس

(٦١) Van Zeist 1972 . كانوا يزرعون أيضاً القمح النشوي .

(٦٢) Smith 1974

(٦٣) Hole, Flannery et Neely 1969

(٦٤) Hopf 1969

(٦٥) انظر آنفاً ، الفصل الرابع ، الحاشية ٢ .

(٦٦) Hellbaek 1966

(٦٧) هلبك يسميه : «شعير بري مزروع» المرجع المذكور ، ص ٦٢

(٦٨) منذ ذلك الحين تغلبت الماعزيات على الغزال الذي يمضي من ٣٦,٩ ٪ من البقايا في النيوليتي السابق للفخار A الى ١٧,٩ ٪ فقط في النيوليتي السابق للفخار B (Clutton - Brock 1971)

(٦٩) Zeuner 1955 .

(٧٠) Clutton - Brock 1971 ، ص ٥٠ .

مورفولجية (قرون ملتوية) . أما تربية الخروف فهي ليست أكيدة لكنها غير مستبعدة[٧١] .

في **البيضا**[٧٢] ، **العنزة بيزوار والعنزة بيدن** («كابرا ايبيكس نوبيانا») نموذجان ممثلان بالتساوي . يجمعان معاً في العصر النيوليتي السابق للفخار B ٨٦,٥٪ من البقايا . لكن الغلبة كانت لهما من قبل ، استثنائياً ، في النطوفي (٧٦ ٧٠,٪)، بل وفي الباليوليتي العالي لموقع **مدماغ** المجاور . **بركنس** يعتبرهما داجنتين بموجب نسبة الصغار المرتفعة . لكن ، حسب هذا المعيار ، تكونان داجنتين منذ النطوفي حيث تبلغ نسبة الصغار ٧٥٪ . لقد رأينا بخصوص غزال وادي الفلاح إن هذا المعيار وحده لايُعتبر كافياً لأكثر من تأكيد وجود شكل أوّلي من «المنادمة» أو «الرقابة الحضارية» (هيكر) ، يسهّله «الكورّال»الطبيعي الذي يكوّنه محيط تحفّ به تضاريس متعرّجة وحادّة .

في قاعدة **المنحطة** (المستويان ٥ ـ ٦) ، يسّجل دوكو ٤٥,٥٪ من الماعزيات ، من نوعي ماعز «كابرا هيركوس» وغنم «أوفيس أوريينتاليس» ، مقابل ٣٤,١٪ فقط من الغزلان[٧٣] . إنّ توزعهنّ على طبقات الأعمار يظهر غلبة للزمر ١ ـ ٣ سنوات ، كما في المستويات الأحدث ذات الفخّار حيث يُعتبر ذلك شاهداً على «الاختيار الكامل» الذي يميز التأهيل الحقيقي . مع ذلك في المنحطة ٥ ـ ٦ ، يعتبر دوكو أن الروائز الاحصائية ليست ذات دلالة كافية والتربية غير مبرهنة تماماً وإن كانت مرجّحة .

في **الخيام** ، في المستويين ٢ ـ ١ حسب **إشغاري**[٧٤] ، يمكن تحديد تاريخهما بعصر النيوليتي السابق للفخار B[٧٥] ، تصل العنزة إلى ٨٥,٣٪ من البقايا . دوكو[٧٦] يعتبرها داجنة . الوفرة الاستثنائية (٢٠,٨٪) للمواليد الصغيرة من الماعز تبدو له ناتجة عن فاعلية طقسيّة «أضحوية» ، وهي غير ممكنة ، بدون أن تهدّد مستقبل القطيع ، إلاّ إذا اختير الذكور في سياق تربية ورعاية .

هكذا **فالماعزيات** في كل مكان ، لاتتميّز بأهميتها الكمية فقط ، بل بواقع أن العنزة ، وربّما الخروف في أريحا ، يعتبران أهليين من قِبل علماء الحيوان الآثاريين . المعايير

(٧١) Clutton - Brock et Uerpmann 1974 ، ص ٢٧٣ .

(٧٢) Perkins 1966 , Hecker 1975 .

(٧٣) Ducos 1969 ، ص ٢٦٧ .

(٧٤) Echegaray 1966 .

(٧٥) وليس بالنيوليتي السابق للفخار A ، كما كان قد دفع الى الاعتقاد استمرار الميكروليتات ، الدخيل المتسلّل على الأرجح .

(٧٦) Ducos 1968 ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

المستعملة مختلفة ، واريحا وحدها تشهد على حضور أعراق داجنة حقيقية . في سواها ، لاشك أن عملية التأهيل متفاوتة التقدّم حسب المواقع ، لكنْ لها يجب أن نعزو التغير العام في النسب بين الأنواع الممثلة[٧٧] . هذا التغير للعلاقة مع المملكة الحيوانية ، وهو متأخر عن الذي كُشف في تل مريبط ، يتميّز عنه إذاً لأنه يبدو موجّهاً بشكل مباشر نحو التربية . ولنذكّر بأن هذه الوثائق التي ندركها في إطار منشآت حضرية مستقرة إنما تُعلمنا عن الاقتصاد الجديد لهذه المستوطنات أكثر مما تُعلمنا عن الخطوات الأولى للتربية نفسها ، التي يمكن أن تكون ، في شكل بدوي رعوي ، أقدم .

أواخر الألف السابع ومشكلة الريّ

«النيوليتي ماقبل الفخار B الحديث» إنما يواصل ، على الصعيد الثقافي ، النيوليتي السابق للفخار B الذي هو أقدم منه . ومع ذلك لقد لوحظ انتقال عام للمستوطنات . يعتقد **بيرو**[٧٨] أنه ، في منطقة المناخ نصف ـ الجاف ، أمكن لتغيّر مناخيّ طفيف ، في أواخر الألف السابع ، أن يجعل مواقع كانت محتلة حتى ذلك الحين غير مضيافة . وبما أن هذه المواقع ، كما رأينا قبل قليل ، زراعية ، يمكن أن نضيف أن هذا التغير أمكنه أن يحول دون زراعة الحبوب حسب منظومة الزراعة البعلية ، التي كانت في أساس اقتصادها .

بالحقيقة ، إن القرى الجديدة في فلسطين (أبو غوش ، بيسمون) أو في منطقة دمشق (الرماد) تنجو من هذا الضرر ، فهي قائمة في مناطق أكثر رطوبة والمفروض أن باستطاعتها الاستمرار في الممارسات الغذائية نفسها . تنقصنا الشواهد للتحقق من ذلك . المتوفر هو معطيات علم الحيوان الآثاري عن **بيسمون**[٧٩] ، وهي تُظهر غلبة البقر (٣٥,٩٪) على الماعزيات (٢٩,٤٪) ، لكن بدون علائم عن تربية حيوان ، وهذا يضاعف ترجيح حضور زراعة الأرض ، إذا ماأخذنا في حسابنا الاتساع الكبير للمنشأة .

في الرماد ، لم تتوفر حتى الآن سوى معطيات نباتية ـ قديمة[٨٠] تبين منذ الأساس وجود زراعة قائمة فعلاً . بين الحبوب ، علاوة عن الأنواع الأليفة الملحوظة في العصر

(٧٧) حتى في وادي الفلاح ، حسب ليج (Noy, Legge et Higgs 1973 ، ص ٩٠) . حيث ان بقايا الماعز ، بدون ان تغلب بعد ، تصعد بقوّة من ٣,١٪ في النيوليتي السابق للفخار A الى ١٣,٩٪ في النيوليتي السابق للفخار B .

(٧٨) Perrot 1968

(٧٩) Ducos 1969 ، ص ٢٦٧

(٨٠) Van Zest et Bottema 1966 .

السابق (وهي «هورديوم ديستيشوم» ، «تريتيكوم» و«ديكوكوم») ، تظهر أنواع أخرى «هورديوم نودوم» ، «تريتيكوم إستيفوم» أو «دوروم» . ينضاف إليها عدس أهليّ («لنس كوليناريس») والآثار الأولى لزراعة الكتّان .

لايوجد أي معطى عن **تل علي** وهذه ثغرة مؤسفة لاسيما وأن السياق الجغرافي لهذه القرية ، الواقعة في المنطقة المهجورة ، يطرح علينا مشكلات .

بالمقابل ، إن الذين أسسوا **رأس شمرة**[٨١] هم من الزراع بالتأكيد ، وهذا الموقع هو الشهادة الأولى والمثيرة للاهتمام عن توسّع الاستقرار الحضري الزراعي خارج الحيّز الطبيعي للحبوب البرية .

في حوض الفرات الوسط ، رأينا أن هجر مواقع **كالمريبط** لايترجم عن ترك المنطقة نفسها ، إذ بالعكس ثمة ثلاث قرى معروفة بالنسبة لأواخر الألف الثامن ، تقع جميعاً جنوب خط الأمطار الحالي ٢٠٠مم : **أبو هريرة وبقرص** على **الفرات** نفسه ، والكوم في منطقة تدمر .

النتائج الأولى في أبو هريرة[٨٢] تبين أن الماعزيات (العنزة ـ الخروف) تهيمن بقوة (٧٠,٥٪ من البقايا) في الألف السابع بعكس النطوفي حيث كانت الغلبة للغزال . هذا يشهد حسب **ليج** ، على نشاط تربية . من الجدير بالملاحظة أن هذه التربية تظهر ، كما في **فلسطين** ، متمركزة بادئ ذي بدء على المجترات الصغيرة وليس على العاشبات الكبيرة التي كانت في مريبط الثالثة موضوعاً لصيد متخصّص كان يمكن التفكير بأنه يمهّد للتدجين .

سكّان أبو هريرة زرّاع أيضاً . كما في الرماد ، تنضم إلى الأنواع الداجنة في الحقبة السابقة («برّ القفقاس» ، القمح النشوي) أنواع جديدة كالشعير السداسي وكذلك الحمّص والعدس والفول وربّما الكرمة . عن بقرص لاتوجد معطيات نباتية ـ قديمة[٨٣] . الخروف والعنزة بيزوار ممثّلان بشكل جيد في ماجمع من بقايا الحيوان . بالنسبة للعنزة ، إن قرناً ملتوياً بعض الشيء جاء من المستوى الثاني يسمح لِـ **هويجر**[٨٤] بالتحدث عن تأهيل . على كل الأحوال ، إن اتّساع القرية ذاته لايفسح مجالاً لتصوّر أن القرية كانت

(٨١) Contenson 1977

(٨٢) Moore, Hillman et Legge 1975

(٨٣) إن غياب الأنصال ـ المناجل في استبار كونتنسون وفان لير (١٩٦٦) ، مع أنه مثير للفضول ، لا يستبعد حتماً زراعة الأرض .

(٨٤) Hooijer 1966

تجهل زراعة الأرض وتربية الحيوان . هذا ماستثبته التنقيبات الجارية لاريب .

يبدو هذا الموقع وموقع الكوم ، نظراً لجفاف المنطقة ، غير صالحين للزراعات البعلية . أولاً في أبو هريرة ، اتي هي الأكثر مطراً ، يلاحظ ليج[٨٥] أن بعض البقول الجافة كالفول وحتى الشعير السداسي كان من الصعب أن تزرع بدون سقاية . أما في الكوم فالقرية الحالية مدينة لحضور نبع غزير بعيشها على زراعاتها المروية[٨٦] .يجب إذاً أن نطرح على أنفسنا السؤال التالي ، الذي ليس من الممكن أن نعطي عنه سوى إجابة افتراضية : ألم يكن تأسيس قرى جديدة ونموّها المرموق (إذْ يبدو أن قفزة جديدة إلى الأمام قد تمّت آنذاك في السعة الديموغرافية لبعض هذه القرى) تابعاً لازماً عن ممارسات زراعية تتضمّن ريّ الحقول المزروعة ؟ هذه معضلات لاريب أن الدراسات النباتية على الحفريات القادمة في **بقرص والكوم** سوف تستطيع إيضاحها بشكل مباشر .

إذا ما اكتفينا بالوثائق التي أسفر لنا عنها التحليل المعماري ، فإنّ تخمينات جديدة يمكن أن تضاف إلى الضرورات الايكولوجية . بالفعل ، كما بالنسبة للألف الثامن ، سَنَميل ، قَبْلياً ، إلى «التسليم» بدرجة جديدة بُلغت في التنظيم الاجتماعي تسمح للسكان بالنماء محلياً . وعلى حين أن التجمّع المتراصّ للمساكن على طول «شوارع» (في أبو هريرة ، في الرماد) يبدو شاهداً على نموذج في إعصاب النسيج القروي ، فإن مؤشراً أدقّ كأقنية **بقرص** من شأنه ، إذا ماثُبِت ، أن يسدّد مباشرة إلى معضلات توزيع أهليّ للماء ، أي إلى واحد من وجوه هذا التنظيم الكومونيّ أو البلديّ الذي أراد **تشايلد** أن يرى فيه مقدّمات الحضارة «المدينية» .

إن محض وجود منظومة ريّ يكفي ، بدون تخطيّ الميدان الزراعي ، لتضمين المقول تنظيماً معقّداً قيل عنه بما فيه الكفاية إنه يقتضي ويفترض عمليات تحكيم متعدّدة بين الناس وتقدّماً جديداً في ممارسة السلطة autorite.

من هنا ، ومرّة أخرى : إنّ مايُدرَك هو تحوّل سوسيولوجي في أصل ومنشأ علاقة جديدة مع البيئة . إذْ لئن كانت الزراعة في الاقليم الجاف تقتضي الري ، فالري يقتضي بدروه القدرة الاجتماعية على تنظيمه وعلى إنشاء شروط تلاحم جماعة أكثر عدداً في الوقت نفسه . ستقول الأبحاث القادمة ما إذا كانت هذه الفرضية ذات أساس .

---

(٨٥) Moore, Hillman et Legge 1975 ، ص ٧٣ . **ليج** يتساءل عما اذا لم يكونوا حصروا هذه الزراعات في أماكن القعر الرطبة ، لكن لا بدّ من ملاحظة أن مؤشرات الري الاولى تظهر أيضاً في إيران في تلك الحقبة ، في موقع **شاغا صفيد** ، منذ مرحلة **علي كوش** (Hole 1977) .

(٨٦) حسب بضع ملاحظات على النبات القديم أجريت اثر استبار دورنمان . فان زايست (إبلاغ شخصي) يرجّح ريّ **الكوم** في **النيوليتي** .

الفصل السادس

التطور التكنولوجيّ

حين يعلم المرء الأهمية التي يعلقها علماء ماقبل التاريخ على الأدوات ، وبخاصة أدوات العصور الحجرية ، يمكن أن يَعجب لكوننا لانتناولها إلاّ الآن . كما يقول لوروا - غورهان ، «تتمثّل الزمرة البشرية بيئتها عبر ستار من أغراض (أدوات أو آلات) »[١] . ليست منتجات البيئة بالنسبة لها قابلة للاستعمال مباشرة بدون وساطة أدواتها التي تعوّض بـ «غلاف تقني» واعي الإنضاج عرياً بشرياً ما ، نقصاً في الأعضاء الطبيعية الفعالة (أنياب ، مخالب ، الخ) . فالأداة تكون الوسيط المشكور وتعبّر ، بشكلها ووظيفتها معاً ، عن طبيعة العمل ، وبتغيراتها عن تطوّر هذا العمل .

وبالتالي فأيّ دالّ يمكن أن نتصوّر عن «العلاقة الايكولوجية» بين الانسان والبيئة المحيطة من هذا السلّم من الأدوات الذي يسمح لأحدهما بأن يفعل على الآخر ؟ وكيف لاتترجم تغيرات أساسية في هذه العلاقة ، كظهور الزراعة مثلاً ، بانقلاب في الميدان التكنولوجي لايقل عنها شأناً ؟

عند الحدّ الأخير ، يمكن أن نسأل ما إذا لم يكن كل عمل جديد مشروطاً بصنع الأدوات المناسبة وبالتالي ما إذا لم يكن التطور التكنولوجي هو الأكثر كشفاً والأوّل للدراسة من بين جميع «المتغيرات» أو «المتحولات» التي واجهناها حتى الآن .

يمكن كحجة دفاعية أن نعتمد على نقص التوثيق في مضمار الأدوات بالنسبة

---

(١) Leroi - Gourhan 1945 ، ص ٣٥٣ .

للحقبة المدروسة[٢] . لكن الأمر الجوهري ليس هنا : لايوجد ، بالواقع ، تصاحب بين كل نموذج جديد للفعل العمليّ في البيئة وظهور الأداة أو الأدوات النوعية التي تتوافق معه . لقد لاحظ **بوزرب** من قبل[٣] أن الأقوام «البدائية» التي ، في أيامنا هذه ، تأتي إلى الزراعة ، تحتفظ مدّة طويلة بأدوات القنص ـ القطف . في ماقبل تاريخ الشرق الأدنى ، نعلم أن الأدوات ليست هي مايسمح بتقرير ما إذا كانت هناك زراعة أم لا . من بين الأدوات التي اعتُبرت في البداية «زراعية» ، إن المناجل والرَحَيات والمدقّات وسواها هي قبل ذلك جزء من معدات رجال القنص والقطف النطوفيين ولاشيء يكشف عند هذا المستوى ظهور استراتيجيات جديدة للألف الثامن . إذاً ، لئن كان الفعل في الطبيعةيقتضي فعلاً أدوات ، إلاّ أن تلاؤم أداة من الأدوات مع العمل النوعي المطلوب منها ليس مباشراً : انه هو نفسه يقتضي «اختراعات» ، وأحد أهداف هذا الفصل هو على وجه التحديد ملاحظة شروطها .

هذه الاختراعات موجودة . «الثورة النيوليتية» (تشايلد) تحمل كثرةً من تقنيات جديدة ، والتقنيتان الرئيسيتان في هذا المجموع هما صقل الحجر وصنع الفخار . كلاهما يظهران في الشرق الأدنى خلال الشريحة الزمنية التي ننظر فيها . لكنّنا بيّنا في مكان آخر[٤] أنه عدا عن هذين الاختراعين المدهشين اللذين يذكرهما الجميع ، كان تصوّر جديد للأداة يميّز هذه الثورة بوجه أعمّ : في تصنيف النماذج الباليوليتية[٥] ، الأسماء المستخدمة تؤشر على حركات بسيطة (مكاشط أو محكات ، مخارز أو مثاقب ، مجارف . . .) أو على تقنية القَطْع التي تحصل على الأداة (مزدوجات الوجه) ، أو هي تستحضر بشكل مثير شكلها (حلزونات) أو أيضاً مكان اكتشافها الأول (رؤوس شاتلبيرون ، الخ . .) . وإذا كنّا لانرى إلاّ في أسماء التصنيف النيوليتية مصطلحات (مفردات ـ حدود termes) ذات تضمّن وظيفي أصرح بكثير (رؤوس سهام ، بلطات أو

---

(٢) وحدها الأدوات النطوفية حظيت بدراسات معمّقة . إن عصر النيوليتي السابق للفخار A لم يتسبب حتى الآن في أية مونوغرافية كاملة للعتاد الأدواتي ، وإن كنّا ننتظر النشر القريب للعتاد الذي وُجد في المريبط سنة ١٩٦٥ (Couvin M. - C. þ ، يصدر لاحقاً) ولعتاد أريحا الذي درسه Crwfoot - Payne . إن أعتدة الألف السابع لم تدرس الاّ في البيضا (Mortensen 1970) ، نحال دفشون (Servello 1976) ، وجزئياً في بعض مواقع سورية (cauvin M. - C. 1972, 1973) .

(٣) Boserup 1970

(٤) Cauvin J . 1968

(٥) انظر Brezillon 1968

فؤوس ، قاقمات ، مقصّ ـ إزميل ، الخ . . .) فلأننا نتعرف هنا على عديد من الأدوات ذات الأشكال المألوفة لنا ، لأنها «متخصصة» ودامت حتى أيامنا : فهي تمثّل إذن تلاؤماً جديداً ونهائياً[٦] للأداة مع وظائف واضحة ومحدّدة جداً . فما يولد آنذاك إنما هو تكنولوجية ستدوم ، بمواد صنع أخرى في الغالب ، حتى العصر الصناعي .

لقد قلنا هذا ، لنضفْ أنه توجد حول الشكل الأساسي لأداة من الأدوات ، الذي يبقى ويدوم لأنه ملائم ، جميعُ الزخارف الأسلوبية التي ترسمها التقاليد الثقافية : والمقصود هنا يمكن أن يكون أساليب صنع خاصة (تقطيع وإتمام ، اختيار مادّة الصنع) أو تنويعات مورفولوجية تفصيلية تميّز الثقافات[٧] .

لذا فالعتاد الأدواتي ، الذي يؤلف مع الزينة وحتى ظهور الخزف ، الشيء الجوهري في الأثاث المكتشف في حفريات التنقيب ، هام بالنسبة لنا في حيثيتين :

ـ من جهة ، يتظاهر فيه تحسين متّصل ، تقطعه اختراعات متتالية . إذا كان ثمة ميدان يحتفظ فيه مفهوم «التقدم» بمعنى فهو ميدان التطور التكنولوجي[٨] . لكن كيف تُدْمِج زمرةٌ بشرية تقنيةً جديدة ؟ أحد أمرين : تستعيرها عن ثقافة أخرى أو تخترعها . غير أن إبتكاراً خاصاً ، لحظناه من قبل ، لبلاد الشام يحدّ كثيراً ظاهرات الاستعارة (ليس ثمة مايستعار خارجها إلاّ القليل) ويضاعف على العكس الاختراعات الأصيلة . كما بالنسبة لإنتاج القوت ، إن القناعة بأننا أمام «إبداعات أصيلة» ستعطي كل فائدتها في فحص يقظ لقرينتها ودلالاتها العامة في التعليلات المقترحة .

ـ من جهة أخرى ، نجد داخل المنطقة المدروسة ، أنَّ الاستعارات موجودة من ثقافة إلى أخرى (أو من إقليم إلى آخر) . إن اختراعاً ينتقل ، بسرعة متفاوتة ، وبقدر مايحتفظ كل غرض منقول في خصائصه ببعض آثار وسطه الأصلي التي طبعته بها الثقافة[٩] ، يبقى من الممكن استخدامه ، ليس بدون حيطة واحتراس ، كأداة لتحديد التواريخ وكدالّ محدّد لتيارات ثقافية .

---

(٦) كانت توجد تلاؤمات من هذا النموذج منذ الباليوليتي الأعلى ، لكن فقط بالنسبة لصناعات العظم (الخطّاف أو الكُلاب ، الإبرة المثقوبة) .

(٧) Sackett 1973 ، ص ٣٢١

(٨) Leroi - Crourhan 1945 ، ص ٣٢٢

(٩) المرجع نفسه ، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ .

تاريخ الأعتدة

سنختصر الآن التطور التكنولوجي لبلاد الشام حسب أحدث النتائج المحرزة . هذا العرض الاصطفائي عمداً سيهمل «الرسفال» المؤلف من أدوات غير متميّزة نسبياً والموروث من العصر الباليوليتي (مكاشط ، منقاشات ، مخارز الخ) وأدوات السحق الثقيلة (رحيات ، هواون ، مدقّات ، الخ) التي ليست دراستها «النماذجية» في الشرق الأدنى على مايكفي من التقدّم . كذلك لن نتناول الزاوية الكميّة (نسبة النماذج في الأعتدة) التي لم يفصح عنها حتى الآن إلاّ في مونوغرافيات قليلة جداً ، الأمر الذي لايفسح مجالاً لمقارنات مفيدة .

من الهامّ أولاً التأكيد على **الوحدة** العميقة لـ **بلاد الشام** حين نشرع في دراسة صناعاتها[10] . إن هذه المنطقة ، التي تضم بلدان سورية ولبنان وفلسطين والأردن الحالية وقد تمتد بعض الشيء إلى الشمال نحو تركيا الجنوبية التي مازالت غير معروفة بشكل جيّد ، تتراءى ، في صعيد الأعتدة ، مجموعاً رحباً متلاحماً[11] يتضادُّ بشكل قوي مع مناطق **العراق وإيران** ، وهي مناطق أكثر شرقية . إن هذا التضاد يتصل بتنوع نسقها التكنولوجي المغنى على الدوام بأدوات جديدة[12] ، وبالتعاطفات الأسلوبية التي تجعل الأعتدة قابلة لنمذجة متدارجة ومتكاملة جداً[13] .

العصر النطوفي (١٠٠٠٠ ــ ٨٣٠٠)

هذه الوحدة تظهر من بداية المسار ، أي منذ الألف التاسع تلك هي الحضارة النطوفية ، التي رأينا[14] انها امتدت من النيل إلى الفرات مع تأثيرات ممكنة في الشمال حتى ساحل كيليكيا[15] . الفروق «اللسانية» التي تميّز نطوفيّ الفرات عن نطوفيّ فلسطين

(١٠) Hours et ... ، يصدر لاحقاً .

(١١) انتشار السبج الأناضولي يشهد على تيار مبادلات مبكرة بين هذه البلدان جميعاً (Renfrew, Dixon et Cann 1966)

(١٢) بمعارضة أدوات العراق أو ايران ، وهي أكثر رتابة وأساسها ميكروليتات مستمرة لمدة أطول وأنصال وأدوات من التقليد الباليوليتي .

(١٣) Cauvin M. - C. 1974 c ، ص ٣٢١

(١٤) انظر آنفاً ، الفصل الثالث .

(١٥) مثلاً الصناعات ذوات القِطع في **بلديبي** أو **بلْباشي** .

لاتمنع قط وجود قاع مشترك ، عماري واقتصادي وتقني معاً ، ضامن لـ **جامعة** Koine ثقافية . من المعلوم أننا هنا أمام صناعة ميكروليتية وهندسية بالأساس ، أي أنها بذلك لاتفسح مجالاً للتحليل الوظيفي : بالفعل ، إن قِطع الدوائر التي تميّزها ليست هي بذاتها أدوات بل هي عناصر من أدوات تأليفية متعدّدة العناصر ، أي هي تسليحات حجرية تسلّح بصورة جماعية «مقابض» صنعت من مواد أخرى (خشب أو عظم) نادراً ماوصلت إلينا[16] . العنصر الحجري ، وقد صُمّم ، كما هي الحال في شتى الحضارات «الميزوليتية» (العصر «الحجري الوسيط») ، حسب موديل هندسي ، لايتضمّن أية إشارة إلى استعماله . أما الأداةُ كاملةً فلعلها كانت تكشف عن تلاؤم ذي دلالة ومعنى لكننا نجهله . في هذا المستوى ، يمكن أن تفلت منا اختراعات أصيلة ، لأن توثيقنا توثيق لبواقٍ وحسب . .

إلاّ أن نطوفي الفرات في مرحلته الأخيرة (أي في مريبط الأولى a) يقدّم سمتين غائبتين عن السحنة الفلسطينية لهذه الحضارة ولهما أهمية تكنولوجية كبيرة . الأولى هي ظهور «قاقمة مريبط» المصنوعة من الصوان المقطوع (الرسم ١٦، رقم ١) ، أي قطعة حجرية هي ، وإن كانت متضامنة مع مقبض اندثر ، تكشف في مورفولوجيتها نفسها عن مايكفي من خصائص التلاؤم المثبتة بآثار الاستعمال ، لكي يكون بإمكاننا أن نعين لها طريقة عمل محدودة وغير ملتبسة . هذه الأداة لم يعثر عليها حتى الآن إلاّ في الفرات الأوسط[17] .

السمة الثانية هي ظهور **الحجر المصقول** ، ليس بعد على أدوات شغل ، بل على أغراض زينة (أنواط قُضيبية الشكل : انظر الرسم ١٨، رقم ١) .

٨٣٠٠ ــ ٧٦٠٠

في الحقبة التالية (٨٣٠٠ - ٧٦٠٠) ، تبدو الأدوات ، حين تُعرف بشكل جيد ، مشتقة مباشرة من النطوفي ، **فهي في البداية** تحتفظ بميكروليتاته الهندسية[18] قبل التخلي عنها تماماً[19] . لكن منذ حوالي ٨٣٠٠ ق .م ، تظهر أداة جديدة في كل **بلاد الشام** ،

(١٦) أذرع المناجل العظيمة في نطوفي كباره (Turville - Petre 1932) تشهد على وجود هذه الأدوات التأليفية لكنها ليست مسلّحة بميكروليتات (شظايا حجرية) .

(١٧) في المريبط والشيخ حسن .

(١٨) إنه «النطوفي المضاف» أو «ملحق نطوفي» (M. - C. Cauvin 1974 c) مريبط الاولى B ، ابو سالم ، الخيام ٤ ، الخ ...

(١٩) في أواخر الألف الثامن على الفرات (مريبط الثانية) وعلى الأردن (أريحا تمهيد النيوليتي ، جلجال...)

وهي **رأس السهم** ، أي رأس صوّاني بات يحمل منذئذ ، مكتوبةً في طريقة تدبّرِهِ (المقاييس ، التناظر ، جهاز التثبيت على العصا) ، العلامات المورفولوجية الظاهرة لصفته كقذيفة . من أجل الإقباض يبدو أنهم اعتمدوا حليّن اثنين معاً ، أحياناً منفصلين وأحياناً متضافرين على القطعة الواحدة ، هما السويقة والفُرَيْضات الجانبية المتقابلة .

، يظهر السهم ذو الفُرَيْضات والقاعدة المجذوعة ، بلا سويقة ، والمسمى «رأس الخيام» (الرسم ،١٧ رقم ١) ، يظهر منذ مريبط الأولى B وأيضاً في فلسطين[٢٠] . ونعثر عليه حتى دلتا النيل في حلوان . ثمة رؤوس صغيرة ذات سويقة وبدون فُريضات ، حاضرة منذ مريبط الأولى B. ويشكّل نموذج خاص يدعى «رأس حريف» الشيء الجوهري في تسليم «ملحق نطوفي» النقب ، موقع أبو سالم[٢١] . أخيراً ، إن السهم ذي السويقة والمجهّز بزوج أو عدّة أزواج من الفريضات (رقم ٢ ـ ٣) ، الحاضر هو أيضاً لكنه نادر منذ مريبط الأولى B، هو نموذج السهم ذو الفريضات الأكثر استعمالاً في مستويات الانتقال بين المرحلتين الثانية والثالثة لهذا الموقع[٢٢] . وهو الغالب أيضاً في تل أسود دمشق المرحلة الأولى[٢٣] وربّما في **الخيام**[٢٤] .

أما في المريبط الثالثة فقد بدأت تغلب سهام أطول بلا فريضات (رقم ٤) ، يؤخذ معظمها من النوى الطويلة ذات المستويين المسماة «زورقيّة الشكل»[٢٥] . هذه الرؤوس ذات سويقة بسيطة ورتوشات مسطّحة ، وهي بذلك تنبئ بالنموذج اللاحق المسّمى «رأس بيبلوس»[٢٦] . هذا الأخير ، الذي سينتشر فوق كل بلاد الشام ، يكون إذاً قد وُلد على الفرات في الوقت نفسه مع التقطيع على نوى زورقية الشكل والذي اكتُشِف هو أيضاً في كل مكان تقريباً ، لكن في وقت لاحق .

---

(٢٠) في الخيام ٤ ، حسب Echegaray 1966 ، ص ٥٠ ، في جلجال (Noy 1976) وفي محطات شتى على الساحل الفلسطيني (Burian et Friedman 1965 ، ص ١١ ؛ Bar Yosef 1970 ، الرسم ٤٤) .

(٢١) Marks 1973 . هذا النموذج يبدو حاضراً كذلك لكنه نادر جداً في مريبط الأولى B والخيام ؛ (M. - C. Cauvin 1974 (c ، ص ٣١٦ ، الحاشية ٢٣ .

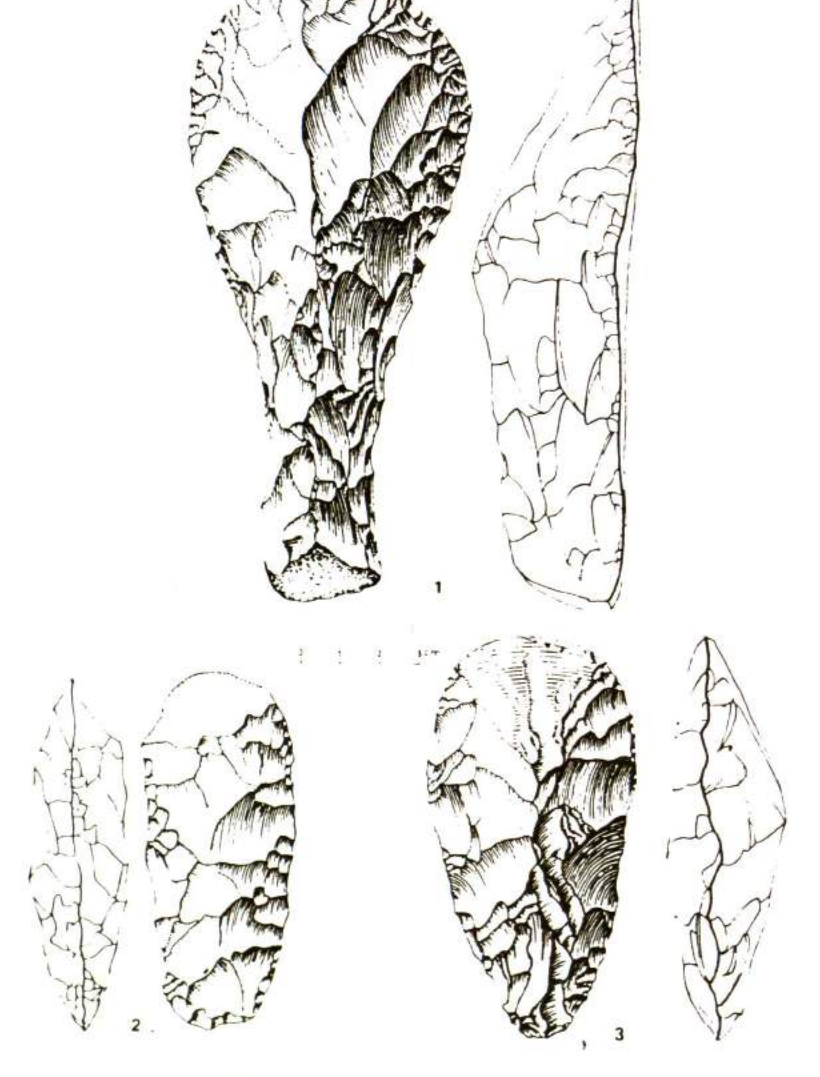
(٢٢) في المستويات ٩ ـ ١١ عند فان لون : انظر M.C. Cauvin (المرجع المذكور ، ص ٣١٦) التي ستدعوه «رأس حلوان» (يصدر لاحقاً ، b) .

(٢٣) M. - C. Cauvin 1974 C ، ص ٣١٥

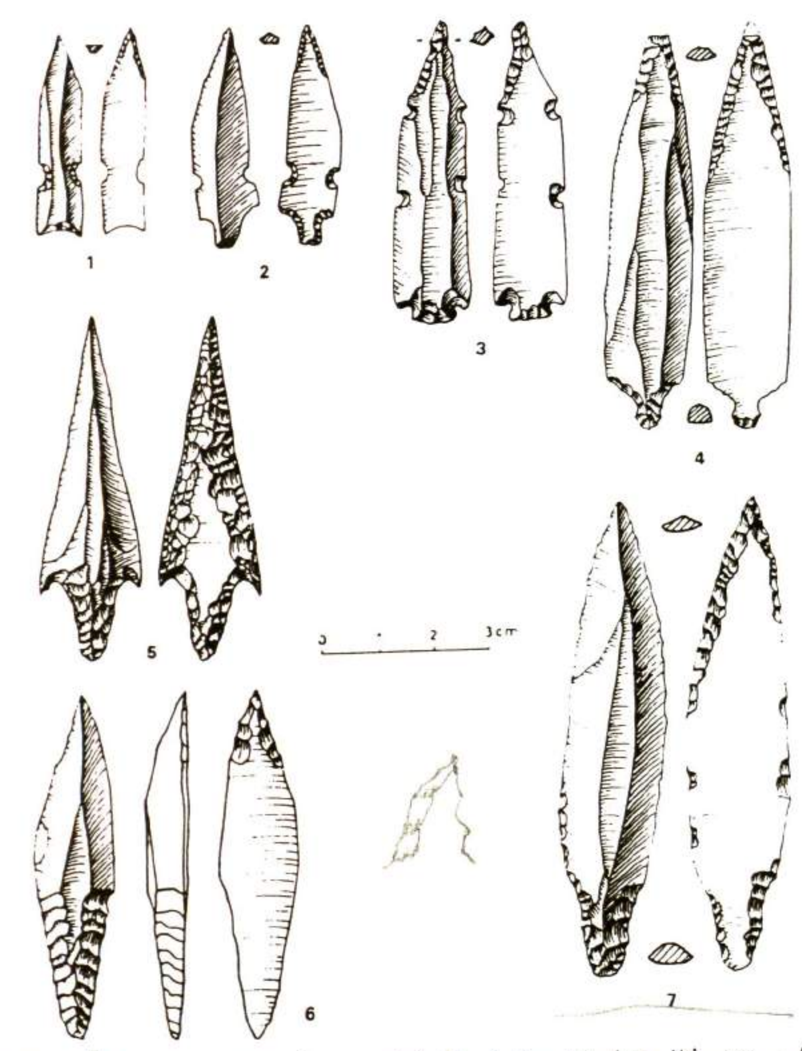
(٢٤) Perrot 1951 . أريحا تبدو على حدة ، بندرة ورداءة سهامها ذات الفريضات .

(٢٥)تعريف النموذج : Cauvin J. 1966 ، ص ٢٢٦ . بالنسبة لسهام مريبط الرابعة B ، انظر Cauvin Z. 1974 b .

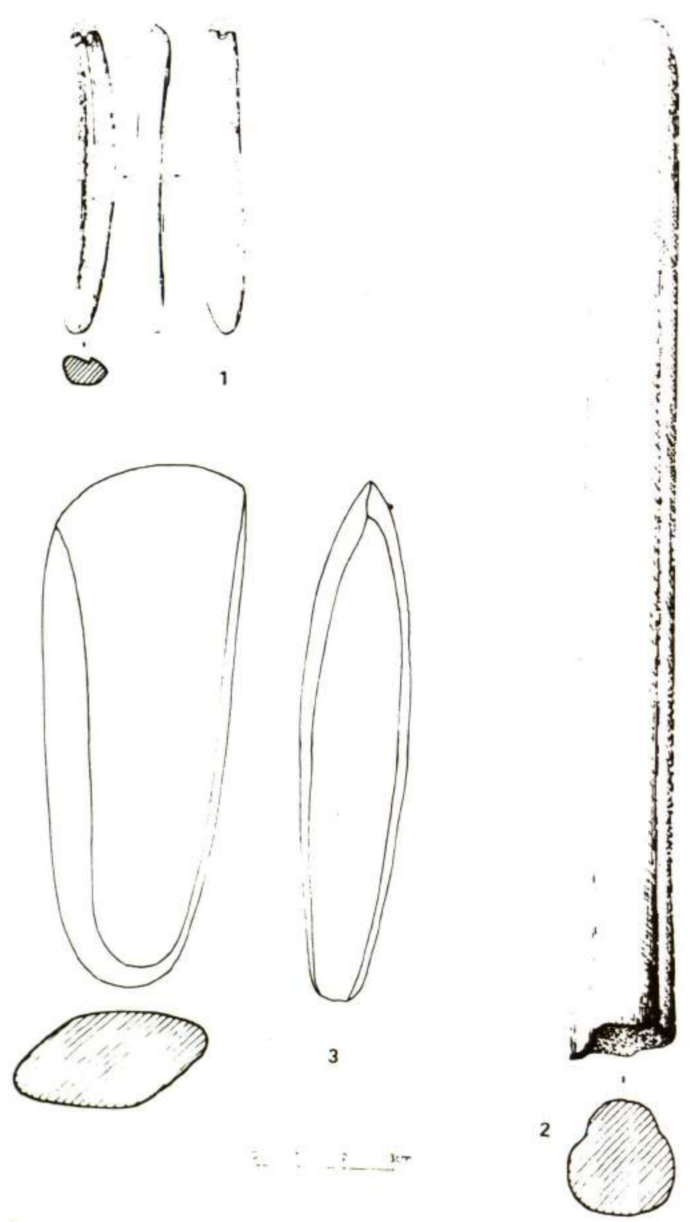
(٢٦) انظر Cauvin J. 1968 ، ص ٥٥ .



الرسم ١٦ : أدوات عصي (رمحية) من الصوان المشذب في بلاد الشام: ١ ـ ارمينيت من مريبط١ ؛ ٢ ـ مِقْدة من البيضا ***PPNB*** *(حسب مورتنسن)*
٣ ـ بلطة بشفرة مصقولة من الراماد (حسب م. شاكوفان)



الرسم ١٧ ـ نماذج تسليحات سهام في بلاد الشام : ١ ـ رأس الخيام (في مريبط الأولى B) ٢ ـ رأس حلوان (مريبط الثانية) ؛ ٣ـ رأس ذو فريضات وجُنيحات (أسود دمشق الأولى a) ؛ ٤ ـ رأس ذو سويقة (مريبط الثالثة) ؛ ٥ ـ رأس أريحا (في المنحطة النيوليتي السابق للفخار B) ؛ ٦ ـ رأس العمق (في البيضا الثانية) ؛ ٧ ـ رأس بيبلوس ـ جبيل (أسود دمشق الثانية) . ـ ١، ٤، ٧ نقلاً عن M. C. Cauvin؛ ٥، نقلاً عن Perrot؛ ٦، نقلاً عن Mortensen



الرسم ١٨ حاجيات من الحجر المصقول في مريبط : ١ ـ قرُط نطوفي من الطور الأول A ؛ ٢ ـ عصا مصقول من الطور الثالث A ؛ بلطة مصقولة من الطول الرابع . B

كل هذه الأعتدة تصحبها أنصال مناجل يدلّل جلوُها على استعمالها المتخصص . إلاّ أن الشكلُ الصحيح للأداة المركبة أيضاً هو ماكانت تشكله عناصرَها[٢٧] .

«قاقمة مريبط» تستمر في مريبط الثالثة وفي الشيخ حسن ، بينما تظهر أداة مزدوجة الوجه مختلفة جداً ، وإن كانت على الأرجح مخصّصة هي أيضاً للفصل بالطرْق المقذوف ، في أريحا النيوليتي التمهيدي والنيوليتي ماقبل الفخار A وفي محطات أخرى من منطقة القدس[٢٨] : إنه **«الفاصل»** ، الذي يقال له ايضاً «فأس صغير طاحونيّ» أو «ازميل» حسب عرضه ، وهو ذو حدّ أمامي فاعل حصلوا عليه عن طريق «شطفات» عرضانية (الرسم ١٦، رقم ٢) .

ليس صقل الحجر موجوداً بعد إلا على الفرات الأوسط ، حيث يخدم الان في تفصيل قضبان مرموقة من الحجر القاسي ، في مريبط الثالثة والشيخ حسن (الرسم ١٨، رقم ٢) . فقط في أواخر المرحلة الثالثة ، في هذين الموقعين ، تظهر أوائل القامقات المصقولة ، التي تتعايش مع أواخر القامقات المنحوتة . أخيراً ، في المناجم نفسها ، تظهر الأغراض الأولى من الغضار المطبوخ (الطين المشوي) : أوانٍ صغيرة (الرسم ١٩) وتماثيل نسائية صغيرة في مريبط الثالثة ، وأغراض أخرى صغيرة متنوعة في مريبط وشيخ حسن[٢٩] .

٧٦٠٠ — ٦٦٠٠

لايظهر في صناعات هذه الحقبة أي شيء إلاّ وكانت له على الأقل بدايات أولية في الحقبة السابقة . بالمقابل ، تلاحظ ظاهرات مثيرة للاهتمام في ميدان الانتشار الثقافي . التقطيع الصفيحي للصوان على نوى زروقية الشكل يصل إلى فلسطين الداخلية[٣٠] . بين الأسهم ، يصل «رأس بيبلوس» (الرسم ١٧، رقم ٧) ، الذي كان قد بلغ منذ ٧٤٠٠ ق.م في مريبط الرابعة B) كمال نموذجه[٣١] ، يصل إلى غوطة دمشق[٣٢] وإلى فلسطين[٣٣] .

(٢٧) M. - C. Cauvin (b) ، يصدر لاحقاً ، إقباضها «سنبليّ» .
(٢٨) محطات ذات «فؤوس صغيرة طاحونية» (فواصل) نموذج طنطور : Mallan 1925
(٢٩) أقراص ، أسطوانات ذات سويقة محورية ، الخ ... Cauvin J . 1974 (a) .
(٣٠) انه يميز النيوليتي السابق للفخار B حسب Crawfoot - Payne 1976 . وصوله الى أريحا يمثل بين المؤشرات على نفوذ سوريّ : انظر آنفاً ، بداية الفصل الرابع .
(٣١) Cauvin J. (a) ، يصدر لاحقاً ، الرسم ١٣ ، رقم ٣ .
(٣٢) في أسود الأولى B والثانية : Cauvin M. - C. 1974 (a) ، الرسم ٢ ـ ٣ .
(٣٣) في أريحا النيوليتي السابق للفخار B ، البيضا ، المنحطة ، نحال دفشون .

إلاّ أن نماذج أصلية تبدو تُفرّد أساليب أكثر تموقعاً وتبقى مسألة تحديد حيّز توزعها بشكل دقيق : «رأس أريحا» ، الذي لايتميّز عن «رأس بيبلوس» إلا بجنيّحات منثنية إلى الوراء ومشحوذة (الرسم ١٧، رقم ٥) ، يبدو محصوراً في فلسطين[٣٤] ولايكاد يبلغ غوطة دمشق[٣٥] . «رأس العمق» المثلثي المقطع (رقم ٦) حاضر في هاتين المنطقتين[٣٦] . بالمقابل ، لم يُذكر أي من هذين النموذجين على الفرات حتى الآن .

انه أيضاً العصر الذي تتلقى فيه أريحا أدواتها المصقولة الأولى : بضع فؤوس صغيرة من الحجر القاسي مستوردة على الأرجح[٣٧] ، في حين أن «الفواصل» المنحوتة ، التابعة للعصر السابق ، مازالت تُستعمل هنا بشكل رئيسي ، بعد تعديل طفيف . نجدها في البيضا ، مع بضع فؤوس من الصوان المنحوت لكنها لم تُصقل[٣٨] . الأمر بالعكس على الفرات ، فالفؤوس (الرسم ١٨، رقم ٣) والقاقمات المصقولة من حجر السربنتين[٣٩] شائعة الصنع في مريبط الرابعة انطلاقاً من حصى النهر ، ولم يعد هناك أدوات ثقيلة من الحجر المنحوت .

لم يسفر أي منجم ، حتى على الفرات ، عن فخار . ولا يستديم اختراع الطين المشوي وعلى نحو متقطّع إلا في شكل تماثيل صغيرة (تل أسود دمشق المرحلة الثانية) . بحيث أن الاختراع الوحيد لعصر النيوليتي السابق للفخار B، والمحفوظ بعد لفلسطين ، يبدو هو اختراع الكلس وهو لايُستخدم إلاّ في البناء ، من أجل طلاء الأرض والجدران .

٦٦٠٠ — ٦٠٠٠

تقليدياً ، كانت أعتدة أواخر الألف السابع تُدمج مع أعتدة العصر السابق تحت اسم

(٣٤) إنه النموذج الأكثر شيوعاً في أريحا .
(٣٥) في أسود الثانية : Cauvin M. - C. 1974 (a) ، الرسم ٣ ، رقم ٦ .
(٣٦) أسود الثانية (المرجع نفسه ، الرسم ٣ ، رقم ١ ـ ٣ ؛ المنحطة : Perrot 1968 ، الرسم ٨٤٢ ، رقم ١٣ ، ١٥ .
(٣٧) في منطقة دمشق ، الفؤوس المصقولة الأولى تظهر في آسود الأولى B بين ٧٦٠٠ و ٧٣٠٠ ق م : Cauvin M. - C. 1974 (a) .
(٣٨) الحد القاطع ، المستدير ، يحصل عليه بواسطة رتوشات متراكزة لا «بضربة قاطع» : Mortensen 1970 ، الرسم ٥٠ ، ب . توجد بضعة فؤوس مصقولة من البازالت (Kirkbride 1960) .
(٣٩) هذه الأدوات المصقولة لها تارة حافة القدوم (القاقمة) المشطوفة وطوراً حد البلطة (الفأس) التناظري، الذي هو أقل دلالة فيما يخص الاستعمال الحقيقي للقطعة ـ الأداة .

هو PPNB (النيوليتي السابق للفخار B) . لكنها بدأت مؤخراً تكشف تفرّداتها الخاصة . علماً بأن هذه التفردات تعود لخصوصيات في الأسلوب (الطراز) أكثر مما تعود لتعديلات تكنولوجية عميقة .

للفرات (أبو هريرة ، بقرص ، تل الأسود) وللبلاد التدمرية (تل الكوم) صناعة مشتقة مباشرةً من صناعة مريبط الرابعة : السهام ، رؤوس بيبلوس أو رؤوس بيضوية ، كثيرة ومنمّطة . أما السهام ذات الفريضات ، التي مازالت حاضرة بشكل متباعد في مريبط الرابعة ، فقد اختفت تماماً . بالمقابل ، توجد حفنة من رؤوس العمق[40] يمكن أن تشهد على تأثير غربيّ ، والأنصال ـ المناجل تُظهر الآن علائم جلية على إدخالها في مقابض منحنية ، كالمناجل الحالية[41] . مازالوا يستعملون الفأس والقدوم (القاقمة) المصقولين المصنوعين من الحجر القاسي .

أما محطات النيوليتي السابق للفخار B الأخير في فلسطين ومنطقة دمشق فتشهد على تطور مختلف بعض الشيء : بالنسبة للتسليح ، فوق قاع يضم رؤوس جبيل والعمق وأريحا أو رؤوساً بيضوية لاتختلف عن رؤوس النيوليتي السابق للفخار الأكثر قِدماً[42] ، نشهد أحياناً ، لكن بشكل خاص في تل الرماد[43] ، بعض الانبعاث للسهام ذات الفريضات ، المعاودة برتوش صفيحيّ متفاوت الاتساع يميزها عن سهام أسود الأولى . الأنصال ـ المناجل تتنوع : بعض العناصر المجذوعة مرتين تحمل الآن نفس الرتوش الصفيحي الذي تحمله السهام[44] ، وتظهر عناصر ذات أسنان كبيرة[45] سوف تستمر وحدها في الألف السادس . بالنسبة للعتاد الثقيل ، نرى تطبيق تقنية الصقل على العديد من فؤوس (الرسم ١٦ ، رقم٣) وأزاميل الصوان المقطوع ، مع صقل الحدّ في أغلب الأحيان[46] ؛ أما الأداة التي هي الفاصل فهي نادرة ولم تعد إلاّ بقية استمرت .

(٤٠) في نهاية استيطان ابو هريرة (المرحلة الثالثة) : Moore, Hillman et Legge 1975 ، الرسم ٦ ، رقم ٩ ـ ١٠ .

(٤١) في تل الأسود ، تشهد آثار الزفت او القار (؟) على ترتيبها في شكل «سنبلة» على ذراع محني : Cauvin M. - C. 1973 .

(٤٢) وإلاّ ، ربّما ، باستخدام أكثف للرتوش المسطّح النُصَيْلي الواسع في كثير من الأحيان .

(٤٣) Cauvin M. - C. 1974 C ، ص ٣٢١ . انظر أيضاً ابو غوش : Dollfus et Lechevallier 1969 ، الرسم ٢ ، رقم ١ ـ ٣ .

(٤٤) Cauvin M. - C. 1973 ، الرسم ١ : رقم ٧ ، ٨ ، ١٢ .

(٤٥) في رماد ، تل علي ، ابو غوش .

(٤٦) نفس المواقع .

التقدم الأساسيّ ، في المنطقتين ، يتراءى بشكل خاص في ميدان تطبيق (فنون النار» الكلس ليس فقط يصل إلى الفرات حيث يفرش الأرض والجدران[47] بل يخدم في إعداد بعض الوعاءات[48] . من جهة أخرى ، أصبحوا قريبين جداً من تعمّم السيراميك (الخزف) : في تل الأسود (الفرات) توجد حوالي سنة ٦٤٠٠ ق .م آنية مائدة حقيقية ، صافية ومجلوّه ، تذكّر أشكالها بأشكال الألف السادس السورية ـ الكيليكية ، في صيغة أبسط[49] . في أماكن أخرى ، كثيراً ماتعلن تقارير الحفريات إما عن الحضور الفعلي لبعض الفخار[50] وإما عن ظهوره الوشيك في المستويات الأعلى مباشرةً ، حوالي سنة ٦٠٠٠ق .م ، في المناجم التي تناولها التنقيب .

أخيراً ، إن حضور نَوْط من النحاس الطبيعي في رماد الأولى[51] يشهد على اهتمام جديد تماماً بهذه المادّة ، التي جاءت على الأرجح من الأناضول مع السبج ، لكنه لايدّل بطبيعة الحال على بداية تعدين إذْ أن الموضوع لم يعامَل حتى بالطرْق[52] .

شروط التقدّم التكنولوجي وطبيعته

بين التغيرات التي يكشفها علم الآثار في تاريخ «شعب» أو منطقة ، اقترح **هول وفلانري** مؤخراً[53] تمييز التغيّرات التلاؤمية من التغيرات غير التلاؤمية . تنتمي لهذه الأخيرة ، حسب رأيهما ، التغيرات الأسلوبية أو الطرازية التي ليس لها انعكاس اقتصادي ، مثلاً في الديكورات الخزفية . بالمقابل ، إن تغيرات الأدوات هي جزء من التحولات التلاؤمية ، ويعترض هول وفلانري بحق على ميل شائع ومتواتر إلى تأويل يعتبرها نتائج غزوات ، كوارث ، أو تمازج أقوام . إنهما يفضّلان قبْلياً ، أن يريا فيها انعكاساً لتغيرات

(٤٧) انظر آنفاً ، الفصل الرابع (الأسود والكوم) .

(٤٨) انها «الآنية البيضاء» في رماد الثانية ، **لابوة** ، **بيسمون** ، **الكوم** ، **بُقْرص** الثانية ، الخ ،

(٤٩) Cauvin J . 1972 b ; 1974 a .

(٥٠) تلك قد تكون الحال في ابو هريرة الثالثة ، التي لم تؤرخ حتى الآن ، وفي رماد الثانية .

(٥١) France Lanord et Contenson 1973

(٥٢) المشرق هنا متأخر بعض الشيء عن زاغروس حيث عُثر على لؤلؤة من النحاس المطروق في الألف السابع بموقع علي كوش مرحلة علي كوش (Hole, Flannery et Neely 1969) .

(٥٣) المرجع الأنف ، ص ٧ .

اقتصادية ، بدون أن نتبيّن جيداً مع ذلك ، في الأمثلة التي يقترحانها ، اللعب الحقيقي لكل من الأسباب والنتائج[٥٤] .

والحال ، لقد أمكن تتبع تاريخ تل مريبط ، طبقة طبقة ، على مسار ١٥٠٠ سنة ، حيث انكشفت تحوّلات من كل نوع ، وحاولنا[٥٥] بمجابهة تواريخها ، توضيح طبيعة ترابطاتها على نحو أفضل . إن «الوسط» الذي حصلت فيه بعض الاختراعات الهامّة ، التي لا تشجّع صفتها المبكّرة على تأويلها بالاستعارة من ثقافات أخرى ، يمكن أن يراقب بعناية بغية التعرف على مايمكن أن تعنيه كلمة «تلاؤم» أو «تكيّف» .

أمكننا تمييز اختراعات تلاؤمية بالتأكيد ، حين تستجيب ، بأدوات جديدة ، لحاجات إنسانية (الغذاء ، السكن . . .) وتسهّل إشباعها . لكنها لاتبدو تتوافق مع أي تغيير في اقتصاد الزمرة : هكذا حال القاقمة ورأس السهم و ، فيما بعد ، الفأس المصقول . وإن اختراعات أخرى ، أكثر أساسية أيضاً ، هي صقل الحجر أو صنع الفخار ، لاتسهم حين ظهورها ، في أيّ تلاؤم من النموذج المذكور .

قاقمة مريبط ورأس السهم

إن ظهور البُليطة (القاقمة) يجب أن يُربط بطبيعة الحال بحاجات قرى الفرات إلى الأخشاب ، من أجل أعمالهم المعمارية بشكل خاص[٥٦] . لكن الأعمال المعمارية نفسها ، مع الحاجات نفسها ، كانت موجودة في أبو هريرة في مرحلة من النطوفي أسبق قليلاً على الأرجح من مريبط الأولى A ، بدون أن تمثل فيها هذه القاقمة أو البُليطة . إذاً كانوا هنا يقطعون الأوتاد (الأعمدة) بواسطة أدوات أخرى . بل ليس مستبعداً أن يكون الطرق المقذوف معروفاً لديهم ، فبلطة المريبط لاتشهد على شيء آخر سوى اختراع «نصل» حجري متخصّص ، مكيّف مورفولوجياً لاستعمال وحيد لا لبس فيه[٥٧] .

(٥٤) هكذا فالانتقال من ميكروليتات «مرحلة محمد جعفر» الى الأنصال الكبيرة لِ «مرحلة تبة سابز» يعلّل بالتغير الاقتصادي الهام ، من الزراعة البدائية ذات الصيد ـ القطف الى الزراعة المرويّة . لا نرى جيداً ماذا يمكن ان يكون هنا «التلاؤم» المذكور .

(٥٥) Cauvin J . (a) ، يصدر لاحقاً .

(٥٦) إن قاعدة وتد مفحّمة ، في المرحلة الثالثة A (البيت رقم ٤٧) كانت تحمل آثاراً واضحة لعمل بالقاقمة : Aurenche ، يصدر لاحقاً .

(٥٧) لقد لاحظ ريغو Rigaud (انظر Cauvin M. - C. b ، يصدر لاحقاً) ، استناداً على آثار الاستعمال وعلى تجارب ، أنه ، في الباليوليتي الأعلى الفرنسي ، في محافظة الايندر Indre ، ←

ولقد رأينا من جهة أخرى[٥٨] أنّ زمن ظهور رأس السهم ، على الفرات وفي فلسطين ، أي أواخر الألف التاسع ، لايتوافق مع أي تغيير في نماذج القنص المتّبعة ، كما يمكن ملاحظتها على البقايا التي جُمعت . بل ولايمكن أن نستبعد أن يكون «السهم» بوصفه مجموعاً واحداً «عصا ـ تسليح» قد وُجد في النطوفي ، مادامت أمثلة إتنوغرافية عديدة تشهد على أنّ كِسرةً من الصوان حادّة الرأس أو قاطعة الجانب أياً تكن يمكن أن تخدم كتسليح لسهم . الاختراع قوامه هنا ، كما بالنسبة للقاقمة ، في تجهيز مبتكر يكيّف هذه الشظية مع وظيفتها[٥٩] ، وهو مايجعلنا نتعرف عليها . يمكن أن نقول ، مع استخدامنا مفاهيم من **لوروا ــ غورهان** ، تجد نفسها هكذا محقّقة تاريخياً ، إن **نزوعاً** ملازماً للزمرة البشرية إلى تحسين وسائل تحصيلها قد أثار ، في أماكن ولحظات محدّدة لكن من الصعب التنبؤ بها ، اختراع أدوات جديدة . هذه الأخيرة تعبّر فعلاً عن درجة أعلى في التلاؤم (مع العمل المحقّق) ، لكن الاندفاع الأوّل الذي يثير التغيّر إنما يأتي من «**الوسط الداخلي**» : إنه ليس تابعاً وظيفياً لمعضلات جديدة يطرحها المحيط وليس له أثر أو انعكاس اقتصادي (على كل حال ، ليس له أثر مباشر) على علاقات الزمرة مع هذا الأخير .

مع ذلك ، لقد تساءلوا[٦٠] ماإذا لم يكن ممكناً الربط بين نموّ **أطوال** رؤوس الأسهم في مريبط المرحلة الثالثة والاستيلاء على طرائد أضخم حجماً الذي اشار إليه **دوكو** إبان المرحلة نفسها . أخيراً قد يكون هنا ، مثال عن علاقة واضحة ومحدّدة بين التكنولوجيا من جهة واستراتيجية غذائية جديدة من الجهة الأخرى[٦١] . إلاّ أن هذا التفكير غير مأمون ،

← جرى إقباض مكاشط عادية في أذرع واستعمالها كقاقمات . اذاً فقد كانت الوظيفة «قاقمة» موجودة، لكنها كانت هنا تستعمل من جديد إن صحّ القول غرضاً صوانياً متعدّد القيم ، الا وهو المكشط، الذي ليس هذا استخدامه الوحيد . قاقمة المريبط مشتقة هي نفسها من المكشط بموجب التقنية الوحيدة الوجه لحرفها شبه الدائري . لكنها تتميز عنه بمقاييسها وبجهاز إقباضها (سويقة ، عنق) . تقريباً في الوقت نفسه كان اختراع الفاصل في أريحا حلاً آخر لمسألة ربّما مشابهة : إنه يعيد استعمال النحت المزدوج الوجه الموجود على بعض «معاول» النطوفي ويضيف اليه من أجل تحرير الحد الفاصل تقنية «ضربة الفاصل» التي تجهلها قرى الفرات . بالمقابل لا يوجد اي تدبير خاص بقصد الإقباض . علماً بأن الشك يخيّم ، نظراً لعدم وجود دراسة منهجية لآثار الاستعمال ، على الوظيفة الدقيقة لهذه الأداة .

(٥٨) انظر آنفاً ،الفصل الرابع .

(٥٩) في حيز ثقافي آخر ، كان سولوتريو إسبانيا (في الباربالو Parpallo) قد اخترعوا السهم ذا السويقة والجنيّحات ، الذي «نُسِي» فيما بعد .

(٦٠) Ducos 1975 ، ص ٤٢ .

(٦١) علاقة مشابهة لتلك التي يقترحها هول وفلانري في المثال المذكور آنفاً (الحاشية رقم ٥٤) .

فليست رؤوس الأسهم وحدها بل كل الأدوات الصفيحية (لاسيما الأنصال ـ المناجل) تخضع لنمو مشابه في المرحلة الثالثة : هذا النمو ، بينما إختفاء الميكروليتات ، مردّه إلى استعمال نموذج التقصيب الجديد على نوى ذات قطبين وإن هذا التقصيب هو الجديد الحقيقي . والحال ، حسب طبقات التل ، يظهر التقصيب المذكور في المرحلة الثالثة A، حين لايكاد يبدأ تعديل الصيد وأما مسألة الزراعة فغير واردة بعد . فهو إذاً يسبق ، أكثر مما يرافق ، التغيرات في الاستراتيجيات . ولعله ليس سوى حالة خاصة من هذه «العودة إلى الماكروليتية»[٦٢] التي تعقب الصناعات ذات الميكروليت في أماكن كثيرة من العالم وفي شروط بيئية شديدة التنوع . بدون أن ننفي نتائجه الاقتصادية على المدى البعيد بإفساحه المجال لإنتاج سُلّم من أدوات أكثر ملاءمة ، يبدو من الواجب استبعاد كل ربط سببي مباشر .

في الحاصل ، إذا كنا نبحث بعناد ، في الأعتدة الأدواتية ، عن «اللوحة الحساسة» التي تنعكس فيها تغيّرات الاقتصاد ؛ ففي دراستها الكمية يمكن أن نجد تلك اللوحة ، لافي التكنولوجيا نفسها . من وجهة النظر هذه ، لايهمّ أن تكون الأداة متخصّصة أو لا ، وأن يكشف أو أن لايكشف شكلها عن الملاءمة لهذا الاستعمال المحدّد أو ذاك . قد نكون إزاء أدوات بسيطة جداً ولاتحمل سمات دالة على وظيفتها . في هذه الحال ، يكفي أن تكون أساليبُ غير مباشرة ، مثلاً دراسة آثار الاستعمال قد ربطتها بقطاع معيّن من النشاط ، حتى يمكن لوفرتها المتفاوتة الدرجة أن تكشف أهمية وتغيرات هذا النشاط[٦٣] وأن ترتدي بالتالي دلالة اقتصادية .

إن التقدم التقني الذي يتجلى في الأدوات الجديدة ظاهرة من نوع آخر . في أيامنا ، إن اختراع سكين الجبن وتكاثرها على موائدنا ليس له معنى أو دلالة على استهلاكنا للجبن قياساً مع الأزمنة التي لم يكن فيها هذا السكين موجوداً : كنا آنذاك نقطع الأجبان بسكاكين عادية ، مثلما كان الباليوليتيون يحقّقون الوظيفة «قاقمة» بمكاشط لاأكثر . فالتقدّم التقني إذاً ظاهرة ثقافية قبل كل شيء .

(٦٢) و «كامبينيّو» اوروبا أحد تظاهرات هذه العودة .

(٦٣) حسب الدراسة الجارية لِـ أنصال ـ مناجل مريبط الثالثة ، هناك فعلاً ، حين ظهور الزراعة ، صعود كمي لهذه الأنصال وبشكل خاص نمو لكثافة استعمالها بعد تهذيب متكرر للحدّ القاطع : M. C. Cauvin (b) ، يصدر لاحقاً . انظر ايضاً بالنسبة للتخصيصات في لبنان الألفين الخامس والرابع وتظاهراتها الكمية Cauvin J . 1968 .

صقل الحجر

الصقل الحقيقي صقل بطريقة السحج والكشط . يُحصل عليه بالحك الطويل المديد للموضوع المطلوب تشكيله أو صوغه على مِصقل في وضع نائم . التشكيل يمارس هنا بالتآكل الذي تسهّله إضافة رمل بين المصقل والقطعة المراد صقلها . بهذه الوسيلة يمكن صقل الأحجار القاسية التي لاتشكّل بالتشظية أو حتى الصوان الذي هو نفسه قابل للنحت[٦٤] .

لعلّ البدايات الأولى لهذه التقنية[٦٥] تشهد أنواط نطوفي المريط المصنوعة من الحجر الأخضر (الرسم ١٨، رقم ١) : إنها أغراض زينة ، وفي الوقت نفسه تمائم على الأرجح . القضبان المصقولة التي تليها لم يعثر عليها في مكانها ماعدا واحداً منها فوق قبر . احتمال أن تكون أدوات شغل ضعيف جداً[٦٦] . لقد رأينا أن القاقمة المصقولة[٦٧] التي هي فعلاً أداة شغل لاتظهر إلا في أواخر المرحلة الثالثة ، نحو سنة ٧٧٠٠ ق .م .

الفأس المصقول يحقق تقدماً تلاؤمياً على الفأس المقطوع ، هذا أمر لاجدال فيه ، إن صقل الحدّ القاطع في الصناعات الفلسطينية التي تفتقد للحجر القاسي هو الذي سوف يعطي ، في أواخر الألف السابع ، الفأسَ الصواني مزيداً من الفعّالية (الرسم ١٦ ، رقم ٣) . الفأس (أو القاقمة) المصقولة هي بحد ذاتها اختراع من نفس نوع اختراع السهم القاقمة المنحوتة . ونرى جيداً في مريبط أنها ناجمة عن مزج يجمع ، في خلق جديد

(٦٤) هذه التقنية يجب ان تميّز عن مفعول الصقل الذي يمكن تحقيقه أيضاً على مواد أقل قسوة (عظم ، حجر ليّن) : بالكشط العادي بواسطة نصل من الصوان (Storddeur ، قيد الطبع ؛ Newcomer 1974). ولهذا السبب ، فالعظم «المصقول» في الباليوليتي الأعلى ليس بأي حال صورة مسبقة عن الصقل النيوليتي.

(٦٥) إن صعوبة تأريخ بعض المواقع العراقية مثل كريم شهير (وفيه أساور مصقولة من الرخام) او زاوي شيمي شانيدار (وفيه فؤوس مصقولة) تترك مسألة بداية الصقل في العراق مفتوحة . مع ذلك لا يبدو أنها أقدم من الألف الثامن . انظر آنفاً الفصل الخامس ، الحاشية ٤٧ .

(٦٦) هذه القضبان وجدت دائماً مكسورة ، لكن فحص الآثار الممكنة العادية على طرفها غير الحادّ لم يعط نتائج حتى الآن .

(٦٧) القِطع ذات الحافة المشطوبة (او الحرف المائل) لا يمكن ان تكون سوى قاقمات . «الفؤوس» ذات الحرف المتناظر ، التي يمكن إقباضها كقاقمات لا تبرهن اذن على أن «الوظيفة فأس» كانت معروفة آنذاك.

وعلى نفس المادّة التي صُنعت منها التمائم النطوفية[٦٨] اختراعين موجودين أصلاً ، لكنْ لهما مصيران منفصلان في مكان واحد طيلة ألف سنة تقريباً ، وهما اختراع القاقمة واختراع الصقل .

هنا أيضاً ، هذا الخلق تلاؤمي وهو في الوقت نفسه بلا مرمى اقتصادي مباشر ، إذ أنه في البداية إنما يحلّ ، في المهامّ اليومية نفسها ، محلّ أداة أقلّ تحسيناً لاأكثر .

لكن ماذا نقول عن اختراع الصقل نفسه ، سوى أنه لم يكن محرَّضاً في البداية ليس فقط من قِبل أية ضرورة اقتصادية ، بل ولامن من قِبل أيّ قصد «عمليّ» أيضاً ، أي أنه لم يكن بأي حال تلاؤمياً في مملكة «حاجات الأساس» ولا في مملكة الفعل في البيئة ؟ إن منفعته الأدواتية ، مع أنها مدعوّة إلى نجاح كلّي ، لم تُدرك في الحاصل من قِبل الثقافة التي كانت قد اخترعتها إلا بعد انقضاء ألف سنة على الاختراع نفسه بالمعنى الحقيقي للكلام . . .

إن تاريخ أصول الفن الخزفي ، في بلاد الشام ، ستفسح المجال لملاحظات شبيهة .

معضلات الوعاء وبدايات الفخار

نعلم الأهمية التي ارتداها اختراع الخزف في النشاطات المنزلية والمطبخية . فالفخار المطبوخ يستجيب للحاجة إلى وعاء غير نافذ للماء ومقاوم للنار بآن معاً . وهو وحده الذي سمح ، قبل المعدن ، بطبخ الأطعمة السائلة .

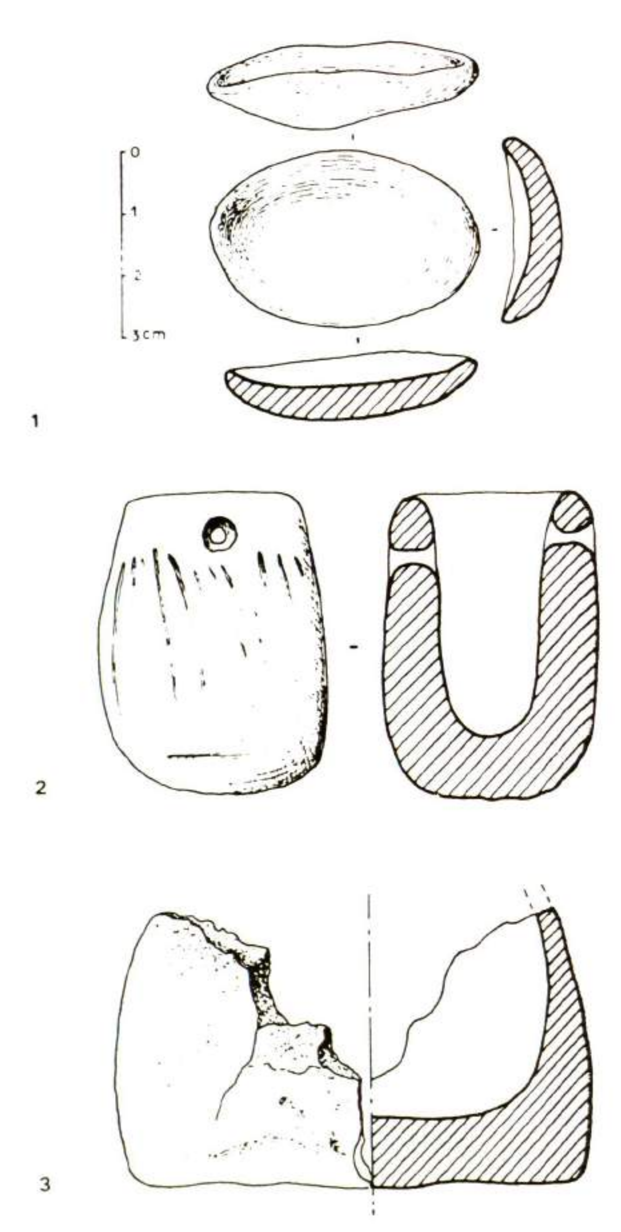
تقنياً ، إنه المآل الذي انتهت إليه ، من جهة ، أُلفة مع الخصائص البلاستيكية للغضار المخلوط بالماء التي تسمح بتشكيله ، ومن جهة أخرى معرفة وسيطرة كافية على تقنيات النار لتصليب نتيجة التشكيل عن طريق الطبخ .

والحال ، لقد أنمى وادي الفرات في وقت مبكر جداً هذه المعارف[٦٩] ، أولاً بواسطة استعمال مبكر وهام للغضار في البنى المنشأة : ليس فقط طلاءات الأرض والجدران نفسها ، بل ، في مريبط ، التلبيسُ الداخلي للحفر ـ المواقد . منذ المرحلة الثانية ،

---

(٦٨) بعكس أويحا النيوليتي السابق للفخار A حيث لا يوجد تقليد محلي لصقل الحجر القاسي وحيث الفأس المصقول ، النادر ، استعارة واضحة .

(٦٩) Schmandt - Besserat 1977



الرسم ١٩ خذفيات من الطور الثالث ٨ في مريبط : طاسة بيضوية ؛ ٢ ـ طاسة مزخرفة مع ثقب للتعليق ، ٣ ـ وعاء بمستوي عميق .

هذه الحفر الأسطوانية ، التي كان يتم فيها طبخ الطعام على حصى[٧٠] ، كانت مطلية بالغضار المكمّل : الاستعمال المكرّر للحفرة كان إذاً يحولها إلى «فخار» حقيقي ثابت . والفكرة الجديدة والحاسمة ستكون ، في المرحلة الثالثة ، الانتقال من هذا الطبخ غير الإرادي إلى الصنع المتعمّد ، بنفس العملية أو السيرورة ، للأغراض المنقولة (أغراض الأثاث) الأولى .

لكن ماهي هذه الأغراض ؟ من جهة ، إنها تماثيل صغيرة للإلاهة ، مطبوخة بشكل جيد ، ومن جهة أخرى ، أوعية صغيرة جداً ، بعضها جيد الطبخ (الرسم ١٩، رقم ١) والآخر بالعكس (رقم ٢ - ٣) ، فالتقنية لم تُتقن[٧١] ، لكن هذه الأغراض ، نحو سنة ٨٠٠٠ ق .م ، هي الشواهد الأولى المعروفة عن صناعة فخّار حقيقية[٧٢] . غير أن هذه الأوعية هي بآن معاً أصغر وأندر (مجموعها خمسة في مريبط) من أن تتدّخل بشكل فعّال في الممارسات الطعامية ، فهي لاتبدو تستجيب للمسألة المنزلية التي يفترض في صناعة الفخار أنها تحلّها وسوف تحلّها فعلاً في وقت لاحق . من جهة أخرى ، إن الأوعية المعنية ، بعد بضعة قرون من هذا الفصل القصير ، ستختفي لمدة طويلة ، أضف أيضاً أن استخدام الطين المشوي في أسود (دمشق) الثانية لن يعيش ، في مطلع الألف السابع ، إلاّ في شكل تماثيل نسائية حصراً .

أخيراً ، فقط في النصف الثاني من هذا الألف نفسه سيقوم فخار استعمالي حقيقي آخذاً مكانه في الأثاث العادي لبعض المواقع ككتل الأسود ، في حوض الفرات مرّة أخرى . ذلك سيكون الوقت الذي سيحقق فيه تحسين «فنون النار» طلعاته في عدة ميادين معاً ، فالكلس ، الذي لحظ باديءُ بدء ، كالغضار المطبوخ ، في مستوى كسْوات ثابتة لمنشآت ، سيخدم أيضاً ، في تجربة بلاغد[٧٣] في سورية وفي فلسطين ، في صنع أوعية .

هكذا فلا الحجر المصقول ولا الفخار ، حين نتوصّل إلى مراقبة الأزمنة الأولى

(٧٠) كما تبين العظام المحروقة في أحيان كثيرة التي عُثر عليها على السطح أو حول هذه الحفر : Cauvin J . 1972 (C) ، ص ١٠٧

(٧١) إن تحليلات يجريها M. Le Miere (مدنية ليون في فرنسا) تقدّم إيضاحات عن هذه التقنية .

(٧٢) يوجد تأريخ بالكربون ١٤ (٨٠٠٠ ق م) مصدره البيت رقم ٤٧ حيث عثر على معظم هذه الفخاريات .

(٧٣) Balfet et ... 1969

لظهورهما مراقبة حقيقية ، يبدوان اختراعان «تلاؤميان» ، مادام كلاهما يرى في سياق تزيينيّ أو دينيّ أكثر منه نفعيّ[٧٤] . تسير الأمور وكأنّ كل اكتشاف هام حقاً ، لأنه ناتج عن السيطرة على مادة جديدة أو عن طريقة جديدة جذرياً في تحريك مادّة اعتيادية ، كان يطبع منتجاته الأولى بمهابة تجعله يحفظها لميادين أكثر «تقييماً» من تلبية الحاجات البيولوجية . هذا ماجعلنا نقول[٧٥] أن كل اختراع لهذا المستوى يمر باديءُ بدء بلحظة «رمزية» ، وأن ضرورة هذه المرحلة تزداد كلما ازداد غنى الاختراع المعني بالتطبيقات الثورية بعد حين .

هذه التطبيقات بدت لنا ملْكاً للحظة ثانية ، حين يأتي نوع من «ابتذال» للاختراع الأوّل فينشره في الحياة العادية ويجعله ، بتداعيات خصبة للأفكار (اختراعات مشتقة) ، نافعاً حقاً .

ألا يرجع ذلك إلى القول بأن البواعث النفعية لاشأن لها في ظهوره ؟ إذ ليس فقط ليس لهذا النموذج من الاختراع أيّ مدى اقتصادي ، بل هو لايبدو ملّبياً ، حين يظهر ، لأي نزوع إلى تسهيل ولا إلى تحسين التكنولوجيات الموجودة . الصقل سوف يحسّن إصابات الفؤوس . لكنه لم يُخلق من أجل ذلك . هنا نحن في ميدان الجماليّ أو السحريّ أو الدينيّ ، أي نحن تماماً في ميدان «الثقافة» بعنصرها الأقل براغماتية والأكثر انطواء على عالمها الذهني . ليس فقط في «الوسط الداخلي»ماينبغي إذاً البحث عن الضغط الأوّل الذي اثار أو سبّب الاختراع ، بل إنّ «الوسط الخارجي» لايبدو مقدّماً له في أقصى حدّ سوى العناصر المادية : إنه ليس «هدفاً» من قبل الجهد الخلاّق .

لم يُستند حتى الآن إلاّ إلى مدلول «راهن» جداً ، أي مادي جداً للمنفعة : الحصول على الطعام وإعداده ، إنشاء المساكن ، الخ . . . ، أي باختصار كل هذا الذي يلوّن ويعدّل «العلاقة الايكولوجية» والأنماط البيولوجية للاندماج الانساني مع المحيط . من وجهة النظر هذه ، بدت لنا بعض الاختراعات «غير نافعة» .

مع أن حضور أغراض من الطين المشوي نحو ٨٠٠٠ق .م في عدة مواقع يبيّن أننا لسنا هنا إزاء الخيال المجاني لفرد فائق الموهبه . هذه الأغراض لها مكانها في ثقافة ، الاختراع ذو طابع اجتماعي - اشتراكي ، من الصعب القبول بأنه لايلبي بضع حاجات

(٧٤) سيكون الأمر كذلك في أزمنة المعدن الأولى حيث كثيراً ما تسبق الزينة الخالكوليتية («الحجري - النحاسي») أداة الشغل .

(٧٥) Malefant et ... ، ص ٥٠

أكثر إرهافاً من تلك التي كنّا نفكر بها ، لكنها مع ذلك جماعية . وهذه الحاجات إنْ هي إلاّ تلك التي تحدّد في المجتمعات حقل الدين ، الفن ، الايديولوجيا ، اي باختصار حقل هذا الذي يُدعى الثقافة غير المادية . إنه الأصعب على التناول الموضوعي بالبحث الآثاري ، إنه أيضاً الحقل الذي تؤثر فيه الخيارات الايديولوجية الشخصية لعلماء الآثار أو لوسطهم تأثيرها الأكبر على التأويلات . بات من الضروري القيام بغزوة على هذه الأرض إتماماً لقصّتنا عن التغيرات في بلاد الشام .

الفصل السابع

الوثائق الفنيّة والدّينيّة

لقد اعتمدنا إلى هنا «الثقافة» ، أو«الوسط الداخلي» ، نوعاً من لجوء تعليلي في كل المرات التي كان المطلوب فيها فهم بعض «التشوهات» في تلاؤم القرية مع البيئة ، وفي كل المرات التي كان يظهر فيها **استقلالٌ** ما للزمرة الاجتماعية ازاء الضغوطات البيئية . هذا الاستقلال يجد تعبيره في بعض الخيارات غير المتوقعة ، أو بعض الاختراعات التي ليس لها هدف عملي ، بالتناقض مع المخطط الزائد البساطة محرّض ـ استجابة الذي مازال يغلب ، في شكل صريح أو لا ، عند كثير من علماء ماقبل التاريخ الحديثين . في الحاصل ، خدمتْنا «الثقافة» في تبرير كل تلك البقية من وقائع ، التي لاتُعلّل باعتبارات بيئويّة ، والمتدخّلة في صلب نشاطات التحصيل الأوّلية الأكثر توجّهاً نحو تأمين البقاء المادّي . عند الحدّ الأخير ، ظهرت الثقافة كأنها «صوت» أو «ضجة» (bruit) كما يقال في المعلوماتية ، صوتُ بشريّ نوعيّاً يُبعد مجتمعاتنا القروية عن الطريقة الأكثر براءةً وغريزيةً ألف مرّة التي بها تسجّل وتستخدم المجتمعات الحيوانية بيئتها المحيطة .

يجب أن نذهب إلى ابعد وأن ننقل الآن تحرّينا إلى نظام جديد من الوقائع ، الفنية والدينية ، حيث يُفترض أن «الثقافة» تتجلى في وضعها الخالص ، بدون مرمى أمبيريقي(•) صريح ، علماً بأن هذا لايحول دون تنوع كبير في التأويلات الممكنة عن الطريقة التي يتمفصل بها هذا الميدان فعلياً مع الميادين الأخرى .

بالحقيقة ليس وجود هذه الثقافة هو مايُشْكل . لايشكّ أحدٌ في أن خاصة المجتمعات

(•) ـ امبيريقي empirigue أي اختباري ، تجريبي الناشر .

الانسانية هي إفراز مجموعة كاملة من المواقف الذهنية ومن البناءات غير المادية ، قابلة للنقل من أجيال إلى أجيال ويقال لها ثقافية ، ولافي أن هذه البناءات ، الموصوفة أحياناً بأنها «بنى فوقية» ، تفعل فعلاً«راجعاً» إن صحّ القول على البنى التحتية ، ويمكن أن تطبع التصرفات اليومية الأكثر عينية . لكن العلاقات المتبادلة بين هاتين الدائرتين أو الكُرَتين ، الامبيريقية و«الايديولوجية» ، مازالت بعيدة عن الوضوح . حين يعتبر **بنفورد** أن الثقافة إنْ هي إلاّ مجموعة الوسائل اللاّ بدنيّة ، أي غير المتحكّم بها توريثياً ، التي تخدم في إحكام الانسان على منظومته البيئية[1] ، فإن هذا التعريف ، مع احترامه البادي لخصوصية العالم الثقافي ، إنما يعكس ، في حيثية أصل وغاية هذا الأخير ، خياراً قبْلياً : إنه ليس نتيجة لبحث .

فالمآل هنا ، كما رأينا[2] ، هو إضفاء الامتياز في سلسلة التطور السببية ، على ضرورة التلاؤم مع البيئة الطبيعية بوصفها احتياطياً قوياً بالموارد الحيوية ، حتى إذا اعتُرف بأن الوسائل المستخدمة ليست دوماً مادية . تبقى الثقافة **وسيلة** لحل المعضلات ذات الطابع الاقتصادي ، فهي إذاً صدورٌ عنها ، وكأنها «ظاهرة مضافة» ملحقة بقاعدة يتناولونها بمفردات أو حدود بقاء بيولوجيّ .

هذا التصوّر إنْ هو إلاّ نقلٌ لاقتصادوية راهنة أُلبست مفردات ايكولوجية (بيئية) إلى ميدان عمل علماء الآثار . إنه غير مبرهن علمياً من قِبل ميداننا أو انضباطنا . لا شيء يسمح قبْلياً باستبعاده ، ولاكذلك بقبوله . حين تعايَن ظاهرتان في وقت واحد ، كما يحصل في الاتنوغرافيا مثلاً ، كثيراً ماتكون معرفة أيهما يؤسّس الآخر وهو سببه ، مسألة خيار عقيدي أو مذهبي . لكننا نعلم أن التحليل المرهف لترتيب ظهورهما أو نظامه التاريخي يمكن أن يُقدم في هذا النوع من الإشكال ، بعض الحجج التي لاتُردّ ، هذا ماينبغي الآن أن نحاوله بالنسبة للميدان الجديد الذي نتناوله .

كما في الباليوليتي ، ستكون الوثائق أولاً بأوّل تصويرات ، سواء تمّ إنجازها بالرسم أو التشكيل (القولبة) أو غير ذلك . بها يُظهر إنسان ماقبل التاريخ على النحو الأفضل نشاطه التفكيري ، حقيقةَ انّ العالم الذي يحيط به هو بالنسبة له موضوعُ فكر وخيال . حتى حين ينشئ عن الواقع المدرَك نسخةً هي على مايكفي من الأمانة ، من الجليّ أنه ، في

(١) Binford 1968 ، ص ٣٢٣ .

(٢) انظر آنفاً ، الفصل الأوّل ، عند الحواشي ١ - ٣ .

إعادة الانتاج(•) هذه ، لاينقل كل شيء ولا أيَّ شيء كان : الصورة التي أعاد إنتاجها ، رسماً أو تمثالاً ، هي تذكير رمزي أو إحضار رمزي لواقع محدّد ، اختاره بين ما لاحصر له من الممكنات المعروضة للادراك الحسّي[3] . حضورُ هذا الخيار ، واقع أن هذه الثنية الخيالية للعالم الامبيريقي (عالم الخبرة الحسيّة) التي يجسّدها الفن عيانياً ليست سوى ترجمة منقّاة ، مؤوّلة ، تبرز فيها بعض الموضوعات بينما تهمل غيرها ، ذلك هو الطريق الأول الذي ينفتح لنا لا من أجل إعادة تكوين العالم المحيط برجال ماقبل التاريخ بل من أجل إعادة تكوين الرؤية الذاتية التي كانت لهم عنه . من البدهي أن هذه الرؤية الذاتية هي ثمرة فاعلية الروح ـ الذهن الذي لايستعير بعض العناصر من الطبيعة إلاّ لأنه يعطيها **معنى** .

كذلك في عالم «التمثيل»(•) ، عدا عالم الفن ، ينبغي إلحاق كل عمليات الصف أو الترتيب القصْدية للعناصر الطبيعية (عظام ، معادن) أو التقنية (artefacts، صنعيّة ـ فنيّة) حين لاتكون هذه الصفّات أو الترتيبات نفعية لكنها مع ذلك دلالية[4] . هكذا في تل مريبط ، إن جماجم «الثور الكبير» وغيرها من العظام الحيوانية تشارك في تشكيلات من هذا النوع ، ذات قيمة دينية . والأمر كذلك عن المدافن البشرية ، لاسيما وأنه ، فضلاً عن واقعة الدفن التي هي بحد ذاتها غير نفعية ، يمكن أن يشهد ترتيب الهيكل العظمي ومعاملة أجزائه والأغراض المتنوعة المشاركة في هذا الترتيب على خلفية ايديولوجية هامة .

سنسعى إذاً ، انطلاقاً من الوثائق المتوفرة عن بلاد الشام[5] ، إلى لحظ بعض المعطيات ذات الدلالة على الطريقة التي كان بها القرويون الأوائل يتناولون ذاتياً عالمهم ، أي من جهة محيطَهم الطبيعي ومن جهة أخرى واقعَهم الانساني الخاص . سوف نرى أننا هنا أيضاً نشهد تغيرات : قد يكون من المفيد أن تجابه بالتغيرات الأخرى .

[• لنذكر أن reproduction = نسخة ، إعادة إنتاج ؛ وأن reflexion = تفكير ، انفكار ، من reflet = انعكاس ؛ وأن speculation (مضاربة تأمّل نظري الخ) من speculum اللاتينية التي تعني «مرآة» ؛ وأن theorie (نظرية) من theoria اليونانية وتعني «نظر» ؛ imagination (خيال، تخيل) من image = صورة]

(٣) لقد سبق ان بيّن لوروا ـ غورهان ان التشخيصات (التمثيلات) الحيوانية في الباليوليتي لا تغطي لائحة الأنواع المقنوصة .

[• representation = إحضار]

(٤) انظر Leroi - Gourhan 1964 .

(٥) انظر : Cauvin J. 1972 ، من أجل الجرد التفصيلي .

إدراك البيئة الطبيعية

التمثيلات البلاستيكية (تماثيل - أشخاص) ستكون هنا مصدراستعلامنا الرئيسي . إنها جوهرياً تمثيلات حيوانية ، فالعالم النباتي لايعير نفسه ، بنفس السهولة ، لإعادة الانتاج التصوُيرية .

الوثائق

١٠٠٠٠ إلى ٨٣٠٠

إن عصر القناصين - القاطفين النطوفيين هو أيضاً العصر الذي تتظاهر فيه النشاطات الفنية الأولى في الشرق الأدنى ، إذ لانعرف له فناً باليوليتاً . ولقد سبق أن سجّلنا في مكان آخر[٦] السمات الجوهرية الثلاث لهذا الفن النطوفي :

- كما في الرسوم الفرانكو - كانتابرية[*] ، نرى هنا من البداية أسلوباً جدّ «تصويري» ، هو الغالب ، وتمثيلات «تخطيطية» .
- تمثيلات الحيوان هي الشيء الأهم ، أما تمثيلات الانسان فهي استثنائية .
- الأنواع الحيوانية الممثّلة تبدو قليلة التنوع تماماً : مع أخذنا في الاعتبار صعوبة تحديد هوية التمثيلات الأكثر تخطيطية ، يبدو حقل الممكنات محصوراً في الغزلان والأيليات .

معظم الوثائق آتٍ من اثنين فقط من القطاعات التي أصاب فيها التنقيب محتلاّت نطوفية وهما جبل الكرمل وبادية جنوبي **القدس** . هذه الوثائق عُثر عليها في كهوف ، أي في الشكل الأكثر قدماً (الشكل غير القروي) للثقافة النطوفية .

سنذكر عن المنطقة الثانية التمثال الكلسي الصغير ، الواقعي جداً ، في **أم الزويتينه** (الرسم ٢٠ ، رقم٣) ، الذي وُجد مطلياً بالمغرة ، وعن جبل **الكرمل** التماثيل الثلاثة التي عُثر عليها في **وادي الفلاح** ، وهي تخطيطية (رقم ١ ورقم ٢) ، وهي حسب تأويل مخترعيها رؤوس غزلان[٧] : علماً بأن أحد هذه التماثيل منحوت على طرف قرن غزال ، لكن تمثالاً آخر (رقم ٢) يأتي من القرن الطويل لأحد الأيليات . هناك من جهة أخرى

---

(٦) Cauvin J. 1972 a

[* الجبال الكانتابرية تمد جبال البيرنه في شمالي إسبانيا]

(٧) Stekelis et Yisraely 1963

الرسم ٢٠ - تمثيلات حيوانية من النطوفي : ٢ ، ١ وادي الفلاح ؛ ٣ ، أم الزويتينه ؛ ٤ الواد ؛ ٥ - ٦ ، كباره .

تزيينات أو ديكورات محدّبة لـ «مقابض مناجل»[٨] ، أحدهما من قرن أيّلي في موقع **إلواد** (الرسم ٢٠ ، رقم ٤) وأربعة غيره من العظم في موقع **كباره** (رقم ٥ ، ٦) ، تمثل كذلك غزلاناً أو أيّليات ، وأخيراً مدقّ من البازالت ، في **الواد** ، منحوت في شكل حافر أحد ذوات الخف .

إذا خرجنا من ميدان الفن للاهتمام بإعادة الاستعمال الرمزية لعناصر من هياكل حيوانية ، حضرت لنا ثلاث وثائق فقط : أولها ثلاثة عراقيب عظمية لغزلان في قبر جماعي بموقع **عين ملاّحة**[٩] ، والثاني أسنان خيليّات في مدفن ، بموقع عرق الأحمر ، وتصحب كل منها إحدى الجماجم على مايبدو[١٠] والأخير هيكل كلب أشرنا إليه سابقاً[١١] ، وقد اكتشف مؤخراً في

عين ملاحة كتكملة قصْدية لمدفن بشري في الدرجة الأولى . يمكن أن نضيف الاستعمال الخاص للقواقع في الزينة ، وقد ذُكر في كل مكان تقريباً (سنيات في جبل الكرمل وفي النقب ، «تيودوكسوس» في مريبط) وبيض نعام مزيّن في **رأس زين**[١٢] .

قد تبدو هذه الوثائق جميعاً غير ذات شأن إلاّ أنها على مايكفي من الكثرة ، إذا ماتذكرنا أن التحف الفنية نادرة بطبيعتها وأن معظم هذه الأغراض والوثائق الأخرى التي ذكرناها قد عُثر عليها في سياق عملية دفن . وغيابها على الفرات بشكل خاص يمكن أن يكون مردّه لمصادفات حفريات مازالت محدودة ولم تسفر عن اكتشافات مدافن .

بخاصة ، إن هذا المجموع يمكن أن يتفارق بوضوح عن حصيلة الحقبة التالية .

٨٣٠٠ — ٧٦٠٠

العصر الذي سيرى الآن إزهار التجارب الزراعية الأولى لم يعطنا حتى هذا اليوم

(٨) إن تحديد هوية هذه الأغراض بأنها «مقابض لمناجل» مبني على حضور أخدود لتركيب أنصال صوانية متتالية على طوله ، لكن لم يُعثر على اي نصل في المكان وبالأحرى على أيّ نصل ملتقع . هذا يدفع الى الحذر ، ومن الأفضل الآن تسميتها «مقابض سكاكين» .

(٩) Perrot 1966 a

(١٠) Neuville 1951

(١١) انظر آنفاً ، الفصل الخامس ، عند الحاشية ٣١ .

(١٢) Henry 1976

سوى موقعين فيهما تماثيل ، أحدهما ، تل أسود دمشق ، حيث هي جميعاً حيوانية ، والآخر ، مريبط ، حيث هي بالعكس إنسانية . على الصعيد التقني ، الجديد في الحالتين هو استخدام الطين المطبوخ .

على عكس مارأينا في النطوفي ، تبدو الأنواع الحيوانية الممثلة في أسود المرحلة الأولى بالغة التنوع : بقريّات ، ماعزيات (عنز برّي ، غزلان) أو خنازير برية[١٣] .

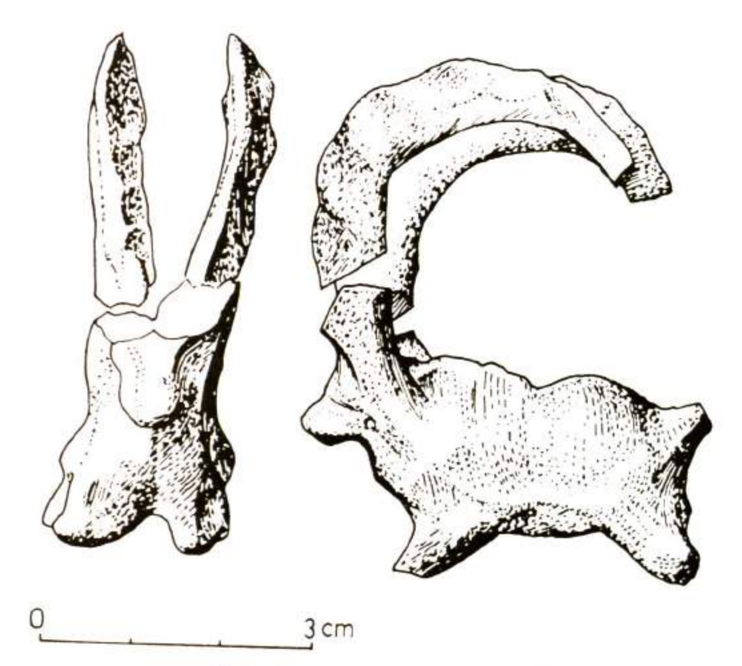
في مريبط ، حيث لايوجد فنّ حيواني ، إلاّ أنّا نجد في جهات التمثيلات «غير الفنية» وثائق هامة . الوثائق الأقدم تأتي من مطلع المرحلة الثانية ، نحو ٨٢٠٠ ق .م ، وهي شواهد الترتيب القصْدي لجماجم الثور Bos primigenius داخل مصاطب من الغضار : في إحداها ، الجمجمة تامة ، موضوعة أفقياً ، الخطم نحو الغرب ، تصحبها ثلاثة ألواح (عظام الكتف) ، اثنان لثور والأخير لحمار[١٤] ، بغياب أية عظام أخرى ؛ والكل كان مغموراً في غضار أصفر مكمّل ، شبيه بالغضار الذي يزيّن الأرض والجدران . الجمجمة الثانية لم تكن تامة بل كانت «مفصّلة» ، وأجزاؤها مصفوفة ، القرنان متوازيان ، فوق مساحة ضيقة داخل كتلة من الغضار المكمّل كأنها تشكل نتوءاً خارج جدار بيت مستدير . عدا ذلك ، كانت بعض العظام الأخرى إلى جانب هذه العناصر : عدّة أجزاء من حوض بقري ، ولوح حمار وهي العظمة الوحيدة التي لاتنتمي للنوع المعني . هذه العظام جميعاً كانت تؤلف كوماً متراصاً ، عناصره متلاصقه ومن الجليّ أنها رُتبت مرة واحدة . ليس ثمة شك في أننا هنا أيضاً أمام ترتيب قصْدي .

يمكن التساؤل ما إذا كانت للقرون البقرية التي وُجدت داخل الجدران في المرحلة التالية (الثالثة A) في تل المريبط دلالة مشابهة . فلقد رأينا[١٥] أنه كان يحدث آنذاك أن تُصنع جدران باللبن الخشن مع شتى أنواع الحجارة والعظام المخلوطة بالتراب بدون أي هدف آخر سوى الهدف التقني . إلا أنه لم يُعثر على قرن في كل الجدار الغربي للبيت رقم ٤٧ المشيّد حسب هذه التقنية . بالمقابل ، عثر على قرن بقري ، منفرد ، في الجدار الأوسط لهذا البيت وللبيت رقم ٤٢ (الرسم ٨) ، وهو جدار مبني من الحجارة المسطحة الملحومة بالغضار بدون أية عظام . وبخاصة ، في الجدار الشمالي للبيت رقم ٤٧ ، كانت بنية غضارية تؤكد الظاهرة نفسها : كان قرن ثوري مسحوق موضوعاً على قاعدة من

(١٣) Contenson 1972 ، ص ٧٨

(١٤) هذه التحديدات وكذلك التالية هي من P. Ducos الذي حرّر جماجم الثيران .

(١٥) انظر آنفاً ، الفصل الرابع ، الحاشية ٥١ .



الرسم ٢١ - عنز بري من الطين المشوي في البيضا (نقلاً عن Kirkbride)

الحجارة ومغطّى بشريط سميك من الغضار الأصفر ، هلالي الشكل ، طوله ٦٠ سم ، عرضه ٢٠ ، وسمكه كذلك . هذه البنية كانت موجودة في الجدار على ارتفاع ١,١٠م فوق أرض البيت . وقد عُثر على قرن آخر في سمْك الجدار ، أبعد بـ ٥٠ سم ، خارج «البنية» التي وصفناها ، لكن في المستوى نفسه تقريباً .

إذاً فهذه ممارسات المرحلة الثانية التي استمرت ، لكن مع استعمال القرون وحدها بدلاً من الجمجمة كاملة .

٧٦٠٠ — ٦٦٠٠

العصر الذي يتوافق مع مريبط المرحلة الرابعة ومع النيوليتي السابق للفخار B القديم بفلسطين أعطى عدداً كافياً من تمثيلات الحيوان الغضارية . لسوء الحظ ، إن تقارير الحفريات تذكرها أو تنوّه بها أكثر مما تنشرها . عن أريحا ، يرد ذكر تماثيل عديدة

لحيوانات ، معظمها على مايدو أبقار[١٦] ، فقط واحد منها مشروح[١٧] .هذه التماثيل ، من الطين النيّئ ، التي يشير إليها بيرو في موقع منحطة ٦ - ٤ «كثيراً ماتمثّل حيواناً طويل القرنين»[١٨] : أحدها[١٩] يبدو كأنه كبش . في موقع البيضا[٢٠] ، يوجد تمثال من الطين المشويّ لعنز بريّ (الرسم ٢١) ؛ يرد أيضاً ذكر قرنين لثور من الغضار المطبوخ وتمثيلات بالمادّة نفسها لعنزات وأكباش[٢١] .

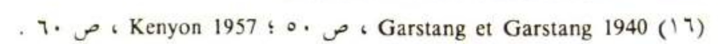
في سورية ، تستمر تماثيل أسود (دمشق) الأولى في المرحلة الثانية ؛ مريبط الرابعة لم تسفر عن وجودها ، لكن ليس لهذا دلالة كبيرة نظراً لضيق المساحة التي شملها التنقيب .

خارج هذه التمثيلات ، تجدر الاشارة إلى أن الغرابات المعاينة بين بقايا الماعز في الخيام ١ - ٢ تؤوّل[٢٢] علىأنها نتيجة ممارسات دينية(تضحيات) : كثرة استثنائية للأفراد دون الشهر الأول (٨٣٪) ، هيئة تامة لجسم العظام بلا آثار لنزع اللحم أو لطهو ، وغياب مدهش للجماجم والسلاّميات مع أنها بوجه عام تنحفظ جيداً . هذه الواقعة الأخيرة يمكن تعليلها ، حسب دوكو ، باستعمال خاص لجلد صغار الماعز (والرأس والقوائم تُنزع معه) ، لكن الكثرة الفائقة للمواليد الجدد وعلائم عدم استهلاكها تدير ظهرها تماماً للمصلحة الاقتصادية لكل مربّ راعٍ بحيث لابدّ من الاعتراض بدوافع من نموذج آخر .

٦٦٠٠ — ٦٠٠٠

أخيراً حقبة «النيوليتي السابق للفخار B الحديث» لم تُسفر بالنسبة لفلسطين إلاّ عن وثائق أبو غوش التي هي تمثيلات لبقريّات : رأسان ثوْريان من «الطين المصلّب» وقرن من الحجر[٢٣] .

في منطقة دمشق ، تُواصل **الغريفة** في مرحلتها الأولى تماثيل **أسود** ، منها تمثيل



(١٦) Garstang et Garstang 1940 ، ص ٥٠ ؛ Kenyon 1957 ، ص ٦٠ .
(١٧) Kenyon 1957 ، اللوحة ١٩ .
(١٨) Perrot 1966 ، ص ١١ ، رقم ١ .
(١٩) Perrot 1967 ، ص ١١ ، رقم ١
(٢٠) Kirkbride 1966
(٢١) Kirkbride 1967 ، ص ١٠
(٢٢) انظر آنفاً ، الفصل الخامس ، عند الحاشيتين ٧٥ - ٧٦ .
(٢٣) Dollfus et Lechevallier 1966 ، الرسم ٥

لخنزير[٢٤] وقرون . بعض ذوات القوائم الأربع تستمر في المرحلة الثانية . في الرماد ، التمثيلات الحيوانية عديدة ، وهي في الغالب من الغضار النيئ وتافهة الصنع ،وأحياناً من العظم ؛ معظمها مجترات صغيرة وخيليات[٢٥] أو حيوانات لايمكن التعرّف عليها .

على الفرات ، توجد أيضاً تماثيل حيوانية في أبو هريرة[٢٦] ، جميعها من الغضار النيئ ، وإن كانت بعض الأغراض الأخرى من الغضار المطبوخ موجودة منذ ذلك الحين . لانعرف الأنواع الممثلة ، على الأرجح لأنه من الصعب تحديد هويتها . كذلك في الجزيرة ، حيث وُجدت في تل الأسود[٢٧] حيوانات من الطين ، تامة أو مجزأة ، لكنها غير قابلة للتحديد . لكن توجد قرون صغيرة ملوّية بشكل خفيف : إذا كانت هذه السمة متعمّدة ، فقد تؤشر على ماعز أهلي .

مناقشة

الوثائق الفنية ، كما يرى القارئ ، تشكل مجموعاً على مايكفي من الغموض وإنه لمن الجسارة أن يزيد المرء في الاستنتاج . هذا مرده إلى واقع أن النطوفي وحده قدّم تماثيل ذات مستوى فنّي كافٍ لنشرها بعناية . فيما بعد ، كثيراً ماتلعب مادّة أكثر هشاشة (الغضار) وصناعة أكثر ارتخاء دور إحباط . على كل حال ، في المنشورات الأولية التي ينبغي الاكتفاء بها دوماً تقريباً ، نجد ذكراً لهذه الأغراض مع قليل من الصور وبدون أي عد أو إحصاء بشكل عام . هذا كله يحول دون العمل المفيد لموضوعنا ، ألا وهو ، بالنسبة لتوزع الأنواع ، إقامة تجابه بين مايُمثَّل ومايُستهلَك . تلك هي الطريقة الوحيدة لإظهار توافق أو بالعكس تباعد ذي دلالة بين الصعيد «الايديولوجي» والصعيد المادّي .

فلقد رأينا أنه يوجد تصور للأديان البدائية يجعل من إنتاجاتها الفنية ومن معتقداتها محض ترجمة على صعيد المخيال لاستراتيجيات التحصيل . هكذا ، في نظر **ينسن** ، ينتمي الحيوان «المؤلَّه» (ربّ الحيوانات» عند شعوب الصيد للنوع الأكثر صيداً ، النوع

(٢٤) Contenson 1975

(٢٥) انظر الجرد الذي أنشأناه (Cauvin J. 1972 a ص ١٢٩ - ١٣١) استناداً الى تقارير حفريات كوتنسون .

(٢٦) Moore, Hillman et Legge 1975 ، ص ٦٣ والرسم ٩ ، رقم ١٩ .

(٢٧) Cauvin J. 1972 b .

الذي يؤدي دوراً أساسياً في الحياة اليومية فتُنقل أهميته بشكل طبيعي لتوضع في الصعيد الثقافي[٢٨] .

نعلم بالحقيقة أن هذه الحالة المشهود لها أحياناً في الاتنوغرافيا لايمكن أن تُعمّم ولاأن تُنقل كما هي إلى ماقبل التاريخ مفتاحاً كلياً للتفسير . هذا النوع من الأسئلة هو مايجب على وجه التحديد أن يكون موضع بحث واستقصاء .

أمن الممكن أن نستمدّ بعض النتائج من تحقيقنا في بلاد الشام رغم غموض الوثائق ؟ أولاً الصيادون النطوفيون : فنّ الحيوان يغلب عندهم كما يمكن أن نتوقع . إنهم من جهة أخرى ، صيادو غزلان قبل كل شيء . لقد أقمنا تجابهاً بين محيطهم واستراتيجياتهم : ظهر أنه وإن كنّا أمام اقتصاد ذي «طيف عريض» يلجأ إلى موارد متنوّعة جداً ، فثمة تشوّه كان موجوداً في كل مكان تقريباً على صعيد الصيد لصالح هذا النوع الذي يبدو موضع «خيار ثقافي» . إذاً ليس أمراً بلا أهمية أن نجد الغزال بين الأنواع النادرة جداً الممثّلة في الفن ، الذي هو ، بتمامه ، في جهة الثقافة . لكن ماذا نقول عن تمثيلات الأيِّليات (مهما تكن غير مؤكدة) سوى أنها على العكس لاتعكس أية غلبة طعامية ، إذ أن بقاياها ، بدون أن تكون غائبة ، نادرة نسبياً في الحيوان المدروس ؟ ولماذا ، بعكس المراحل اللاحقة ، لانجد في الفن الخنازير (وصيدها مزدهر في عين ملاحة) ولا البقريات المستهلكة في كل مكان (وإن كانت نادرة نوعاً ما) ، شأنها شأن الأيِّليات ؟

الأسئلة ، كما يرى القارئ ، أكثر من الأجوبة . في الوضع الراهن للاكتشافات ، ثمة نتيجتان حذرتان تبدوان لنا وحدهما تبرزان من الوقائع :

- تمثيلات العالم الحيواني لاتغطي في العصر النطوفي مروحة الأنواع الحاضرة في المحيط ولاحتى مروحة الأنواع المقنوصة ؛
- دورها الغذائي ، الهامّ بالنسبة للغزال وحده ، قد لايكفي لتعليل الاصطفاءات المفعولة في مستوى الثقافة غير المادية .

التماثيل اللاحقة ، الطينية ، ليست أكثر بلاغة ، وإن كنا نلمس تغيراً يظهره تنوعٌ أكبر بكثير في الحيوانات المنقولة . لكن التحديدات موضع شبهة والسياق الايكولوجي غير معروف بشكل جيد في كثير من الأحيان ، مما يفرض عدم المجازفة والامتناع عن تأويلها .

(٢٨) Jenssen 1954

ليس الأمر كذلك بالنسبة لترتيبات العظام في تل مريبط . الجماجم الموضوعة قصْداً في مصاطب من المرحلة الثانية ، تامةً أو مُجزَّأةً على مفاصلها ، تشهد على البدايات الأولى في الشرق الأدنى ، نحو ٨٢٠٠ ق .م ، لعبادة مدعوة لمستقبل عظيم . إنها تتفرّد نسبةً إلى وثائق موقع شطلَ هويوك التالية والمشتقة منها بالتأكيد[٢٩] بكونها لاتحوي أيّ عنصر مشكّل وتقتصر على حضور الكتلة الجمجمية و/أو القرون حضوراً غير مشغول ، وايضاً بكونها غير مُدرجة في الديكور المنزلي بل هي مدفونة في الغضار ، أي أنها حاضرة في الريازات لكنها غير مرئية . إن إضافة ألواح الكتف كان لها معنى ، بدون أن نميّز بوضوح ما إذا كانت ألواح كتف الحمير المضافة إلى ألواح كتف البقر تصطفى على أساس شكلها المماثل أو من أجل ضم نوع حيوانيّ ثان إلى عبادة الثور .

والحال ، إن هذه العبادة ، التي هي الشهادة الوحيدة في مريبط على علاقة نفعية مع المملكة الحيوانية ، يمكن أن نجابهها بنتائج علم الحيوان الآثاري . لقد رأينا ، حسب دوكو ، أن المجترات الصغيرة ولاسيما الغزال هي الغالبة في المرحلة الثانية بشكل واسع ، كما كانت غالبة في نطوفي أبو هريرة . البقر حاضر ، لكنْ نادر ، مع بضع أيّليات وخنازير . ثم المرحلة الثالثة A، مع قرون البنية رقم ٤٧، هي العصر الذي يبدأ فيه صعود نسبي للبقر الوحشي ، الذي لن يبلغ إلاّ في الثالثة B (نحو ٧٧٠٠ ق .م) كيانه كطريدة مفضّلة جنباً إلى جنب مع حمار الوحش .

إذاً من المثبّت ، بطبقات الآثار ، أن الثور (وربما الحمار) لعبا بالأصل دوراً أوّلياً في إيديولوجية قرويّي المريبط قبل تظاهر هذه الغلبة في الممارسات الطعامية أيضاً . هذه واقعة لايستطيع أي اعتبار نظري أن يحذف منها شيئاً ، لكنها تستطيع بالمقابل أن تلعب دوراً فارقاً بين التعليلات المقدَّمة عن عبادات ماقبل التاريخ ، بل وعن أصول أو منشأ التدجين .

إن النظريات التي تعتبر الدين انعكاساً مجوَّناً (مُبطَّنا) لوضعيات اقتصادية تجد نفسها منحّاة في الحالة التي أمامنا . إن أسباباً أخرى ، غير تآلف صيْديّ استثنائي ، أو بالأحرى والأقوى غير بداية تربية للحيوان ، قد ساهمت في إعطاء الثور كيانه الخاص في منظومة

(٢٩) Mellaert 1967 . في التقليد نفسه وُجدت جمجمة ثور في سورية ذاتها على يد Mallowan 1946 في خلفيّ تلّ الأسود (الفرات) .

الفكر في الألف التاسع[٣٠] . إن مسألتي إيزاك[٣١] وريد[٣٢] عن أصل ديني محتمل للتدجين تتخذ ، بالمقابل ، بروزاً جديداً .

فتربية الحيوان تُدرك ، على نحو عام ، كما رأينا ، كأنها امتدادٌ أكثر تحسيناً للممارسات شتى يقوم فيها رابط وثيق بين الزمرة البشرية ونوع حيواني . وليست القضية عندئذ ، في ذهن الباحثين ، سوى «صيد اصطفائي» قد تتظاهر فيه ثقافة الزمرة عن طريق هذا الخيار ، لكن بدون أن يتصوروا غائية هذا الخيار ذاتها على نحو آخر غير تلبية حاجة طعامية .

مع أن إيزاك وريد تساءلا ماإذا لم يكن هناك في منشأ الاهتمام البشري بالثور الوحشي شيءٌ آخر غير هذا الهدف الافتراسي ، أيْ موقفٌ دينيّ ما ، مبني على الخوف والإعجاب اللذين يثيرهما هذا الحيوان ، وهي مشاعر توحي بهما وعلى نحو عالٍ الإيقونوغرافيا المذهلة المكتشفة في موقع **شطل هُيُك** . وبالتالي فإن التسلسل التاريخي المقترح ينطلق من علاقة طقسيّة (تضحيات ؟) في البداية ، أي غير نفعيّة ، بين الانسان والحيوان ، لينتهي شيئاً فشيئاً إلى استهلاك عاديّ أكثر وليشجع التدجين أو التأهيل .

هذا الذي لم يكن عند ريد سوى فرضية قد يجد نفسه معزَّزاً باكتشافات تل مريبط ، وذلك ببساطة لأن دراسة طبقات التل حملت معها الدليل على أن الثور الوحشي كان يسكن نفسيّة البشر قبل سيادته على بقايا المطبخ بكثير . يتبيّن أن «المشهد» الثور ، في عصر مازال فيه القبض عليه حدثاً نادراً نظراً لعدم وجود تقنيات مناسبة لاريب ، كان كافياً لِيُنتج على الزمرة البشرية انطباعاً قوياً بحيث يدفع ثقافة الزمرة إلى تكريسه (تقديسه) في مكانة رفيعة . طبيعة هذا الانطباع جلية إلى حد كاف[٣٣] . لكن الأمر الذي يهمنا هنا هو أنه يصبّ ، في زمن ثانٍ ، على استراتيجية صيد ، أي على تقنيات جديدة تتيح التملّك الغذائي الكبير للحيوان الذي كان في أمس قريب موضع احترام وتقديس ، من على بُعد . إلى أي حد خلق هذا الاحترام ، الفاعلُ كتحدّ هاجسيّ وكدعوة إلى السيطرة

(٣٠) انطرحت المسألة فعلياً ، في مرحلة متأخرة أكثر (الألفان السابع ـ السادس) بالنسبة لموقع **شطل هُيُك** ، حيث كانت موضوعة الثور التمثيلية تتطابق مع أهمية كبيرة للبقريات في الاقتصاد . انظر Reed 1969 ، ص ٣٧٣ .

(٣١) Isaac 1962

(٣٢) Reed 1969

(٣٣) انظر الضخامة «السوريالية» للحيوان في رسوم **شطل هُيُك** الجدارية ، في العصر التاريخي ، مماثلته مع حَدَد ، إله العاصفة والحرب عند الفينيقيين ، بوصفه قوّةً ذكورية كاسحة .

على الخوف ، خلق شروطاً سيكولوجية ملائمة لبزوغ هذه «المطاردة للبقر» ، بل لتأهيل لاحق[٣٤] ، ذلكم هو السؤال الذي يجب أن يطرح . عندئذٍ نفترض في أصل هذه السلوكات الطعامية نموذج بواعث يكون إلى ميدان الباليو سيكولوجيا أقرب ولم تجرِ العادة على استحضاره في هكذا حال . يجب أن نستأنف هذه النقطة في إطار مناقشة أعمّ .

قلّما نصادف ، خارج جماجم مريبط البقرية ، وثائق على مايكفي من الوضوح والتحديد لدفع معرفتنا لهذه الآليات إلى الأمام لنذكّر مع ذلك بأن حيوانات الخيام ١ ـ ٢ تقدّم في العصر النيوليتي السابق للفخار B تشوّهات في طبقات الأعمار تناضل إلى حد كافٍ ، هي أيضاً ، في اتجاه فرضيات ريد . بالفعل ليس أمراً محايداً أن نصادف ، في العصر نفسه الذي يبدأ فيه تأهيل العنزة في فلسطين ، تشوّهات آنتي ـ اقتصادية لدرجة لم يكن معها بالإمكان تعليلها إلاّ باللجوء إلى شواغل دينيّة .

تمثيل الانسان

هنا سنجمع في زمر ، الوثائقَ التي من شأنها أن تكشف كيف الانسان يدرك ذاتياً نوعه الخاص ذاته . سبيلا الوصول المفتوحان لنا عيانياً هما من جهة استعمالُه لِ «الشكل البشري» في تمثيلاته الفنية ، ومن جهة أخرى هذا الذي يكشف الطريقة التي يعامل بها أقرانه بعد موتهم . سنتناول إذاً ، تباعاً ، التماثيل الانسانية الشكل ومعالجة الهياكل البشرية .

التماثيل

قلّما يمثّل الصيادون أقرانهم ، ففنّ هذه الشعوب تمثيل لحيوانات بالدرجة الأولى . هذا لايمنع أن الشكل الانساني حاضر منذ التجليات الفنية الأولى ، سواء في «فينوسات» «(زُهرات») الباليوليتي أو في بعض كهوف الفن الفرانكو ـ كانتابري المرسومة أو المحفورة . في الشرق الأدنى ، لم يسفر العصر النطوفي إلاّ عن قلة قليلة من التماثيل الانسانية ،

(٣٤) بما أن هذا الكتاب قيد الطبع ، يذكر Ducos 1978 ، بعد دراسة حيوان المرحلة الرابعة من مريبط ، ما يشير الى «بداية تأهيل» للبقر . هذا من شأنه أن يثبت السيرورة المقترحة هنا وأن يطرح في الوقت نفسه مسألة أخرى : لماذا لم يستمر في هذا الطريق خلفاء مريبط الرابعة المباشرون في أبو هريرة ، مع أن محيطهم مماثل ، ولماذا ليس عندهم كحيوانات أهلية سوى مجترات صغيرة ؟

جميعها من الحجر : رأس صغير تخطيطي في إلواد (الرسم ٢٢ ، رقم ٤) ، تمثال صغير «إيروتي» («جنسيّ») في عين صخري (الرسم ٢٣) يمثل زوجاً بشرياً يتعانق في وضع جالس ، وتمثال شخصي في عين ملاحة (الرسم ٢٢ ، رقم ٢) بلا رأس ولاأطراف[٣٥] . معناها الدقيق يفلت منا بالنسبة للأول والثالث . أما الثاني ، التمثال الغزلي ، فهو يعني أن الفعل الجنسي كان يحمّل على الأرجح قيمةً «نوريّة ـ قدسيّة» ، وهذا شيء عاديّ جداً في المجتمعات العتيقة ، أي القديمة السابقة للعصور الكلاسيكية[٣٦] .

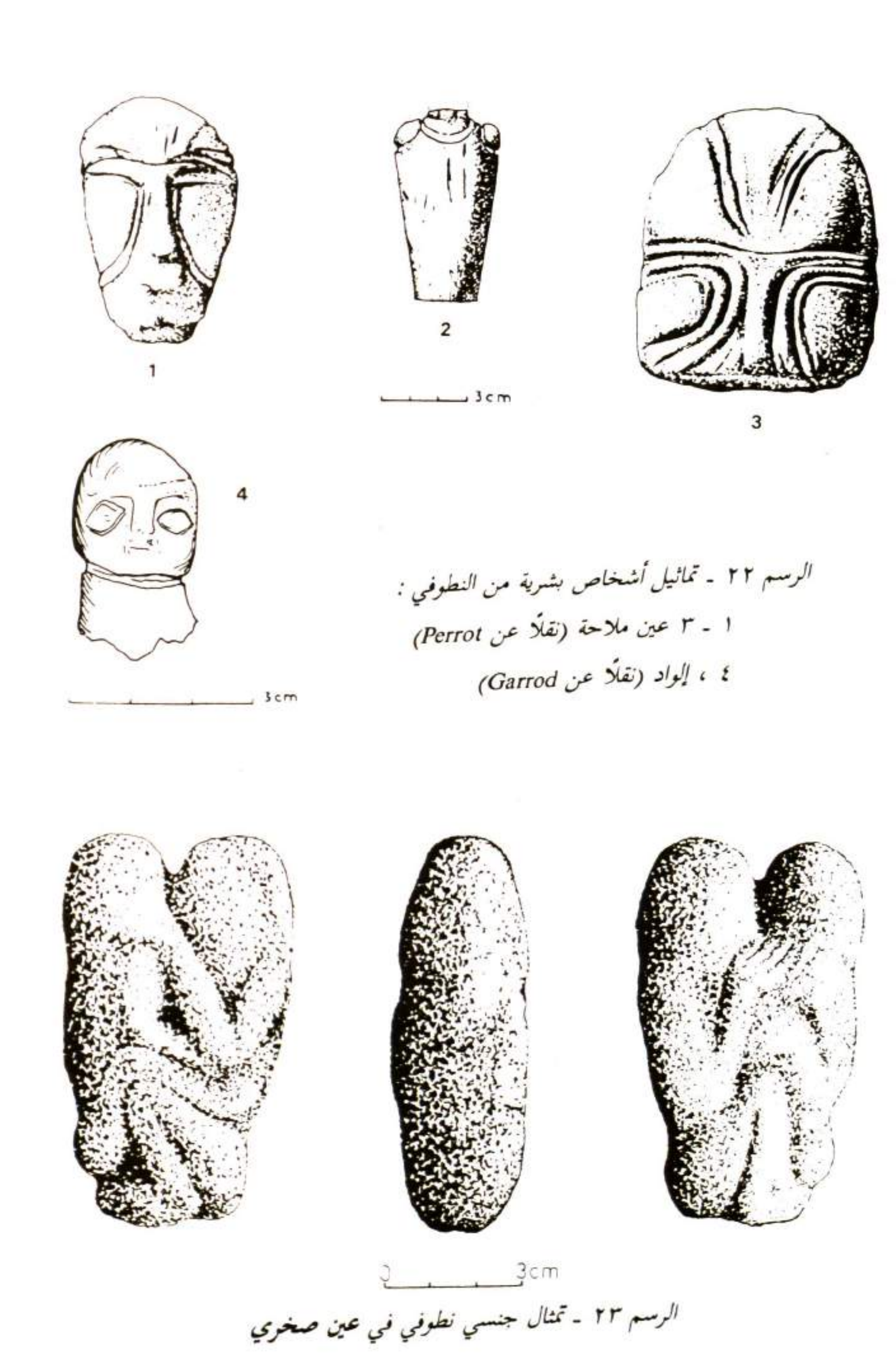
بالنسبة لأواخر الألف التاسع ، يوجد تمثيل واحد إنساني على الأرجح : إنه تمثال صغير حجري في مريبط الثانية ، مجزوع لسوء الحظ (الرسم ٢٤ ، رقم ٢) ، يمكن أن نضيف إليه راس غير أكيد من الطين النيئ (رقم ١) . إذاً ، لايوجد حتى نحو سنة ٨٠٠٠ ق .م أيّ شيء يمكن أن نتعرف فيه على التمثيلات النسائية التي ستكثر فيما بعد .

هذه تظهر لأول مرة في مطلع الألف الثامن في منطقة الفرات ، مريبط الثالثة A، في شكل تماثيل صغيرة من الحجر وتماثيل أشخاص من الطين المشوي .

بلاستكياً ، باتت طريقة معالجة هذا الموضوع منوّة من الآن . نجد تمثيلاً كاملاً وواقعياً لجسد المرأة مع إشارة إلى عضوها بشقّ والذراعان معادان على الصدر تحت الثديين وإلحاح ما في تشكيل منطقة الأرداف : هذا مشترك لتمثالين ، أحدهما من الطين المشوي (الرسم ٢٥ ، رقم ٤) والآخر من الحجر (الرسم ٢٦ ، رقم١) . هذا الإلحاح واضح بشكل خاص في التمثال الطيني حيث الأرداف ، التي شُكّلت على حدة ، قد أُضيفت في نهاية العملية ، وأحد الردفين انفصل عن الجسم فيما بعد . إن تمثالاً طينياً آخر (الرسم ٢٥ ، رقم ٢) ليس فيه سوى الرأس والصدر ، أمّا القاعدة فقد تحطّمت . الرقم ١ تصوير تصغيري ، تخطيطي إذن ، لشخص نسوي جالس ، عريض القاعدة ، وهذا النموذج النمطي سوف يرى في مقابل فخّار تلِ شايونو وغيره من المواقع . الرقم ٥ ، المبسّط جداً كذلك ، هو النموذج الوحيد الذي ليس فيه أيّ ملمح جنسي صريح ، أوّلي أو ثانوي . الشكل العام ضيّق ومخروطي . لكن جدعتي الرجلين الخارجيتين من القاعدة أفقياً ، تبدوان تذكيراً بالوضع الجالس . نجدها أيضاً على تمثال صغير حجري (رقم ٣) ، مخروطي هو أيضاً أشير

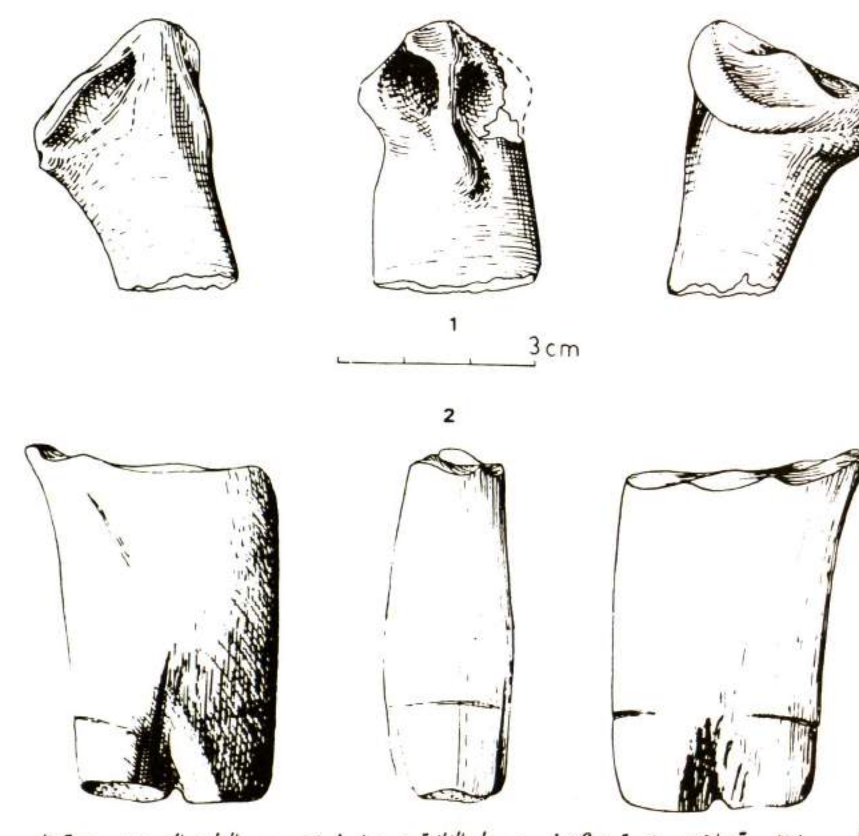
(٣٥) غرضا عين ملاحة الآخران ، تخطيطيان تماماً (الرسم ٢٢ ، رقم ١ ، ٣) وقد يكونان أيضاً ، حسب Perrot 1966 a ، من الرؤوس البشرية .

(٣٦) أراد البعض ان يرى ، في إلواد ، رموزاً جنسية أخرى في أنواط ذات قصّين من العظم وفي مِدَق من البازلت ، لكن هذه الأغراض بعيدة عن التصويريّة بحيث ان التأويل الآنف ليس بدهياً .



الرسم ٢٢ ـ تماثيل أشخاص بشرية من النطوفي :
١ ـ ٣ عين ملاحة (نقلاً عن Perrot)
٤ ، إلواد (نقلاً عن Garrod)

الرسم ٢٣ ـ تمثال جنسي نطوفي في عين صخري

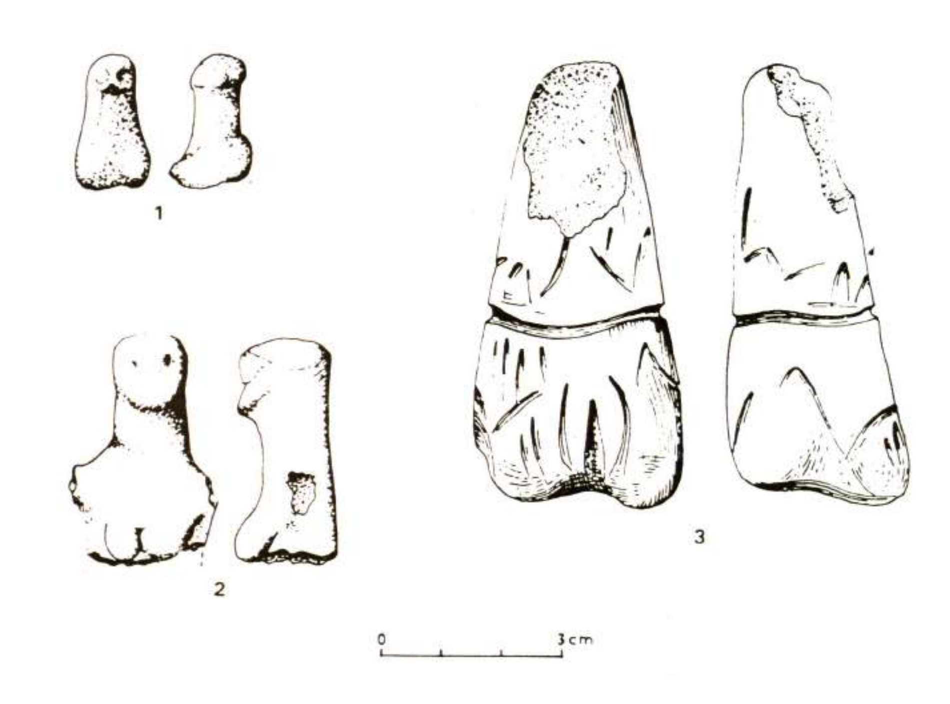


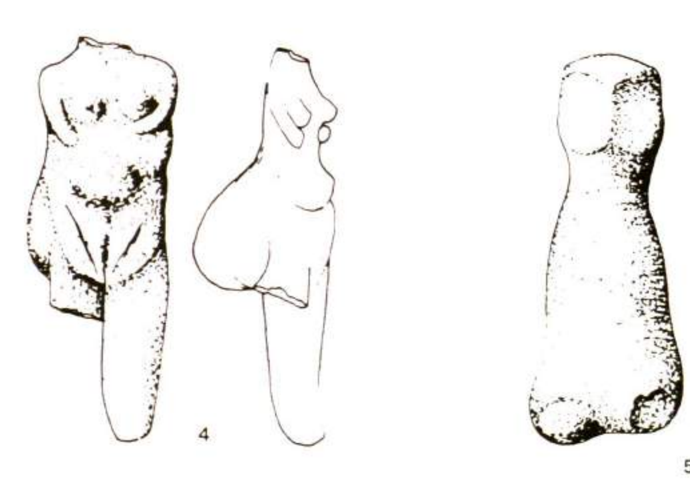
الرسم ٢٤ ـ تمثيلات بشرية (؟) في مريبط الثانية : ١، شخص من الطين النيىء ؛ ٢، تمثال صغير من الحجر الكلسي

فيه إلى الجنس إشارة واضحة عن طريق شقوق . أخيراً ، على غرض اخير (الرسم ٢٦ ، رقم٢) من الحجر الكلسي الليّن المنحوت بالصوان ، يظهر رأس ، بارز ، مفصول عن الباقي بخط أفقي ، لكن المحيط العام وهو كلْويّ .

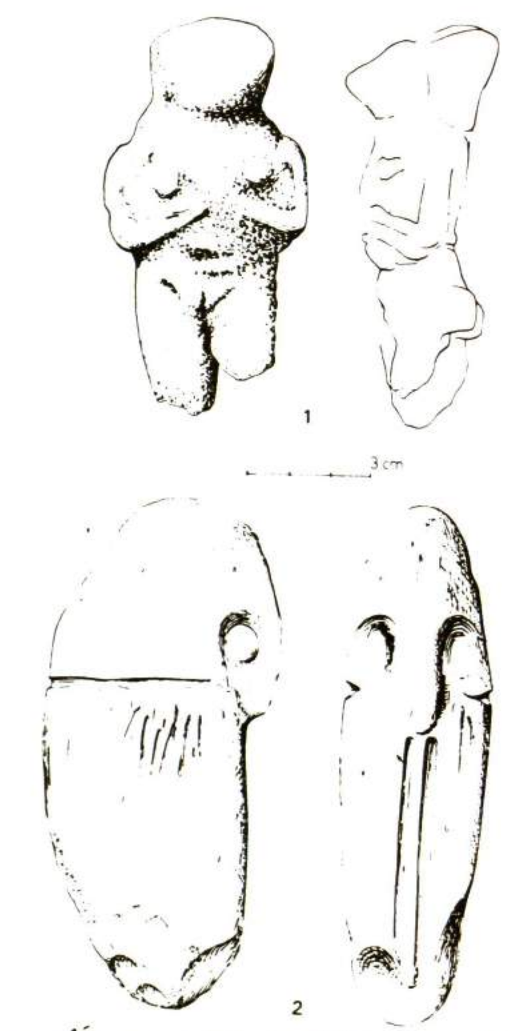
الشكل إلى حد ما ، والشقوق الطولانية العميقة في الجهة الأمامية ، لاتستحضر أي واقع طبيعي : بل ليس من المؤكد ، أننا هنا أمام تمثيل الانسان .

ثم ستتظاهر التشخيصات النسائية ، في العصر التالي مباشرة (أواخر الألف الثامن) ، في المنطقتين المتاخمتين للفرات الأوسط . من جهة ، الفرات الأعلى في تركيا : وثيقة





الرسم ٢٥ ـ تمثيلات نسائية في مريبط الثالثة : ١ ـ ٢ ، ٤ ـ ٥ من الطين المشوي ؛ ٣ ، من الحجر الكلسي



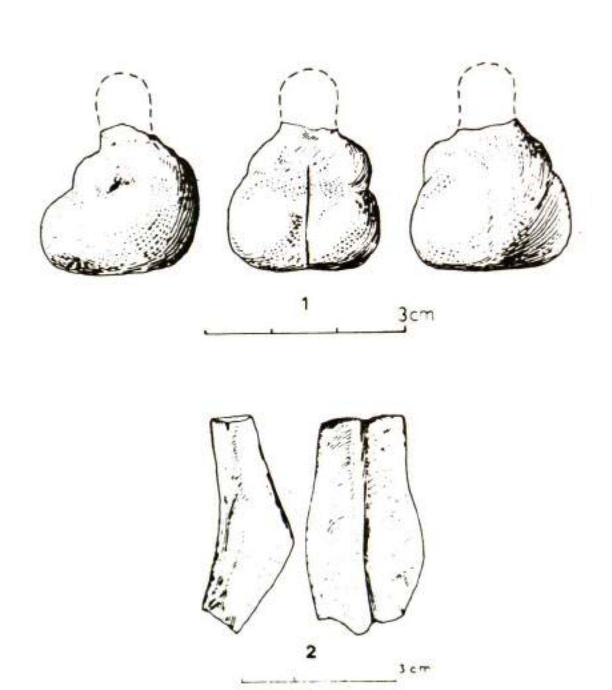
الرسم ٢٦ ـ تماثيل من الحجر من مريبط الثالثة : ١ ، تمثال نسوي من الكَلسيت ؛ ٢ ، تمثال من الحجر الكلس .

شايونو التي سبق أن ذكرناها ، ومن جهة أخرى غوطة دمشق ، مع تماثيل الطين المشوي في أسود الثانية[٣٧] . هذه «الأشخاص» تظهر كما في المريبط في شكلي الطبيعة أو

(٣٧) Contenson 1972 . أوضح لنا كونتنسون ان التماثيل النسائية تأتي فعلاً من **أسود** الثانية .

الرسم ٢٧ - تماثيل نسوية من الطين المشوي في أسود الثانية . صَوَر كونتنسون)

التخطيط : الأشخاص الطبيعية (الرسم٢٧ ، رقم ١ ، ٣) ، في وضع جالس ، تلحّ على غزارة الحجوم أكثر منها في المريبط أيضاً ، أما الترجمات التخطيطية (رقم ٢) فتبدو ، كما في المريبط أحياناً ، مكتفية بتأمين جلوس الشخص - التمثال بقولبة مقتضبة للفخذين أفقياً وتتويج المجموع برأس مبسَّط . كونتنسون يذكر ايضاً قطعاً عديدة في شكل «قضيبيّات» أو بيادق يفلت منا معناها الممكن ، التلميحي البعيد .



الرسم ٢٨ - شخص نسوي من الطين النيئ (١) في البيضا - النيوليتي ماقبل الفخار B (حسب Kirkbride) ، وتمثال من حجر الكلس (٢) في الخيام (حسب Lehgaray)

النيوليتي السابق للفخار B القديم هو أيضاً عصر ظهور الموضوع نفسه في فلسطين[٣٨] بأسلوب يختلف بعض الشيء من مرة إلى أخرى : يُذكر شخصان من الطين في أريحا[٣٩] ، واحد في البيضا (الرسم ٢٨، رقم ١) ، والأخر من الحجر ، مشكوك فيه أكثر ، في الخيام (رقم ٢) . الثلاثة الأولى تشترك في الإلحاح على منطقة الوركين ، وبالنسبة لأريحا ، الحركة التقليدية التي تعيد الذراعين على الصدر[٤٠] .

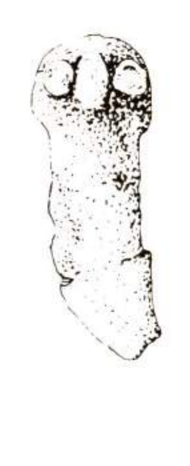
منحطّة ماقبل الفخار تتبدى حالة على حدة : ليس فيها سوى شخوص نحيلة بشكل قضيبيات من الطين النيئ مسحوقة عند القاعدة لتأمين بقائها واقفة ، مع رأس بشكل

(٣٨) علماً بان تمثالاً صغيراً من الحجر ، جد تخطيطي ، في وادي الفلاح [Stekelis et Yisraely 1963) ، قد يكون من تباشير الموضوع في الحقبة السابقة .

(٣٩) Kenyon 1975 ، اللوحة ١٩ .

(٤٠) المرجع المذكور ، ص ٥٩ .







الرسم ٢٩ - أشخاص من الطين النيء في المنحطة ٦ - ٣ (صور Perrot)

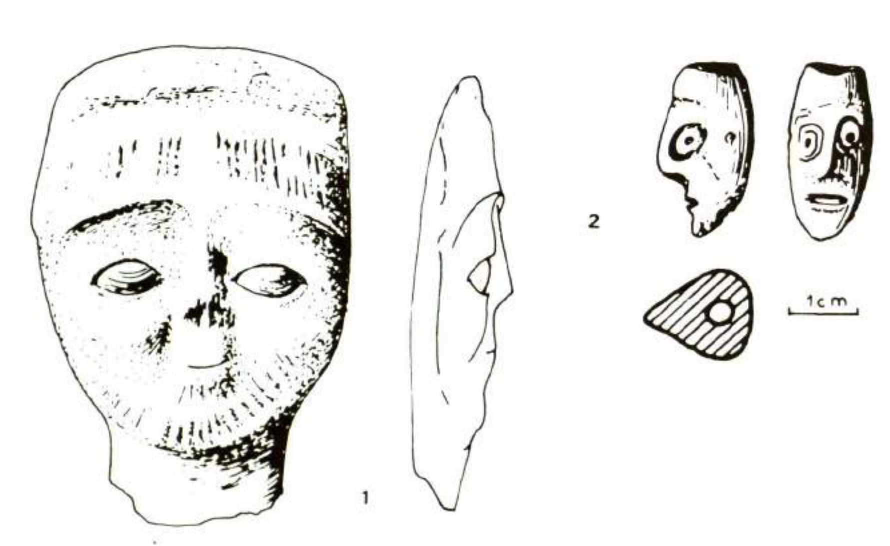
قرص جرى تسطيحه وعُيّن فيه العينان والأنف بأقراص (الرسم ٢٩) . أحياناً عُيّن العضو الجنسي ، وهو مؤنث ، أو في بعض الحالات مذكّر[٤١] . كذلك في المستويات العليا من النيوليتي السابق للفخار B بأريحا[٤٢] ، تظهر «تماثيل» حقيقية مقولبة بالغضار النيء على مساند من القصب . وقد عثر غارستانغ[٤٣] على رأس أحدها واعتبره مذكراً بسبب الخطوط المخضّبة بالمغرة حول الذقن والتي تمثّل اللحية على مايبدو (الرسم ٣٠، رقم ١) . لعل شكله القرصي تذكير أسلوبي بالتسطيح نفسه الملاحظ على شخوص المنحطة من الجنسين .

أخيراً ، إن التمثيل الانساني الوحيد الذي اعطاه الفرات عن هذه الحقبة ، وهو نوط من الحجر في مريبط الرابعة B (الرسم ٣٠، رقم ٢) ، يمثل كذلك راساً ذكرياً ملتحياً يتراءى بالتالي إن التمثيلات الذكرية الأولى تنضم ، نحو ٧٠٠٠ ق.م ، إلى الشخوص النسوية التي مازالت غالبة تماماً .

(٤١) Perrot 1967 . نسب أشخاص الجنسين مجهولة .

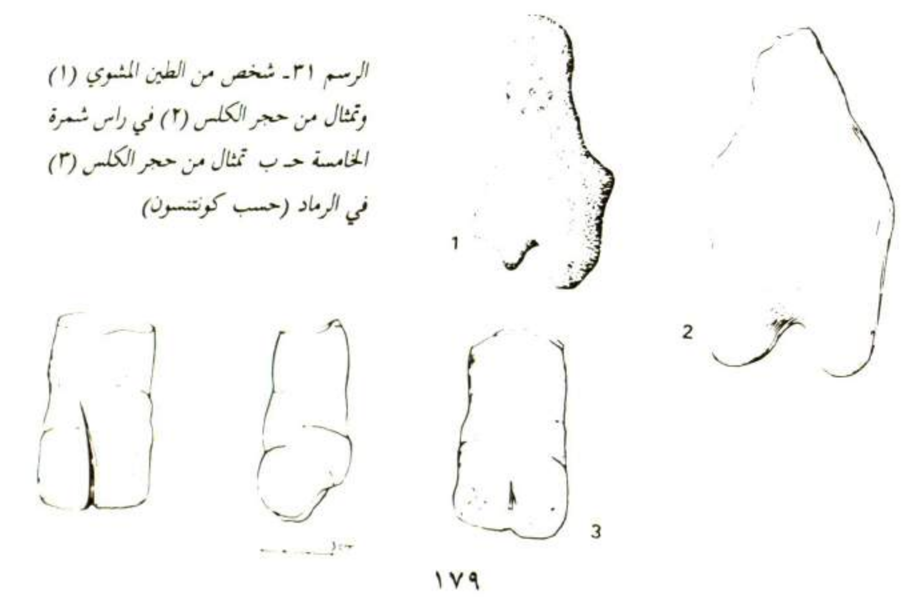
(٤٢) Kenyon 1960 ، ص ٥٤ .

(٤٣) Garstang et Garstang 1940 ، ص ٥٧ - ٥٨ .



الرسم ٣٠ - راس تمثال في أريحا النيوليتي السابق للفخار B(١) ونوط من الحجر في مريبط الرابعة(٢)

هذه الأخيرة نجدها من جديد وحيدة في النيوليتي ماقبل الفخار ، الحديث ، وقد بلغت الساحل السوري في تمثالين - شخصيين مثلّثيين «جالسين» شديدي التخطيط في راس شمرة الخامسة حـ ، e ، (الرسم ٣١، رقم ١ - ٢) ، وهي حاضرة كذلك في تل رماد : قطعة حجرية مكسورة (رقم ٣) ، ذات أسلوب فني أكثر واقعية .



الرسم ٣١- شخص من الطين المشوي (١) وتمثال من حجر الكلس (٢) في راس شمرة الخامسة حـ ب تمثال من حجر الكلس (٣) في الرماد (حسب كونتنسون)

معالجة الهياكل البشرية و «عبادة الجماجم»

لن نسهب عن المدافن ذاتها ، فقد كانت موضوعاً لدراسات مستفيضة . في النطوفي[٤٤] ، حيث شمل التنقيب حوالي مئة من المدافن بالكهوف وبالقرى ، تلاحظ ممارسات متنوعة تذهب من الدفن الأوّلي الدرجة ، الفردي أو الجماعي ، حتى الدفن الثانوي ، وهو جماعي بوجه عام . توجد المدافن وسط حيّز السكن : إنها حفر مقتضبة الإعداد ، مليّسة بالطين أحياناً (عين ملاحة) ؛ وأحياناً مكسوة ببلاطات (ملاحة ، عرق الأحمر) ، أو بحجر مسطّح وحيد ، او ببضعة بلوكات أو ببلاط منقوب (وادي الفلاح) . لاشيء دائم في المدفن الفردي ، لاوضع الجسم (المحني في الغالب) ولااتجاهه . في مدافن «الدرجة الثانية» ، الجمجمة هي الجزء المدفون ثانية ، لكن تصحبه عناصر أخرى من الهيكل العظمي ، دوماً تقريباً . وحده يشذ قبر عرق الأحمر الجماعي : فرد وحيد كامل ، وستة آخرون ممثلون بجماجمهم فقط .

في الحقبة التالية ، الألف الثامن ، يبدأ حقاً تكوّن هذا الذي سوف يكون «عبادة الجماجم» . ففي اريحا النيوليتي السابق للفخار A، وجد كنيون[٤٥] عدّة مستودعات لجماجم : في إحدى الحالات ، كانت الجماجم «مرتبة في شكل دائرة ، وتنظر نحو الداخل» ، في حالة أخرى كانت تؤلف «ثلاث زمر من ثلاث جماجم تنظر في نفس الاتجاه» . وكان مستودع ثالث لايضم ، إلى جانب مدفن ولد بكامله ، سوى جماجم أولاد . كانت المستودعات موجودة «تحت بنية طينية حوضية الشكل مثيرة للفضول» . إذاً فهذه «المستودعات» تبدو فعلاً قد دُفنت بالأصل .

أعطى الفرات ، عن نفس العصر ، وثائق مشابهة . لايوجد في مريبط الثالثة A سوى مدفنين ، كلاهما «ثانويان» : أحدهما كان ، داخل البيت المستدير رقم ٢٢ وتحت موقد في شكل حوض مليّس بالغضار ومليء بالرماد ، مدفناً لجمجمة نسوية[٤٦] تصحبها عظام الأطراف بدون نهاياتها ؛ والآخر في المستوى نفسه لكن خارج البيت كان يحوي تكملة الأول الظاهرة ، أي القفص الصدري مع لوحي الكتفين ، والحوض وعظام

(٤٤) Valla 1975 .

(٤٥) Kenyan 1957 ، ص ٧٢

(٤٦) حسب M. Ozbek الذي درس الهيكل العظمي .

النهايات[٤٧] . إذاً ليس ثمة هنا سوى مدافن «ثانية الدرجة» من التقليد النطوفي ، وأهميتها آتية فقط من يقيننا أننا إزاء دفن قصْدي داخل بيت .

لم يعثر على مدفن في مريبط الثالثة B. لكن شيخ حسن المعاصر لها أعطى مدافن : مدافن أولية (أحدهما يضم راشداً وطفلاً) ومستودع فيه ثلاث جماجم بدون أية عظام أخرى[٤٨] .

إذاً فإلى الألف الثامن وقبل سنة ٧٥٠٠ تعود في بلاد الشام عادةُ فصل الجماجم عن الهياكل بغية استعمال خاص ، هو على الأرجح إعادة دفن بنفس روح المدافن «الثانية» النطوفية ، لكن مع اصطفاء متقدم أكثر للجزء المعاد دفنه مادام يتحدّد أكثر في الجزء الراسي وحده الذي أضحت هيبته الرمزية واضحة منذ ذلك الحين .

مايتراءى بعد ٧٥٠٠ يبدو مختلفاً . في المرحلة الرابعة B من مريبط ، توجد بآن معاً قبور فردية وجماجم منفردة (الرسم ١٣) . الهياكل الكاملة مدفونة في حفر تحت أرض السكن ؛ بالمقابل ، ليست الجماجم المكتشفة مجموعة بل مرتبة على الأرض نفسها بمحاذاة الجدران وكل منها قاعد على تلعة من الطين الأحمر المكمّل[٤٩] . إذاً لم تكن تُدفن ، بل كانت مرئية لسكان البيت كضرب من أثاث طقسي .

الأمر كذلك على الأرجح في أريحا النيوليتي السابق للفخار B[٥٠] ، وإن كانت المعطيات أقل وضوحاً هنا . وُجدت عمليات دفن أولية جماعية تحت أرضيات بيوت ، والظاهر أن هذه الأرضيات لاحقة لعمليات الدفن ولاعلاقة لها بها . بعض الهياكل بلا رؤوس ، والتدخل الثاني الهادف إلى جمع الجماجم خرّب بعض الشيء ترتيب الهياكل نفسها ؛ الفك الأسفل حاضر في كثير من الأحيان بخلاف الجمجمة التي نُزعت ؛ بعض الترابطات المحفوظة في الهيكل تبيّن أن هذا التدخل حصل بعد الدفن الأول بزمن قصير الأمر الذي مكّن الأربطة العظمية من إبقاء هذه الترابطات رغم اختلال المجموع .

(٤٧) كان القبر يحتوي أيضاً على قضيب من الحجر المصقول (الرسم ١٨ ، رقم ٢) . لا ريب ان الدراسة الانتروبولوجية ستقول ما اذا كان محتوى القبرين يعود فعلاً لفرد واحد .

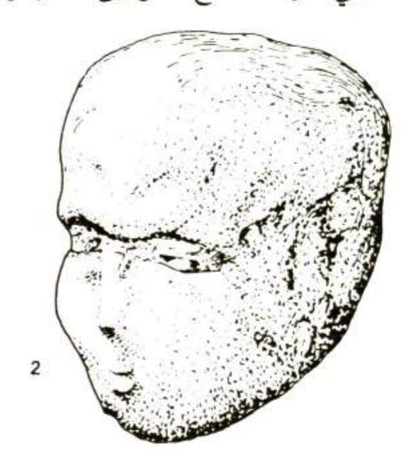
(٤٨) وجدت داخل مستودع فيه رمادٌ (موقد؟) مؤرخ جيداً من حيث معدّاته لكنه قريب جداً من السطح ولا يمكن ان نموقعه وظيفياً في بنية ولا بالنسبة الى مساحة سكنية .

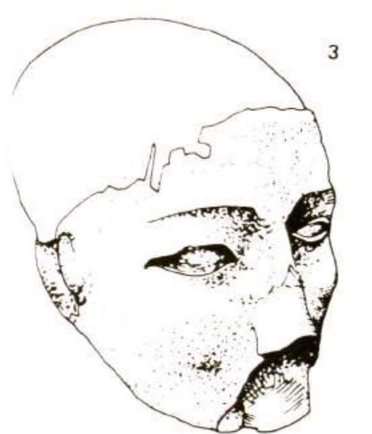
(٤٩) Cauvin J. (b) ، يصدر لاحقاً . بعض الصلصال الأحمر يخدم أيضاً كوسادة . المدفون التام يرتاح على خدّه الأيمن ، بينما الجماجم المنفصلة واقفة عمودياً فوق التلعات . المساند .

(٥٠) Kenyon 1975 ، ص ٦٣ ؛ Cornwall 1956 .

أما الجماجم نفسها ، المحشوة بالطين ، فهي تبدي خاصية مرموقة ، ألا وهي أن الوجه قد أعيد تشكيله ، بنوع من المعجون أو الجصّ الغضاري ، على هيئة وجه الحيّ وذلك بطريقة اعتبرها كنيون فردية وواقعية جداً[٥١] واعتبرها ستروهال اتفاقية واصطلاحية[٥٢] . العيون ممثلة بقواقع ، ذات صِمامين (الرسم ٣٢ ، رقم٣) أو أصداف «غوري» (رقم ١) . الوجوه يمكن أن تصبغ بلون يذكّر بلون بشرة الانسان ؛ أما قلنسوة الجمجمة فغير مطلية . إلاّ أن إحدى الجماجم كانت تحمل في قمتها أشرطة من الصباغ البني ، وهذا تلميح ممكن إلى الشعر أو إلى تصفيفة شعر .







الرسم ٣٢ ـ جماجم مقولبة في أريحا النيوليتي السابق للفخار B (حسب Kenyon)

(٥١) Kenyon 1957 ، ص ٦٢ .

(٥٢) Strouhal 1973 .

وُجدت هذه الجماجم مجموعة : سبع في «مستودع» واثنتان في غرفة متاخمة من نفس البيت . ترتيبها الأصلي لم يوضّح لأنها أُخرجت من بين أنقاض بيت مهدوم غطتها أرض عمارة لاحقة . إلاّ أن الشغل الفني الذي حظيت به يحوّلها إلى «تمثيلات» حقيقية ، بقصد إظهارها على الأرجح .

يُفترض أن ممارسات شبيهة كانت موجودة في البيضا ، وإن لم يُعثر على الجماجم نفسها التي يرجّح أن السكان حملوها معهم حين ارتحلوا من الموقع . لكن أصاب التنقيب حوالي أربعين مدفناً ، معظمها لأطفال ، وهي مدافن فردية ، نادراً ثنائية وثلاثية ، مورست في خرائب البيوت المهجورة . كثيراً مايُعثر على مدافن الكبار واليافعين بدون جماجم : إن ملاحظات دقيقة[٥٣] لفقرات العنق التي مازالت في مكانها ، مقلوبة أحياناً ، ترجّح أن الجماجم فُصلت بعملية لي ماهرة ولم تُبتر بتراً[٥٤] .

في النيوليتي السابق للفخار B ، استمرت هذه الأعراف كما يتبيّن من وثائق بيسمون وأبو غوش والرماد . في بيسمون ، عدا عن مدفنين جماعيين ، مع هياكل بلا جماجم ، عُثر على جمجمتين مدفونتين في غرفة ـ مدخل البيت الذي وصفناه آنفاً[٥٥] . على إحداها ، وهي محفوظة جيداً ، الفَك حاضر لكن بلا أسنان ، فالأسنان نزعت بعد الموت قبل القولبة . في كل من العينين وضعت «عدسة من الجصّ» . الطلاء الذي يرسم الوجه ، موسعاً إياه صنعياً بالتسميك يتواصل على رأس الجمجمة بطبقة رقيقة .

أبو غوش[٥٦] ، كالبيضا ، لم يعط جماجم بل هيكلين منزوعي الرأس ، في وضع مثنيّ ، والفك الأسفل حاضر كما في أريحا .

في الرماد أخيراً وُجدت جماجم عديدة مقولبة في المستويين الأوّل والثاني . هذه الجماجم مطلية هنا بالكلس كما في بيسمون على الأرجح . القولبة شملت أيضاً الفكّ ، الذين نزعت منه الأسنان الأمامية[٥٧] ، وتواصلت ببداية عنق (الرسم ٣٣) . عُيّنت العينان بكلس أصفر . كان أحد المستودعات يحوي حوالي ١٢ من هذه الجماجم ، صُبغت

(٥٣) Kirkbride 1966

(٥٤) ملاحظة مشابهة كان قد أجراها غارستانغ (Garstang et Garstang 1940) في أريحا : هيكلان بلا رأس حُصل عليهما بكسر الرقبة بواسطة تدوير الرأس بقوّة .

(٥٥) انظر أنفاً ، الفصل الرابع ، عند الحاشية ٦٩ . Ferembach et Lechevallier 1969 . الطلاء المقولب وصف بأنه «جصّ» ؛ لا ريب انه كلس .

(٥٦) Dollfus et Lechevallier 1969 ، ص ٢٨١ .

(٥٧) Ferembach 1970 .

بالمغرة ، مرتّبة داخل فجوة بيضويّة تحدّها قطع من الآجر النيئ ، ووعاءً كلسياً خشناً . بينها وُجدت تماثيل صغيرة بشرية الشبه مصنوعة من الصلصال (الرسم ٣٣، رقم ٣) ، ارتفاعها ٢٠ سم ، في وضع جالس ، «رأسها» اختُصر في «انتفاخ» عند القمة المسطّحة[٥٨] حيث كان يندرج عنق الجماجم المطلية الأسطواني . فالتماثيل المذكورة كانت ركائز للجماجم .

الرسم ٣٣ ـ جماجم مقولبة (١ ـ ٢) ومسند إنساني الشبه من الصلصال (٣) في تل الرماد (صور Contenson).

وُجد مستودع آخر ، فيه أيضاً تماثيل ، في حفرة داخل كوخ مستدير من المستوى الأوّل .

قد تبدو هذه الإشارات المختلفة عن تل الرماد متناقضة : الجماجم كانت تحفظ داخل

(٥٨) Contenson 1967 ، ص ٢١ .

البيوت ، لكنها من جهة مكدّسة في حفر ، ومن جهة أخرى مشتركة مع قواعد بشرية الشبه مخصّصة ظاهراً لإسنادها لكن من الجلي أنها ليست ، كما تكتشف ، في وضعية وظيفية (بخلاف التلعات ـ المساند في مريبط الرابعة) يمكن أن نفترض ببساطة أن هذه «المستودعات» ، المجموعة والمغروزة في الأرض ، ليست حصرية ونافية لفكرة العرض المفترضة في القواعد ، إذا ماافترضنا بقاءها مفتوحة بحيث يمكن إخراج الجماجم منها في بعض الظروف .

على الفرات أخيراً ، تبدو طقوس الدفن في أبو هريرة لوحة أكثر غموضاً . على الرغم من وجود ممارسات قطع الرأس بعد الوفاة هنا أيضاً ، يشير المنقّب[٥٩] إلى مدافن بحفر قليلة العمق تحت البيوت أو في الباحات ، ونجد في عدادها إما عمليات دفن بسيطة ، ينقصها أحياناً جمجمة ، وإما تجميعات جنائزية عجيبة يتشارك فيها هيكل وجمجمة لاينتميان لفرد واحد . لاتوجد قولبة للجماجم ولا أي شيء يذكّر بـ «أثاث طقسيّ» . ماوصفناه عن مريبط الرابعة ، حيث لا قولبة أيضاً ، يبدي ، فيما عدا ذلك ، من المشابهات مع الوثائق الفلسطينية أكثر مما يبدي مع هذا الموقع المجاور ، لكن المتأخر أكثر ، الذي هو أبو هريرة .

إذاً ، من أواخر الألف الثامن حتى أواخر الألف السابع ، تستخدم بلاد الشام (ربما باستثناء أبو هريرة) قسماً من الهيكل العظمي ، والجمجمة ، لتجعل منهما تمثيلات حقيقية محفوظة في منازل الأحياء . هذه الممارسات تتخطى كثيراً ماتعبّر عنه بوجه عام واقعة أن الموتى يُدفنون .

مناقشة

ماذا نستخلص من هذه الآلاف الثلاثة من السنين في مضمار التمثيلات البشرية ؟

من جهة ، ثمة تضادّ ظاهر بين ندرة أولية لتماثيل الأشخاص وتواترها الملاحظ منذ الألف الثامن على الفرات ، وفي الألف السابع في سائر الأماكن . بشكل خاص ، حين يبدأ تكاثر هذه التماثيل في المريبط نحو سنة ٨٠٠٠ق .م ، فهي حصراً تمثيلات نسوية مجهولة حتى ذلك الحين .

علائم الجنس ، الأولية أو الثانوية ، واضحة ، حتى على معظم الأغراض التخطيطية ، وإذا ماغابت تماماً على سبيل الاستثناء (الرسم ٢٥، رقم ٥) ، يمكننا التفكير

(٥٩) Moore, Hillman et Legge 1975

بشكل معقول أن الهيئة العامة كانت تكفي للتذكير تلميحاً بواقع شائع التصوير بينما التماثيل الذكرية غائبة تماماً .

إن ملحوظة ثانية تصحّ أيضاً عن هذه الحقبة والحقب التالية : عبر تنوع كبير في الأساليب التي تعكس تنوع المواد كما واختلاف درجات التخطيطية في موقع واحد ، بل وبعض فروق الأسلوب الفني من منجم إلى آخر ، يوجد «نموذج نمط» ، أو بالأحرى عدة نماذجَ نمطيّة تتصالب وتتجاوب من منطقة إلى أخرى : أوّلاً تأكيد الأوْراك على الأشخاص الواقفة (مريبط) والجالسة (مريبط ، أسود دمشق ، البيضا ، رأس شمرة) على حد سواء . ثانياً هذا الوضع الجالس نفسه ، الجديد والذي أضحى شائعاً جداً . الشخص الجالس لايمثّل بصورة طبيعانية إلاّ في أسود دمشق ، وذلك بأسلوب فني يذكّر جداً بأسلوب شَطَل هُيُك الذي جاء بعده . في حالات أكثر شيوعاً ، يقوم تبسيط كبير ، يوسّع القاعدة ويقلّص إلى هذا الحد أو ذاك الجزء العلوي من الجسم مغطياً الموضوع شكلاً مخروطيّاً أو مثلثيّاً . هذا «الكود» أو «النظام» في التمثيل سوف يطغى هو نفسه في بلاد الرافدين وفي جبال زاغروس ، في ثقافات جارْمو وحسّونة وحَلَف .

تنجم عن ذلك نتيجتان : الأولى ، وهي طبيعية بالنسبة للعصور العتيقة ماقبل الكلاسيكية ، إن قولبة هذه الأغراض الفنية (أو تشكيلها الحجري) ليست غاية في ذاتها ، إنها ليست نشاطاً لعْبياً بل ولا فنّيّاً بالمعنى الذي قد نعتمده لهذه الكلمة اليوم . فالشكل الانساني ، بخاصة النسوي هنا ، لايعاد إنتاجه إلاّ لأنه قويّ المعنى والدلالة و«فائق التحدُّد» . هذا المعنى هو المهمّ لاالشكل ذاته الذي سوى إشارته . وهذه القيمة الدلالية يؤكدها واقع أن الترجمات الأكثر تخطيطية ، المجرّدة تقريباً ، ليس عند الحدّ الأخير سوى شبه بعيد من واقع مرئي عاديّ .

من جهة أخرى إن هذا «الكود» أو النظام هو فعلاً الدليل على «إجماع» أو توافق اجتماعي يتخطى الأماكن والثقافات الخصوصية . يوجد هنا نوع من لغة مشتركة ترمي ، ككل لغة ، إلى خارج ذاتها . لذا يمكن أن نؤكد أن القضية ليست هنا «تمثيلات لنساء» بقدر ماهي التأشير الاتفاقي ، بالشكل النسوي ، على هوية تنتمي للنفسية الجماعية لعصر بالكامل . إنها بالحقيقة صورة هذا الذي سيكون «الإلاهة الكبيرة» الشرقية تبزغ مع فجر هذا الألف السابع وسوف تتابع تحولاتها حتى الحقب التاريخية .

إذاً لئن تدخّلت هذه الهوية في لحظة محدّدة من ماقبل تاريخ بلاد الشام ، فلأنه في هذه اللحظة قد تبدّلت السيكولوجية الجماعية . شخوص المريبط تقدّم لنا عن ذلك نوعاً من شهادة أولى داعيةً إيانا هنا أيضاً إلى مجابهة هذا الطفو مع ما نعلم عن الميادين

الأخرى . عندئذٍ نلاحظ أن صورة الإلاهة تظهر هنا في وسط قروي استقرّ وتوطّن ، لكن في المرحلة الثالثة A، قبيل الممارسات الأولى الممهّدة للزراعة ومع بدايات تبدّل الصيد . هذا يثبت أن صفة الألوهة الزراعية التي سترتديها فيما بعد[٦٠] لايمكن أن تكون أوّلية أو أصلية ، لكنه يبين كذلك أن مجيئها يسبّق بقليل فقط على تغيرات كبيرة في النشاطات الغذائية ولايمكن أن يكون غريباً عنها تماماً[٦١] .

هذه التغيرات ، كما رأينا[٦٢] ، لاتظهر كردّ على ضغط إيكولوجي بقدر ماهي تظهر في أثر تفتح ثقافي وديموغرافي ، حيث أن مجتمعاً قيد التبدل لايبدو مغيّراً استراتيجياته إلاّ لأنه هو نفسه يتغير . ذلك هو الوجه السوسيولوجي للتغير الذي بدا لنا أوّلياً على الهيئة الاقتصادية . أما معايناتنا الحاضرة . فتضيف إلى ذلك بعداً أكثر ذاتية لأنه يتصل بالمعتقدات . أنْ يكتسب «الشكلُ الانساني» عندئذ في الفن ضرباً من ترفيع وأنْ يتظاهر منذئذٍ معنى «الإلهيّ» بوصفه بؤرة «خيالية» لكنْ فاعلة للنفسية الجماعية ، على سبيل الأفضلية في شخص نسوي ، آخذاً مكان «النورانيات المقدّسة» الحيوانية التي كانت غالبة حتى ذلك الحين[٦٣] : هذه واقعة خام قد يكون من الصعب النفاذ في علاقتها الصحيحة مع الباقي بدون الانكباب على نوع من «تحليل نفسي تاريخي للعلاقات بين ايديولوجية زمرة بدائية وممارستها الاقتصادية لابدّ أن يحسب حساب هذه الواقعة : في عصر مِفْصلي يتغير فيه كل شيء بنوع من عملية توالد متفاعل ، إن انقلاب المعتقدات هو ، زمنياً الأوّلُ المشار إليه .

هل وُجدت بعد ذلك ، نحو سنة ٧٠٠٠ ق .م ، صورة إنسانية ثانية ، مذكّرة هذه المرة ، جاءت تصحب الإلاهة في البانتيون النيوليتي كما ستكون الحال بالتأكيد في الألف السادس في شَطَل هُيُك[٦٤] ؟ مازالت الوثائق عن بلاد الشام أندر من أن نؤكد ذلك : إن الشخوص القُضيبية الشكل بموقع المنحطة لاتبدو متفقة ، بالنسبة للشخص النسوي ، مع

---

(٦٠) Przyluski 1950

(٦١) في **أسود** دمشق ، المرحلة الأولى التي ليس فيها زراعة ، ليس فيها سوى تماثيل حيوانية ، أما التماثيل الانسانية فتظهر في أسود المرحلة الثانية ، التي هي ، حسب **أرليت لوروا غورهان** (إبلاغ شخصي) ، زراعية .

(٦٢) انظر آنفاً ، الفصل الخامس ، عند الحواشي ٥٤ - ٥٧ .

(٦٣) في منظور ينتسب الى يونغ Zung ، حيث يوضع تاريخ البشرية السيكولوجي في توافق مع سيرورة «التفردن» الشخصية (انظر Neumann 1955) ، يكون الانتقال من الشكل الحيواني الى الشكل الانساني، في الأساطير كما في أحلامنا ، مترجماً عن مزيد من «الوعي» (الشعور) ومن القوة الفاعلة.

(٦٤) Mellaert 1967

النموذج النمطي للإلاهة الذي برز بشكل جيد في أماكن أخرى والحاضر في العصر نفسه في اريحا والبيضا . بحيث لايمكن أن نؤكد أن هذه الأشخاص الطينية من الجنسين ، ومع الإهمال البادي في صنعها عدا عن ذلك ، هي فعلاً تمثيلات إلهية . لعلّ الأشخاص الملتحين بموقع أريحا ومريبط الرابعة يهيئون الربّ الذكري بموقع شطل ، الذي هو أيضاً ملتحٍ ، ومُشْرك إيقونوغرافياً مع الثور . من المؤكد على كل حال أنَّ تقديساً للثور كان موجوداً في مريبط بموازاة بروز الإلاهة بل وقبل ذلك بقرون . يبدو الفرات الأوسط ، بهذه الثنائية ، يبشّر بالزوج الإلهي الأكثر صراحة بكثير الذي سيمثّله ، في فنّه ، النيوليتيُّ الأناضوليُّ .

لكنْ ، إلهاً أو إلاهةً ، ليس الشكل الانساني هنا سوى رداء لقوة إلهيّة كان لشكل حيواني أن يستحضرها بالأمس[٦٥] . أجل إنه لتطورٌ هام أن يحمَّل جسمُ الانسان وظيفةً رمزية متزايدة الهيمنة ، وسوف تحيل ، في العصر التاريخي ، كما يعلم الجميع ، الحيوانات على دور «محمولات» مساعدة لآلهة جميعها إنسانية الشكل .

إن «عبادة الجماجم» قد تعني ، من جهتها ، شيئاً مختلفاً أيضاً . لعلّ هناك مبالغة ، على الصعيد الاستيطيقيّ ، حول الهيئة الفردية والمشخصنة للقولبات الجمجمية[٦٦] . يبقى ، في ما ـ بعد التقوى الجنائزية المحض التي تعود صعداً ، عالياً جداً ، إلى بشرية العصر الموستيري ، أنّ نيوليتيّي الألف السابع قرروا الاحتفاظ بصورة بعض ذويهم الراحلين حاضرة ومرئية لجماعة الأحياء .الجماجم ، سواء عُرضت في حالتها الطبيعية كما في مريبط الرابعة أو مقولبة على صورة الحيّ كما في أريحا أو بيمسون أو رماد ، إنما تبدو ، بحكم كثرتها أو تجاورها المراد داخل المساكن ، شيئاً آخر مختلفاً عن أن تكون مساند رمزية لقوة غير متميزة ، إنها بالتأكيد استحضار الأشخاص الذين كانت تنتمي لهم . من هنا التعبير المشروع «عبادة الأجداد» الذي أطلق أيضاً على هذه الظاهرة[٦٧] .

في عصر تتعمّم فيه الزراعة مع النتائج ، التي أشار إليها فلانري ، التي استتبعها على

(٦٥) تلك حال الثور ، والفهد ، في **شَطَل هُيُك** بوصفهما بديلاً حيوانياً عن الإلاهة .

(٦٦) بالحقيقة ليست موهبة المصوِّر أمراً لا شك فيه الا بالنسبة لجمجمة واحدة في أريحا (الرسم ٣٢ رقم ٣) .

(٦٧) ليس مستحيلاً ان يُعبَّر عن هذه العبادة ذاتها ، في اواخر النيوليتي السابق للفخار B في أريحا ، بـ «التماثيل» التي تذكّر تقنيتها (تمثيل العيون بقواقع ، تلوينات بنّية في شكل أشرطة : انظر الرسم ٣٠ ، رقم ١) تماماً بتقنية القولبات ، اذا استثنينا إعادة استخدام الجمجمة . ذلك أوّل تظاهر لفن إنساني الشكل وبالحجم الطبيعي ، فالقصد الواقعي يمتد اذن الى المقاييس . الخيار بين هذا التأويل وتمثيل الآلهة يبقى بالتالي مفتوحاً .

تملّك المجال بوصفه قِطعاً من الأرض «يقيّمها» الشغل الزراعي[٦٨] وانتقال هذه القطع بالوراثة ، من المفيد والهام أن نجد في الثقافة غير المادية الآثار المرئية لايديولوجية بُنوّة . تتم الأمور كما لو أن البشرية التي أتت إلى موقف أكثر فعلاً ونشاطاً إزاء الطبيعة «قيّمت» في الوقت نفسه في ذات أعينها نوعَها ذاته لدرجة جعلتها تقيم له مزيداً من التكريم اليومي في شخص أعضائها الراحلين .

هنا نعود ، في مستوى عياني أكثر أيضاً ، إلى ملاحظتنا الآنفة . سواء كان الأمر إعطاء الانسان شكلاً لمراجعة الأسطورية أو توطيدَ وعيه الواضح لنسله الشخصي ، فإن مايصعد آنذاك في فكر وثقافة المزارعين الأوائل هو صورة الانسان .

الأسس النفسية للاختراع

الأغراض الأولى من الطين المشوي هي ، كما رأى القارئ ، في مريبط الثالثة الشخوص البشرية جوهرياً ، مع الآنية الصغيرة المتفاوتة الشيّ والتي وصفناها أعلاه[٦٩] . الأغراض الأخرى الوحيدة المعاصرة المصنوعة من المادّة نفسها هي (في مريبط وشيخ حسن) أقراص وأسطوانات وأشياء أخرى غير تصويرية . والأمر كذلك ، حسب شمَندت ـ بسّرات ، بالنسبة للأغراض الأولى الفخارية في جبال زاغروس ، في أَشياب حَرْم شهر : إنها تماثيل تصويرية أو أشياء هندسية ملغوزة المعنى[٧٠] ، أي أغراض لايمكن فهم حضورها المادي بدون الرجوع إلى محتوى رمزي . ولقد ظهر لنا أن سباقاً دينياً أكثر منه نفعياً لأمرٌ بدهي بالنسبة لهذه الأغراض كافة ، تصويرية وغير تصويرية . وبدا لنا أن الأمر لايختلف بالنسبة للإبداعات الأولى بالحجر المصْقول في المريبط : أنواط ـ قُضيبات النطوفي ، ثم القضبان المصقولة . هل سيتوجب علينا ، وإنْ كره الوضعانيون ، أن نلقي بهذه التقنيات الوليدة ، مع كل ماتحمله من بذور تقدّم تقنيّ هامّ ، في كفة الممارسات الدينية ؟

بالحقيقة لن يندهش إلاّ أولئك الذين يرون أن ينسوا ماتُعلّمنا إياه كتب تاريخ العلوم أو كتب الاتنوغرافيا جميعاً : الكيمياء الحديثة آتية من السيمياء ، صناعات التعدين البدائية مشبعة بالطقوس ومقيّدة بالمحرّمات «السحرّية»[٧١] ، باختصار إن عالماً من الهوامات ومن الإسقاطات اللاّشعورية يطبع كل التكنولوجيا في بداياتها الأولى .

(٦٨) والأمر كذلك بالنسبة للحيوانات حين ، مع التربية ، ينتمي القطيع للقرية ويمكن أيضاً ان يُنقل فيها.

(٦٩) انظر آنفاً ، الفصل السادس ، عند الحاشية ٧١ .

(٧٠) يقرنها Schmandt - Besserat 1974 بـ «الحصى الحسابية» العراقية في الألف الثالث .

(٧١) Eliade 1956 .

ثمة سؤال تقود أحدث البحوث عن آلية الاختراع[٧٢] إلى طرحه : بدلاً من أن تكون نوعاً من براز لاعقليّ يتوصّل حرصٌ على الجدوى الموضوعية أساسيّ وأوّل إلى التحرّر منه شيئاً فشيئاً ، أفلا تكون هذه الهوامات وهذه الإسقاطات على العكس من ذلك محرّك الاكتشافات عينه ، ولايتخذ الفعل الخلاّق غايةً عيانية إلاّ بعد الضربة ؟

إن الإدخال المؤخرّ في سورية للصقل وللفخّار في الأثاث النفعي يبدو مثبتاً هذه الرؤية . مثلما لم يكن اختراع الطيارة ، في الأصل ، فعل مهندسين حرصوا على تحسين نقلياتنا بل كان عمل هواة حِرفيين يعيشون من جديد أسطورة إيكاريوس ، اي يحاولون أن يُخرجوا في ممارسة حِرفية «حلم الطيران» ، بوصفه هواماً يكاد أن لا يكون واعياً ، كذلك ينبغي من أجل تعليل طابع الأغراض المصقولة الأولى «غير النافع» ، لكنِ «الرائع» ، التوقّف طويلاً عند فعل الصقل نفسه ، عند الرنين الخيالي لهذه الكيفية ، الجديدة تماماً آنذاك ، في تكييف الحجر بعمليّة حكّ إيقاعيّ مديد ، وعند الإجلال اللاّعقلي الذي لابدّ أنه قيّم منتجاتها الأولى .

وكذلك أيضاً ، حين نقدّم اكتشاف الطين المشوي كأنه نتيجة المعاينة الاختبارية الباردة للشيّ اللاّإرادي لحوافّ الحفر ـ المواقد الطينية ، ليس أكيداً أننا لانُسقط هنا على تلك الحادثة القديمة «ذهنيتنا العلْمية» ذاتها ، مع أن بروزها في الغرب شيء حديث بمافيه الكفاية . لعلّ من المناسب أن لا يعزو علماء ماقبل التاريخ لبشر ماقبل التاريخ الخيال الجاف بعض الشيء الذي يتصف به ميدانهم العلمي ذاته . بالتأكيد ليس من قبيل المصادفة أن يكون أوّل فنّ خزفيّ قد أعطى شكلاً في البداية لرموز ستظهر بعد ذلك في كل مكان ، على حين أن فخّاريات مريبط الأولى ، التي تكون منفعتها العملية قبلياً أكثر جلاءً ، تمثّل بوصفها اختراعاً شارداً ، رفضته ثقافة العصر واختفى حتى أواخر الألف السابع .

كما يبيّن بريل[٧٣] ، إن غرضاً ثقافياً بعيداً إلى حد كاف عن مصادره لهو برمّته يستحق أسئلة وضعية وإيجابية تماماً عن صنعه وعن وظيفته التقنية ، وهذا ماكانه عملُ لوروا ـ غورهان مثلاً . بالمقابل ، إن المرحلة الرمزية التي تدشّن بعض الإبداعات الهامّة تنتسب إلى نموذج من البحوث مغاير تماماً ، يأخذ حساب المتضمَّنات النفسية لتماسّ الانسان مع المادّة . إن مايهم هنا هو أن هذه المتضمّنات كانت في الأصل على مايكفي من القوّة لكي تتخرّج مادياً في مجموعة من الحركات والممارسات ولكي تفضي إلى تشكيل أغراض واقعية وإن كانت في البداية محفوظة لعالم الثقافة «الخالصة» المنطوي على الذات .

(٧٢) Bril 1973

(٧٣) Bril 1973 ، ص ١٠٩

الخاتمة

الثقافةُ عاملَ تغيُّر

إن الفعالية الذاتية للنفسية البشرية التي تتخطى على نحو واسع ، كما يقول لوسيان سيف[١] ، حدود الكائن العضوي وحاجاته ، هي ربّما الأمر الذي يُنسى أكثر من سواه حين يحاولون شرح أسباب التقدم الذي يؤلف الاستقرار الحضري مرحلة أساسية فيه . بالتأكيد ، ليس المجتمع البشري وحيداً في وقت من الأوقات ، بل ينبغي عليه دائماً التلاؤم مع بيئة ما ، وإن المنظور الايكولوجي الذي تندرج فيه البحوث في الشرق الأدنى منذ الدفع الذي نالته من فريق بريدوود يبقى الإطار الطبيعي والمحتوم الذي يجب أن يلاحظ فيه ، بطرائق منعّمة ومحكمة على الدوام ، لعبُ الأفعال وردود الأفعال الجدلي بين المجتمعات القروية ومحيطها . لكن لماذا الايكولوجيا البشرية تطرح مسائل مختلفة كل هذا الاختلاف عن مسائل الايكولوجيا الحيوانية ؟ ماهو السبب في ن تغيراً حاسماً يحصل في وقت من الأوقات وليس في غيرِهِ ، لماذا مثلاً النطوفيون ، وكانت بيئتهم شبيهة ببيئة الألفين الثامن أو السابع التاليين ، لم يزرعوا حقولاً ولم يربّوا ماعزاً ؟

كان جواب بريدوود العبارة الشهيرة : «لم تكن الثقافة جاهزة» ، «culture was not ready» ، وهي شهيرة لأنها كثيراً ماترد على لسان باحثي المدرسة الأميركية الجديدة ، بوصفها النموذج الأعلى ، واأسفاه ، للحكمة ماقبل العلْمية التي يجب تجاوزها . . . والحال ، لقد وضعنا جميع مؤلّفات الاستقرار الحضري القابلة للادراك في موازاة منهجية ، بدءاً من المسند الطبيعي للتغيرات وصولاً إلى الآلهة الجديدة . والعامل

(١) Seve 1972 ، ص ٢٧٨

المقرر في التجارب الزراعية الأولى تبدّى لنا مبادرةً إنسانية لاثمرةَ ضغط من البيئة . كان على المجتمع أن يتكيف مع نفسه ، مع معضلاته الداخلية ، بتغيير استراتيجياته ، لامع بطلان استراتيجياته السابقة نسبة إلى حاجاته الغذائية . إن المكاثفات أو المراكَزات الاصطناعية للحبوب ، وكذلك ربّما الصيد المتخصّص للعاشبات الكبرى ، كانت تعبّر عن تقدّم للعمل المنظّم ، يمكن أن ندركه في فنون العمارة أيضاً ، داخل مجتمعات نمت ، وكان فيها هذا التنظيم عينه شرط نموّ ديموغرافي مولّد لتوتّرات اجتماعية .

إنه من جهة أخرى العصر الذي أصبحت فيه القرى المستقرة ، التي كان نظامها الغذائي حتى ذلك الحين مبنياً على الاستثمار المتنوع للموارد البرية (brood sprctrum، طيف رحب) ، تُضيّق أو «توثّق» خياراتها . بطبيعة الحال ، لايمكن لهذه الخيارات أن تمارس خارج مايقترحه المحيط بل وقد يمليها هذا المحيط إملاءً في بعض الأحيان[٢] . لكن حين يكون هامش الحرية أكبر بفضل تنوع أكبر في الممكنات ، عندئذ تظهر أهمية الثقافة . البقر الوحش والخيول المقنوصة في مريبط الثالثة لاتشكل طعام الأساس ، لاعند نطوفيي الفرات ولا ، على مسافة ٢٠ كم من المريبط ، لقرويي أبو هريرة اللاحقين ، فخيارهم غير ذلك ، وهذا الفرق ليس مردّه كما يبدو لدرجة توافر القطعان حولهم .

كيف إذاً تمّ هذا الخيار ؟ لقد رأينا أنه حين دخل الثور (والحمار على الأرجح) المسرح في المريبط ، منذ ٨٢٠٠، فقد دخلاه في حضن تركيبات رمزية غير نفعية . ولفي أثر هذا الانتخاب الرمزي ، حيث أن استهلاك هذين الحيوانيين ظلّ حدثاً نادراً ، سيغدو القرويون على سبيل التفضيل صيادي أبقار أو خيول ، بل ربّما مربّين ـ بادئين للأبقار ، الأمر الذي يثبت كما يبدو فرضية ريد عن عملية فصل دينيّ مُعَلْمن في الممارسة الاقتصادية ، تبعاً لموديل هو في الحاصل قريب إلى حدّ كافٍ مما نعانيه بالنسبة للتقنيات الجديدة .

إذا كان لهذه الوقائع المعدودة التي تكشفها دراسة الطبقات معنى ، فمعناها أنّ الظاهرة الثقافية ليس فقط يمكن أن تسبق التغير الاقتصادي ، بل يمكن أن تثيرها وتسبّبها ، أنّ الظاهرة **ديناميكة** ، أنها تخفي في نفسها قوة تحرّك وتحوّل للبيئة الاجتماعية بمجموعها و ، بانعكاس الضربة ، للبيئة الطبيعية التي تغمر المجتمع .

هذا مردّه بالتأكيد للطابع الخاص جداً الذي يسم التلاؤم البشري مع هذه البيئة .

(٢) هكذا ، حسب تأويل **هيكر** ، تبدو حال الأهمية المبكرة التي أحرزتها **العنزة في البيضا** ، بما يتناقض مع تفضيل **النطوفيين** الاعتيادي **للغزال** . انظر آنفاً ، الفصل الخامس، عند الحاشية ٧٢ .

فالانسان لايتكيّف مع الطبيعة الخام وحسْب ، بل **مع الطبيعة كما تدركها نفسيّته** ، عبر الفعل الانفكاري الذي يفرّد نوعنا . كما قال البعض ، إن «قُبلَ ـ العلم الغريزيّ preseience instinctive» (مصطلح ديل Diel) الذي يكيّف الحيوان عفوياً مع جواره يخلي المكان هنا لـِ «تكيّف فريد ، سيكولوجيّ الطبيعة ، وهو في سلّم النوع ونطاقه قابليته للتكيّف»[٣] .

هذا التلاؤم يتضمّن ويقتضي وعياً ، و ، داخل حدود معيّنة ، حرية خيار وخلق ، لكن أيضاً «قلقاً أوّلياً» وعدم أمن . العالم مدرَك عبر ارتكاسات عاطفية قوية ، تجعل ، على سبيل المثال ، أنّ ثوراً كبيراً من نوع Primigenius كان ، قبل تمثيله لنصف طنّ من اللحم هاهُنا ، كان بادئ ذي بدء حيواناً مخيفاً ، قادراً على أن يرمز إلى ألف لون من ألوان الرعب اللاعقلية المنكتبة في صميم الانسان[٤] .

هكذا يكفّ الواقع الطبيعي ، الذي تشحنه النفسية الانسانية بتحديدات إضافية ، عن كونه مشهداً محايداً أو «ذخراً» موضوعياً وحسب : إنه أيضاً مشكل داخلي . السلوك العيني إزاءه ، الذي يتضمن قوة انفعالية كبيرة ، هو بآن معاً تابع لتطور هذه العوامل النفسية وجاهز للاستفادة من القوّة الطاقيّة الملازمة لها حين ستحوّل الاعتلالاتُ السالبة إلى نبضات موجبة ورغبة فتح[٥] .

لذا فالتغيرات التاريخية للنفسية الجماعية ذات أهمية كبيرة ، **فهي التي تحوّل** حاجات الزمرة (الحاجات التي ليست بيولوجية إلاّ بشكل جزئي جداً) والتي تستطيع إذاً أن تقرّر سلوكات جديدة ، حتى في الممارسة الطعامية . لقد بيّن ساهلنس بشكل جيّد أنه لئن كان الصيادون ـ القاطفون يعيشون «مجتمع وفرة»[٦] فذلك لأن ثقافتهم ، أي «وسطهم الداخلي» ، كانت تصون ، في التوازن ، هذه الحاجات عند أدنى مستوى . ثم جاء اللاّتوازن ، ومعه التغيّر . تساءلنا عن أسباب اللاّتوازن وعن محرّك التغيرات . وأظهر تحليلنا للوقائع ، في ظروف أساسية عديدة إن الأسباب الاقتصادية ماكان يمكن أن تكون

(٣) Bril 1973

(٤) انظر Durand 1969

(٥) استرجاعاً لمثال الثور ، نعلم ان الخشية التي يثيرها يمكن ان تنقلب الى جرأة ، وهو انقلاب توحي به أصلاً ، في رسوم **شَطَل هُيُك** ، الدورات «البطولية» التي يؤديها الصيادون المسلّحون حول الثور ، وفي وقت لاحق مصارعات الثيران في حضارة **كريت** .

(٦) Sahlins 1972

مقَررة . مع ذلك كان هناك إعجاب بأنّ كل مرحلة حاسمة كانت تسمها قفزة كمية في كثافة الزمر البشرية : سواء إبان الانتقال من الكهف إلى القرية «الحضرية ـ التمهيدية» أو في الألف الثامن عند ظهور الجماعات «الزراعية ـ التمهيدية» الأولى ، أو أخيراً ربّما ، في أواخر الألف السابع حين احتلّ الزراعيون مناطق من بلاد الشام تُركت خالية حتى ذلك الحين (الساحل ، المناطق القاحلة) لأن شروطها الايكولوجية لم تكن صالحة للزراعة البادئة .

والحال ، كانت هذه القفزات الديموغرافية تقتضي وتتضمّن ، في كل مرّة ، طريقة جديدة في التساكن وفي عيش العلاقات بين الذوات ، إذن قابلية للردّ نوعاً ما «من الداخل» على التوترات النّفسية التي ترافق دوماً مراجعة الزمر لبناها وتغييرها لها . يتبدى هنا أن دور الثقافة تشكيل هذه القابلية . فهي في مريبط ، التي تستبق بشكل مرئي الحالة الاجتماعية ـ الاقتصادية الجديدة . إن حزمة كاملة من المبتكرات التي ليست لها غائية عينيّة (عبادة الثور ، ظهور الإلاهة ، طرق جديدة ، مُشْرطة نفسياً إشراطاً بالغاً ، في صياغة المادّة على نحو رمزي بحت) هي في منشأ هذا «التفتّح الثقافي» الذي ستظهَر في داخله وبآنٍ معاً مقاربةٌ جديدة فاتحة للبيئة الطبيعية وتكنولوجيةٌ أكثرَ فعلية ، وفي هذا الاطار ، تبدو بعض الاتجاهات الخاصة (مطاردة البقر ، الفؤوس المصقولة ، وفخّار الاستعمال في وقت لاحق) ، تبدو محكومة بعمليات فصل سيكولوجية اختُبرت من قبل في سياق غير مادي .

لذا فإنّ «جرد الموارد» الذي باتَ يقوم به علم البيئة القديمة الحديث بمناسبة كل تنقيب سيكون في الحاصل أكثر الأعمال عبثاً وبطلاناً فيما إذا لم يصحبه الوعي الواضح لواقع أن المحيط نفسه تتناوله الزمرة وتدركه بحدود ومفردات القيم الثقافية والاجتماعية («الطبيعية في ذاتها» لاوجود لها . .) ولواقع أن منبع المبتكرات الأكثر إبداعاً هو النفسية الإنسانية ولواقع أن **الثقافة** هي فعلاً هذا «المختبر الجماعي» الذي تهيء البشرية فيه انعطافاتها الكبرى .

في العالم الحاضر ، حيث بدأت ايديولوجيات فائقة الحرص على الاضطلاع بالحاجات الأكثر عيانية لمجتمعنا تتساءل عن الطبيعة الحقيقية لهذه الحاجات ، وحيث جاءت اتجاهات أخرى أكثر جذرية أيضاً لتنادي بـ «ثقافة ـ مضادّة» رداً على تناقضات اقتصاد غازٍ مكتسح ، قد لاتكون هذه التأملات القليلة المستوحاة من ماضٍ بعيد ، بعيدةٌ عن الراهن .

انتهى

	PALESTINE	EUPHRATE	DAMASCÈNE	PALMYRÈNE	LITTORAL SYRIEN	PÉRIODES (Hours et alii)
6000 6500	Abou Gosh Beisamoun Tell Eli Munhata 3?	Abu Hureyra II Bouqras Assouad	Ramad II Ramad I Ghoraife	El Kowm base	Ras Shamra V C	IV
7000 7500	Nahal Oren PPNB Nahal Divshon Beidha VI-I Munhata 6-4 Jericho PPNB (Ouatus?)	? Mureybet IV B Mureybet IV A	Aswad II B Aswad Ouest Aswad II A Aswad I B			III
8000	Nahal Oren PPNA ? El Khiam El Ouad B1 Abu Salem Gilgal Jericho PPNA Jericho protoneo	Cheikh Hassan Mureybet III B Mureybet III A Mureybet II	Aswad I A			II
8500 9000 9500 10000	Nahal Oren X Rosh Zin R. Horesha Ein Abou Suf ? Mallaha Beidha base Jericho Natoufien Kebarah B El Khiam M. ez Zoueitina Erq el Ahmar El Ouad B2 Hayonim	Mureybet I B Mureybet I A Abu Hureyra Natoufien Dibsi Faraj				I

جدول التوافقات الكردنولوجية

VAUX, R. de et STEVE, A.M. 1947. La première campagne de fouilles de Tell el-Farah près Naplouse, ***Revue Biblique***, 54, 394-433.

VITA FINZI, C. et HIGGS, E.S. 1970. Prehistoric economy in the Mount Carmel area of Palestine. Site catchment analysis, *Proceedings of the Prehistoric Society*, 36, 1-37.

WAECHTER J. d'A. et SETON-WILLIAMS V.M. 1938. The excavations at Wadi Dhobaï 1937-1938 and the dhobaian industry. Archaeological report, *Journal of the Palestine Oriental Society*, 18, 172-185.

ZEUNER, F. 1955. The goats of early Jericho, *Palestine Exploration Quarterly*, 70-86.

ZEUNER, F. 1963. *A history of domesticated animals*. Londres, Hutchinson, 560 p.

ZOHARY, M. 1969. The progenitors of wheat and barley in relation to domestication and agricultural dispersal in the old World. p. 47-66 *in* : UCKO P.J. et DIMBLEBY ed. *The domestication and exploitation of plants and animals*, Londres, Duckworth, 381 p.

فهرس المواد